

الجنرال سمطس
رئيس مجمع تقدم العلوم البريطاني في اجتماعه المثوي

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الثالث من المجلد التاسع والسبعين

١ نوفمبر سنة ١٩٣١ — ٢٠ جاد ثاني سنة ١٣٥٠

العلم والانسانية

✽ وجوب العناية بالناحية العلمية في التعليم العام ✽

بين ما في العلم النظرية والعملية من ناحية، وبين مقامه في ادارة الشؤون العامة من ناحية اخرى هوة شاسعة. ومجرد الالتفات الى القرن الذي انقضى على تأسيس مجمع تقدم العلوم البريطاني كافٍ لاثبات ذلك. ففي سنة ١٨٣١ اجتمع في مدينة يورك طائفة من المتحمسين للعلم وغرضهم من اجتماعهم «أن يخلقوا حافزاً لتنشيط البحث العلمي وتوجيه توجيهاً منتظماً، وانشاء صلة بين المشتغلين بالعلم في أنحاء الامبراطورية البريطانية». تلك الجماعة الضئيلة الضعيفة أصبحت مجعاً علمياً محترماً تحتفي الامبراطورية البريطانية بعيده السنوي في عاصمتها. فيؤم معظم جلساته اعظم علماء العالم، احتراماً لمقامه واعترافاً بأثره.

لقد زالت المعارضة التي لقيها المجمع في عهده الاول — وقد جاء بعضها من نواح غير منتظرة مثل معارضة كارليل له — ولكن المكتشفات والمستنبطات التي توالى في أثناء قرن كامل لم تفد شيئاً في رفع مقام العلم الاجتماعي وزيادة سلطته أو توسيع نطاق أثره في ادارة الشؤون العامة. ومع أن المسائل الكبرى التي تعانها الحكومات تقتضي فهم عوامها العلمية، لا يزال الحكماء في معظم الاقطار يتصفون باهمهم أو جهلهم لأثر العلم

الصحيح في سير العمران . وهذه حالة تنطوي على خطر عظيم يهدد الحضارة . فنحن نواجه هوة بين المعرفة والسلطان . وبونا شاسعاً بين اطلاق الحرية لزيادة أثر العلم في الشؤون الصناعية والاجتماعية ، واهمال اثره في السيطرة على السياسات القومية والدولية التي يعود اليها بوجه خاص ازدهار الصناعة والاجتماع ، أو ركودها

وأشهر الآراء في تحليل هذا ، أن التخصص العلمي يجعل رجل العلم غير قادر على القيام بأعمال الادارة ، أو تقدير العوامل المختلفة التي تخرج عن نطاق اختصاصه . وأساس هذا الرأي أن ثمة فرق بين المعرفة من جهة وبين استعمالها من جهة أخرى . ولكن طالب العلم في ذلك لا يختلف عن طالب الآداب أو التاريخ أو الفلسفة . فليس في أسلوب الجامعات — لا في إنجلترا ولا في غيرها — ما يعلم الطالب بوجه خاص استعمال المعرفة ، أو ربط المعرفة بالسلطان

أما القول بأن سرعة ارتقاء العلوم واتساع نطاق المعرفة يجعل اختيار المشتغلين بالشؤون العامة عملاً شاقاً ، وعليه فلا بد من التريث قليلاً في البحث ، وعقد هدنة في دوائر العلم لكي تتمكن من ربط الحقائق واستعمالها ، فقام على أساس خاطيء . وإذا نظرنا فقط الى الخسارة التي كانت نزلت بالعمران لو عقدت هذه الهدنة العلمية في أي فترة من فترات المائة سنة الماضية كفي ذلك لان يبين ضعفه . فالطبيعة لا تتبدل في كشف أسرارها لمن لا يغتنم فرصة السانحة . ومن يحزم بأنه لو عقدت هذه الهدنة ، كنا تتمتع الآن بما تتمتع به من المعارف التي تدور حول الراديو أو الفيتامين أو الانسولين أو الاذاعة اللاسلكية أو الصور المتحركة ! فصدت تيار البحث العلمي الآن قد يحرم الانسانية مدى جيل أو اكثر مفتاحاً حيوياً ، ربما كان على وشك الظهور ، للانتصار على السرطان أو فهم أسباب الضائقة المستحكة في الصناعات

فما نحتاج اليه كل الحاجة ، ليس تقليص نطاق البحث العلمي ، بل الحكمة في توسيعه وتوجيهه ومن المجمع عليه بين الباحثين في عيوب التعليم الحديث في الجامعات ان هذا التعليم يمكن الطالب من فهم الحقائق والمبادئ من دون ان يطبعه بالاسلوب العلمي فينجم عن ذلك ان المتعلمين لا يستطيعون في غالب الاحيان ان يدركوا قيمة الاشياء ، وخصوصاً ما كان منها مرتبطاً بالناس والاجتماع . فالخير الفني يباهي عادة بأنه لا يتأثر في تحليله لحالة من الحالات ، بالعوامل الانسانية ويحصر نظره في الحقائق المجردة . وهذا يصدق على المتخرج الجديد من الجامعة او المدرسة الفنية فقط . ولكنه اذا لامس الحياة في شؤون الصناعة مثلاً أدرك قيمة فهم هذه العوامل في الاعمال المختلفة التي يزاولها ، فيتعلم فائدة التعاون واللين والاحذ والعطاء في تقرير قواعد العمل .

وهذا يعدّه لإدارة الأعمال على وجه أوفى . وليس يعوزنا الدليل على ان الذين تلقوا التعليم العلمي لا تنقصهم المقدرة على ملاءمة انفسهم لشؤون الادارة وان خريجي مدارس الادب والتاريخ لا يفوقونهم في ذلك . والعيب المشار اليه في نظام التعليم يحيط قيمة العلم الانسانية بشيء من الربيب والعموض فيفضي الى ايهال اثر العلم في تربية طلاب الفنون والحقوق والتجارة وغيرها . وهنا لا بدّ من الاشارة الى عقيدة هكسلي بأن الثقافة الصحيحة ميسّرة للطلاب عن طريق العلم تيسّرها عن طريق الفنون والآداب على الاقل . فطالب العلم يتعلم شيئاً من اركان الاسلوب العلمي في البحث ، ويتعوّد عادة الملاحظة والاستقراء . وهذه الصفات لازمة لرجال الادارة لزومها لكل من يرغب في الحصول على احكام معقولة سواء في الفن او التاريخ او الحياة بوجه عام . ثم ان التشديد على مقام الاكتشاف والتحقيق الذي يقوم عليها كل تعليم علمي يكسر من شوكة الرضوخ لاقوال « النفاة » التي يصعب اجتنبها في التعليم الادبي . وهذا وحده كافٍ للقول بأن الاسلوب العلمي والتدرّب عليه لا بدّ منهما لاحكام التوازن في تقدير الشؤون الاجتماعية التي يتناولها وقد اخذ المسيطرون على نظم التعليم يدركون الخطأ الكبير في تدريس العلم بطريقة غير علمية . فرجال العلوم الحيوية ينددون باهمال علومهم مع شدة اتصالها بالصحة والصناعة والادارة علاوة على اثرها في تصريف الشؤون القومية والدولية وعلاقات السلالات بعضها ببعض وحكم الشعوب المتأخرة وانشاء صلات التعاون بدلاً من التزاحم — ولا ريب في أن جانباً كبيراً من مستقبل الحضارة رهين بحل هذه المشكلات

ثم ان تدريس تاريخ العلم له فوائد جمة كنا نحملها ونحملها الى الآن . ففي سير رجال العلم من الامثلة البليغة على شجاعتهم واقدامهم وصبرهم وسعة حياتهم ما يثير في نفوس الطلاب اسمى النزعات الانسانية . ثم اتنا اهلنا ادماج تقدم العلم في كتب التاريخ فغاب عنا اثر العلم في سير الحضارة في نواحيها المختلفة . ومن هنا نرى اتنا ما زلنا بعيدين عن تحقيق المثل الاعلى الذي وصفه هكسلي بقوله : ان التعليم العلمي لا يعني اعداد الطالب لمواجهة كل المشكلات التي تمرّض له وحلّها في الحال بل يعني اتصاله بتيار التفكير العلمي وقدرته على استعمال اساليب العلم بالطريقة الملائمة في المشكلات الخاصة . وسرعة ارتفاع العلم في القرن الاخير يحمل تحقيق هذا المثل لامندوحة عنه اذا شئنا للعمران البقاء اذ يستحيل بعد الآن وضع مقاليد الامور في ايدي من يجهلون قواعد العلم ومبادئ اسلوبه . وروح العلم هي الشيء الثمين ، الاساسي ، في كل هذا . اذ لا قيمة دائمة للمعارف التي تجمع وتبوّب . فلم عصر من العصور يصبح سخافة عصر تال . ولكن روح العلم ، واسلوبه يسيران بالانسان الى انتصارات جديدة على عوامل يثني المتغيرة



غرائب تعاون الحيوان

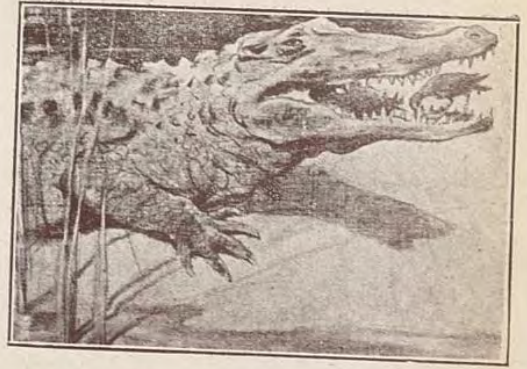
من طبائع التماسح أن طائراً صغيراً اسمه القطقاط يدخل فاه التماسح ويلتقط فضلات الطعام من بين أسنانه والتماسح راض بذلك مرتاح إليه لا يغدر بضيفه ولو أكل الطعام من فيه . وقد رأى بعض السباح التماسح مرأى العين ورأى هذا الطائر يدخل فاه ويخرج منه ومن السهل أن يُسكتب فصل طويل عن تعاون الحيوانات لا التي من نوع واحد أو من فصيلة واحدة لان هذه امرها في التعاون مشهور بل التي من فصائل مختلفة كالتماسح والقطقاط والطائر الذي يلتقط القراد عن البقر والابل . فقد قضت العناية أن يُسخر بعضها لبعض فينتفع الواحد من الآخر وبردُّ له صاعاً بصاع على غير ما هو شائع بين أكثر طوائف الحيوان والنبات من الجهاد الذي يقضى به على الالوف لنفع الواحد فيغذي الطائر الصغير بمائة حشرة في يومه يلتهمها حية ولا يبالي كأنها رزق حلال له . ويقوم الانسان رب الحكمة والانصاف على هذه الطيور الصغيرة فيصطادها ويذبحها ويشويها ويأكلها ناعم البال . هذا ليس التعاون الذي نعنيه لانه ليس في مصلحة فريق واحد حسب الظاهر ولا في مصلحة الفريقين معاً

ذكر الاقدمون ان الثعلب يقيم في أجمة الاسد ينبئ بالخطر ويرشده الى الصيد فيترك له الاسد فضلات طعامه . ولو كان الامر كذلك لعددناه من باب تعاون الحيوان الذي كلامنا فيه . لكن المحققين انكروا الآن ما يخص الثعلب من هذه المعاونة وقالوا انه يقتضي آثار الاسود ويأكل ما يفضل من طعامها ولكنه لا ينبئها بخطر ولا يرشدها الى صيد فهو طُفيلٌ ينفع ولا ينفع مثل كثيرين من أبناء آدم . إلا أن الاسود تفعل ما تفعل من تركها الطعام غير قاصدة نفعه ولا نفع غيره . واذا التقت به وهي جائعة افترسته كما تفترس الحملان فهي غير مشكورة على تركها الصيد له كما انها غير مأجورة

ومن هذا القبيل سمكة الربان تتبع التين وتأكل فضلات طعامه وكان المظنون انها ترشده الى الطعام وتحذره من الخطر لكن ثبت الآن أنها لا تفعل شيئاً من ذلك بل تكسفي بمصاحبة احتماء به لانها ما دامت على مقربة منه لم تجسر سمكة أخرى أن تدنو منها . وهي تلتقط أيضاً فضلات طعامه فهو لها بمثابة الكفيل يقيها ويقوتها وقد لا يعلم شيئاً مما يفعل من المبرات ومنه سمكة دقيقة تعيش في بدن الحيوان المعروف بخيار البحر وهي صغيرة لا سلاح



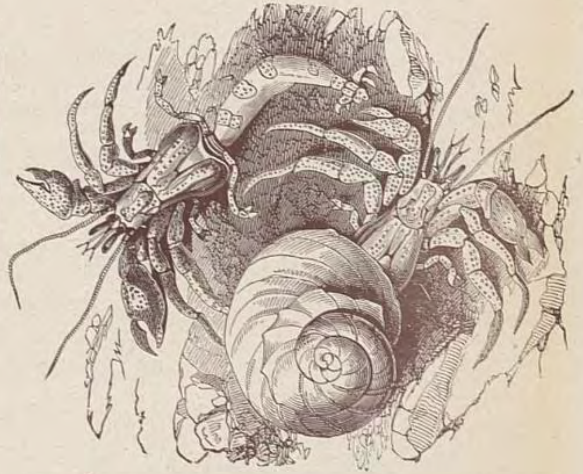
(٤) سرطان حامل شقيقتين



(١) طائر القطقاط في فم النمساح



(٥) السرطان الناسك حامل
صدفة يستظل بها



(٢) السرطان الناسك في القوقعة وخارجاً عنها



(٦) عقرب حاملة زهرة تستظل بها



(٣) السرطان الناسك وشقيقة على قوقعته

لها بقايا من أعضائها فتلجأ الى خيار البحر تدخل الثقب الذي يتنفس منه وتقيم في رثته ولا تخرج منها إلا اذا عضها الجوع وصفا البحر وكانت قريبة من شاطئ لا تكثر فيه الأعداء فلها تخرج حينئذ تلتهم الطعام. واذا شعرت بدنو العدو عادت أدراجها الى الرئة حاميا ضعفاً غير محتشم لأنها قد يأخذ منها اللؤم كل مأخذ حتى تجازي بالسيدة عن الاحسان فتلتهم جانباً من رثته ولا تبالي. لكن خيار البحر صبور يحمل الضيم ويفتقر السيئات فتتو رثته حالاً من غير أذى. والمورد العذب شديد الزحام ولذلك تكثر الحيوانات البحرية التي تضيف خيار البحر وتتمو في جسمه فيقبلها على الرحب والسعة وهو لا ينتظر اجراً ولا شكوراً. وما هو بمنفرد في هذا الكرم فلا انسان يجري مجراً تدخل الديدان معدته وامعاءه وتقيم فيها الشهر بعد الشهر والعام بعد العام وهو غير ناغم منها. وقد تقيم على ظاهر بدنه فلا يشكو منها إلا اذا تآدت في اذاه

هذا ولنعُد الى الحيوان الاعجم فنقول : —

قال الدميري في حياة الحيوان الكبرى « ان السرطان لا يتخلق بتوالد ولا نتاج انما يتخلق في الصدف » اي انه يتولد في الصدف مباشرة. وهذا خطأ والحقيقة ان نوعاً صغيراً من السرطان يدخل الصدف وقيم مع الحيوان الذي فيه وقد عرف ذلك المصريون القدماء وذكره ارسطوطاليس وبلينيوس. وقال القدماء ان السرطان كالحاجب لحيوان الصدف يرى العدو وينذرهُ بقدميه فيطبق مصراعيه ويجازيه على ذلك بالماكل والمأوى. ولكن لا دليل على ان السرطان يقيم في الصدفة لهذه الغاية وانما يقصدها للسكن ولا تثقل وطأته على حيوانها فيرحب به ولو لقي منه الاذى ما تعذر عليه الخلاص منه لان الحيوانات كلها تحاول الخلاص من كل طغيلى فتفلى وتتحكك وتذب الذباب عنها باذنانها. اما حيوان الصدف فلا يحرك اصبعاً لابعاد السرطان عنه. ويشبهه في هذا الكرم نحلة هندية سوداء تثقب سوق الاشجار وتضع فيها غراً بعضها فوق بعض تبيض فيها. ويلق بهذه النحلة نوع صغير من النمس فلا تهتم بالتخلص منه بل تفتح له جيباً صغيراً فوق حقوبها وتدعه يقيم فيه وتضم طرفي هذا الجيب اذا شاءت حتى يتعذر على النمس الخروج منه فتحمِل ضيفها على ظهرها ولا تبالي لان جيبها مبطن بمادة قرنية يعسر على النمس نحرها. وكأنها ادركت ان لا حيلة لها بابعاده عنها وانه اذا بقي لاصقاً بها فقد يقع بعضه مع بعضها ويأكله فلجأت الى اخف الضررين وهو ان تحمل النمس في هذا الجيب وتقفل عليه بابه الى ان يتم غرضها من الحياة وهو وضع بيضها في بيوتها واعداد الغذاء الكافي لصغارها من العسل ونحوه. والنمس نفسه يلجأ الى الجيب ولا يعود يخرج منها. وهي تحفر البيوت ليضعها وتضعها فيها والنمس يعلم

انه اذا وقع في تلك البيوت عرَضاً تعذر عليه الخروج منها فيموت جوعاً ولو استطاع ان يقتدي ببعض النحلة اولاً . فهذا الحبيب مفيد له ولصغار النحل لانه يقيه ويقيها من التلف واكرم الحشرات وارحبها منازل النمل فترى الضيوف في بيوتهم من انواع مختلفة تدخل وتخرج على الرحب والسعة عدا ما فيها من العبيد والجواري والخدم والحشم من ضيف كريم وغريب نزيل وخدام امين وطفيلي ثقيل . ترى هناك المن الذي يفرز العسل رببى ويحلب كالمواشي والنمل الذي من نوع آخر اسير في الحرب ودرب على الخدمة كالعبيد . وترى ايضاً انواعاً من العناكب والحنافس تدخل وتخرج والنمل يلتقي بها فيقف قليلاً يتعرفها ثم يمر في طريقه غير مكترث لها . اما هي فتعلم انها ما دامت في بيته فهي في حرز حريز من الحشرات التي تسطو عليها

ويدخل قري النمل ضيف آخر من نوع النمس وهذا لا يتنازل الى سكن البيوت بل مقره أعناق دود النمل فان يبض النمل يصير دوداً قبلما يصير نملاً فيأتي هذا النمس ويضع بيضه على عنق الدود فينقف حالاً ويصير دوداً صغيراً

وكما جاء النمل ووضع الطعام لدوده في الحبيب الذي تأكل منه الدودة وهو في نحرها بين فيها ومعدتها أكل دود النمس منه ككفاه . ثم أن دودة النمل اذا بلغت حدها من النمو نسجت لنفسها شرنقة وأقامت فيها الى أن تبلغ أشدها وتتخلق نملة وحينئذ تنقب الشرنقة وتخرج منها ويبقى دود النمس في الشرنقة وقد بلغ حده من النمو ايضاً ودنا وقت صيرورته حشرات طيارة فيأتي النمل ويجمع قشور الشرائق ويطرحها خارج قريته ويكون دود النمس فيها وقد صار حشرات مجنحة كما تقدم فيطير في الهواء ويتزوج وتعود اناؤه الى قري النمل وتبيض على أعناق بيضه كما تقدم ويدور الدور الى ما شاء الله

وهذا النمس ضيف محتشم وان كان طفيلياً ولكن يقصد منازل النمل ضيف آخر غير محتشم وهو لا يبيض على أعناق دود النمل بل على أعناق النمل نفسه ويتولد الدود من بيضه وينخر رأس النملة التي هو على عنقها ويأكل دماغها ثم يقطع رأسها عن بدنها ويقم فيه كأنه بيت له الى أن يبلغ أشده ويصير حشرة مجنحة . وحينما يكون في رأس النملة دثباً على أكل دماغها تكون هي قلعة على عماها ولو تملكت وأبدت الضجر من وقت الى آخر حتى اذا فرغ من أكل دماغها وقطع عنقها بقي بدنها قائماً يحاول السير من غير رأس . وعلى ذلك ترى أمام قري النمل كثير آمن رؤوسه المقطوعة . ولا يعلم لماذا يحجم النمل السليم عن مساعدة اخواته ولكن الباحث في طبائع الخلق بنوع عام يرى في الموت علاج المجتمع فانه اذا لم تمت بعض افرادهم لم يعد الغذاء كافياً له فيهلك كله . فان كان النمل يدرك ذلك ويرضى بموت بعضه

عن طيب نفس لكي ينجو المجتمع كله فيكون قد أدرك ما لم يدركه كثيرون من العقلاء حتى الآن والسرطان بين حيوانات البحر كالتمل بين حيوانات البر في الذكاء والدهاء ومنه نوع صغير يسمى الناسك ترك البداوة ولجأ إلى الحضارة يفتش على قوقعة مهجورة يسكنها ومن ثم اخطأ الدميري ومن جرى مجراه وظنوا أنه يتولد في الصدف . وقد ظن هذا السرطان أن البيت الصدي يقيه من الموت ونبي قول القائل

والموت لا ينجيك من آفاته حصن ولو شيدته بالجندل

فإن المراطين الكبيرة التي تلهم الصغيرة تستخرجه من هذا البيت وتطحن عظامه . والسماك القوي الاياب يلتقم البيت والسماك فيه . ولما رأى أن القوة تعوزه لجأ إلى الحيلة فأنه رأى حيواناً جميل المنظر قبيح الخبر يقال له شقيق البحر يلصق بالصخور كالقطر وتشعب من رأسه شعب كثيرة كالشعر أو كالأهداب الوانه زري بالوان الازهار بين احمر وأصفر واخضر وبرتقالي وبنفسجي لكنه سام حريف اذا اغريت به سمكة وحاولت اكل شيء منه لدغها طعمه كالمقرب فلم يحاول ذلك مرة اخرى . وكان السرطان الناسك اكتشف مزبه هذا الحيوان فصار يقلعه عن الصخور ويلصقه بالقوقعة التي يقيم فيها فيأمن شرّ الحيوانات الكبيرة التي تصطاده . لكنه لا يستخذه عفواً بل يقوته بدل حمايته له وذلك أنه اذا قبض على فريسته مزقها قبلما يأكلها فينتشر الفتات منها في الماء والحيوان المشار اليه يتلع ماء البحر على الدوام ويبقى في جوفه ما فيه من الغذاء فيتغذى من فضلات السرطان ويكتفي بذلك ولا يطعم باكثر . لكن انصاف السرطان لهذا الحيوان لا يبرئه من اغتصابه القوقعة التي يسكن فيها وهي ليست له . وما ظالم الا وبلى باظم فان دودة طويلة من ديدان البحر تخالفه إلى القوقعة وتسكنها معه وكلما خرج ليتناول طعامه مدّت رأسها غير مدعوة وقاسمته الطعام وهو صابر عليها صبر الكرام لسبب لا يعلم حتى الآن فقد ظنّ قبلاً أنها تنظف منزله من مبرزاته وهذا سبب صبره عليها ولكن اتضح الآن أنها لا تفعل شيئاً من ذلك والظاهر أن طائفة السرطان عرفت خواص شقيق البحر في كل البحار ففي بحر الهند سرطان يقبض على شقيقتين صغيرتين بمخيليه ويستخدمهما سلاحاً للهجوم والدفاع فيهجم بهما على الحيوانات الصغيرة فتنشل من المادّة السامّة التي في الشقيقتين فيقبض عليها ويقتربها واذا هجم عليه عدو يريد افتراسه قابله بالشقيقتين واذا فقه من الالم ما يعلمه أن النجاة بالهرب . والظاهر أن الشقيقتين لا تتألمان من قبض السرطان عليهما بمخيليه أو انها تكتمان الكمد وتظهران الجلد لا شراً كهما معه في المنفعة فانه اذا اصطاد حيواناً شاركه في اكله على ما تقدّم وكثيراً ما ترى بعض السراطين وعلى ظهرها قطع من الاسفنج والنبات البحري ويظنّ

لاول وهلة أن هذه النواحي تمت من نفسها كما تنمو على الصخور . ولكن ليس الامر كذلك بل أن السرطان نفسه يقتلعها ويزرعها على ظاهر جسمه حتى يصير كقطعة من الصخر نما النبات والاسفنج عليها وغرضه من ذلك الحيلة على الحيوانات التي تفرسه حتى تظنه حجراً فلا تعامع فيه وعلى الحيوانات التي يفرسها حتى تدنو منه غير موجسة شراً . والسرطان يخلع قشره مراراً وهو ينمو فيضطر أن يزرع النبات والاسفنج على ظاهره كلما خلع القشر القديم وتكون له قشر جديد . عمل شاق يقتضي عناية وروية ولكنه يقدم عليه من حدائيه ويمارسه طويلاً فيمضي الى حيث يجد طحالب البحر ويقتلع قطعة منها بمخالبه ويمضغ طرفها ويمزجه بلعابه حتى يسهل عليه الصاقه يدينه وكما الصق قطعة على جانب الصق قطعة اخرى مثلها على الجانب الاخر حتى تتغطى قشرته واذا ابت قطعة أن تلتصق أعاد مضغها ومزجها باللعاب حتى تلتصق جيداً فيلبس من النبات والاسفنج ثوباً لا يبلى ولا يضطر الى تجديده الا حيناً يتجدد قشره أو حيناً يذهب الى مكان يسهل اكتشافه فيه . فاذا غطى جسمه بالنبات مثلاً ومضى الى مكان ارضه مغطاة بالاسفنج وأحب الإقامة فيه نزع النبات عن جسمه وزرع مكانه اسفنجاً حتى يسهل عليه الاختفاء بين الاسفنج . ولكن الطبيعة لم تتم نعمتها له فاعطته هذا المقدار من الذكاء ولكنها حرمتها التمييز بين الالوان فقد يغطي بدنه بنبات أحمر اللون وهو قائم في مكان نباته أخضر أو أصفر وكذا فعله بالاسفنج لانه مصاب بالعمى اللوني على ما يظهر ويؤيد ذلك انه ينزع لباسه أو يلبسه نهائراً وليلاً في النور والظلام على حدٍ سوى ويفعل ذلك بالدقة التامة ولو كان اعور أو اعمى كأنه يعتمد على حاسي الشم واللمس لا على حاسة البصر

ولا تنتهي غرائب السراطين في لبس الثياب المنمقة بل منها ما يحمل مظلة فوق رأسه يتي بها حر الشمس في البلدان الحارة وقد تكون هذه المظلة ورقة شجر كبيرة أو صدفة أو قشرة حيوان من الحيوانات القشرية

ولا يماثل السرطان في حمل المظلة إلا العقرب فقد ذكر أحد الثقات أن بعضهم رأى عقرباً في عدن تدب وهي ماسكة زهرة باحد قرنيها تظلل رأسها بها . والعقرب تكره الحر فتخرج ليلاً في طلب فرائسها وتختبئ نهائراً في مكان ظليل والظاهر ان هذه العقرب ابعدت عن سربها فادركها النهار قبلما عادت اليه واذتها حرارة الشمس فقطفت الزهرة ورفعتها فوق رأسها تقيه بظلالها وإلا فلا وجه لتفسير عملها لانها لا تأكل النبات حتى تأكلها ولا تشرب الماء حتى تمتص عصارتها

هذا يسير من موضوع كله فكاهات وغرائب ولا شيء الذ الانسان من درس الطبيعة

من هو الرجل السعيد

خلاصة كتاب برتراند رسل

القسم الثاني — اسباب السعادة

هل في حياة العصر سعادة ؟ والسعادة نوعان رئيسيان ، الواحد عاطفي مصدره القلب ، والآخر فكري يصدر عن الذهن . يشترك في الاول كل الناس على السواء ، وبستقل بالنوع الثاني طبقات المتعلمين دون غيرهم . وعمدة السعادة في كلتا الحالتين هو مبلغ حرارة الشعور في الاقبال على العمل . فاهمجي الاسترالي الذي يطارد الارانب البرية يجد في ذلك شعوراً كافياً من السعادة لانه يطارد بكل حماسة ممكنة في سبيل قوته ، وكذلك العالم البكتريولوجي الذي يطارد الميكروبات من خلال منظاره في سبيل مكتشفاته العلمية والاقبال على العمل يختلف باختلاف الناس ، فمنهم من يقبل على العمل بكبر وغرور ومنهم من يتقدم اليه بتواضع وثقة بالنفس لا تذهب بصاحبها الى حد الغرور — اولئك المفرورون لا يشعرون بسعادة ، حتى في نجاحهم ، لان غرورهم لا يجعل لهم من نجاحهم وقماً من المفاجئة السعيدة لانهم يقدرّون انفسهم اكثر مما هي عليه في الواقع ، فليس نجاحهم مهما عظم بالشيء الكثير على عبقريتهم الفذة . . . ! فاذا فشلوا كان وقع ذلك شديد الام عليهم بحكم هذا الغرور عينه . اما المتواضعون فيجدون في كل نجاح يصادفهم هزة جميلة من المفاجئة السعيدة

وحارة الاقبال هذه منشؤها حرارة الايمان ، على ان روح الاستهتار الفاشية في هذا العصر قد اضعفت هذا الايمان في الغرب ، فاسباب السعادة بين شبان اوربا اقل منها بين شبان روسيا حيث ايمانهم الجديد بعالمهم الجديد ومبادئهم الجديدة ما يزال حاراً قوياً وكثيراً ما نسمع ان حياة العمال في العصر الحاضر الميكانيكي قد سلبت الناس السعادة الناشئة عن اختلاف الوان الحياة الزراعية ، فالزارع يحرق ويسقي ويبذر ويحني وما الى ذلك ولكن الصانع يعمل عملية واحدة طول ساعات عمله . ثم يقولون انها سلبت الناس لذة الدقة في الاعمال اليدوية . ولكن هذا غير صحيح ، فكثيرون من عمال اليوم ما يزالون يقومون باعمال يدوية غاية في الدقة . ثم يجب ألا ننسى أن حياة الزراعة توحى الى

النفس بشعور الاعتماد على الطبيعة والحاجة اليها والاستسلام للقضاء والقدر لتقلب الجو..
أما الآلة فتوحي الى النفس بقوة الاستقلال عن الطبيعة وعدم الاستسلام للقضاء والقدر
ان سر السعادة هو توسيع نطاق ما يجذب النفس من شؤون الحياة ، وجعل ما يصل
ما بين الانسان وبين شؤون الحياة ، علاقة تساق وحب لا تنافر ونزاع
✽ حرارة الحياة وحماستها Zest ✽ : ولعلنا نوفق في التعبير عما نعنيه بهذا اللفظ

اذا نحن اعتبرنا الحالات النفسية التي يتقدم بها بعض الناس الى تناول الطعام
(ا) فمن الناس من يقبل على الطعام اقباله على شيء لا لذة له ولا متعة فيه ، مهما
حسنّت أضافه وجاد طهيته ، مثل هؤلاء الناس لم يختبروا الجوع ولا أحسوا بالحاح المدة
في طلب القوت اذا هو تعسر الحصول عليه

(ب) ومنهم المرضى الذين يتناولون الطعام بقدر معلوم كواجب صحي
(ج) ومنهم الايقوريون الذين يقبلون على الطعام بشهية وهم فلا يكادون يصيبون
شيئاً منه حتى يشرعوا بالتبرم والنقد

(د) ومنهم النهمون الذين يقبلون بشهية ويأكلون بشهية حتى تتسخ معدتهم
(هـ) ومنهم أصحاب الشهية الصحيحة والمعد الصحيحة والمزاج الصحيح ، يقبلون على
الطعام بشهية ويأكلون بشهية حتى اذا اكتفوا قاموا قانعين مسرورين وعفوا عن اتخام معدتهم
والانسان السعيد في الحياة يشبه الطبقة الاخيرة من طبقات الاكلين — وعلاقة الجوع
بالطعام هي عنها علاقة (Zest) بالحياة

واذا استثنينا جماعة النهمين وجدنا أن الطبقات الاخرى من الاكلين تميل الى
احتقار اصحاب الشهيات الصحيحة ويأخذون عليهم تلذذهم بالطعام بدافع الجوع ، كما أنه من
الحقارة أن يتمتع المرء بالحياة لأنها تبيح له مختلف أسباب جاذبيتها ومفاجئاتها الحلوة
أن أسباب سعادة الانسان ترتبط أقوى الارتباط بأسباب جاذبية الحياة ، فكلما زادت
أسباب تلك الجاذبية زادت أسباب سعادة الانسان ، وتخلص المرء من استبداد القضاء
والقدر . ذلك أن المرء الذي يجد في مختلف شؤون الحياة ما يجذب نفسه ويسترق حاسة
متعته ، لا يقوى القضاء والقدر على هدم سعادته ، لأنه ان استطاع هدم بعض أسباب
سعادته فهو لا يستطيع هدمها كلها . ذلك ان انساناً كهذا يجد في كل شيء أمامه سبباً من
أسباب المتعة والسرور

أن عقل الانسان آلة ثمينة حقاً ، هي تتناول المواد الخام من العالم الخارجي ثم تحيلها
الى لذة للقلب ومتعة للنفس ، وهذه الآلة لا تصلح للعمل المنتج إلا بتلك المواد الخارجية ،

وأولئك الذين يُشغَلون عن العالم وما فيه بأنفسهم، يحرمون آلة عقولهم موادها اللازمة للعمل فتصدأ من جراء تعطيلها شر صدياً

ولكن ما سبيل العقل الى توسيع رقعة جاذبية الحياة وبالتالي ما سبيله الى تلك المواد الخارجية الصالحة للاحتياج؟ ذلك السبيل هو الاقبال بحرارة على الحياة وفقدان الحرارة والحماسة في الحياة المدنية سبباً الاكبر تلك القيود الثقيلة التي تفرضها نظم الحياة المدنية على حرية الفرد

أن الرجل الهمجي بهم لمطاردة ما يصيده ليتبلغ به حين يحس الجوع فهو يستجيب بذلك لحافز الجوع استجابة مباشرة، أما الانسان المتحضر فليس يستجيب لذلك استجابة مباشرة، ذلك أنك أنت مثلاً لا تذهب الى مكتبك لانك جائع وانما أنت تذهب لتضمن قوتك اعني لتكفي حالة جوعك من طريق غير مباشر، وفي هذا الاختلاف ما بين الاستجابتين فرق ما بين حماسة الهمجي وحماسة المتحضر، وهو فرق عظيم لو علمت

﴿العطف﴾ : من أهم أسباب فقر الانسان الى حرارة الحياة شعور المرء بأنه غير محبوب، يقابل ذلك ان شعور المرء بأنه محبوب يذكي فيه تلك الحماسة أي اذكاء. وأسباب شعور المرء بأنه غير محبوب كثيرة، والمرء الذي يشعر بمثل هذا الشعور يتجه في حياته اتجاهات كثيرة كنتيجة مباشرة له

فقد يجهد اكبر الجهد في ترضي الناس واكتساب عطفهم فيكون عرضة بذلك للفشل المؤلم. أما أولاً فلان الانسان ميال بطبيعته الى عدم العطف على من يستجدي عطفه استجداءً — وأما ثانياً فلان ذلك المرء الجاهد في ترضي الناس وإكتساب عطفهم والاحسان اليهم سيئته اكبر السوء أقل جحود أو شبه جحود يناله من الناس في مقابل احسانه وترضيه إياهم. وهو قد يندفع بحكم هذا الشعور عينه من كراهية الناس له، الى الانتقام، فيشعل الثورات، أو يقيم الحروب، أو يلجأ الى قتلهم فيملا أسماع التاريخ دويماً بأساليب سخرته وتهكمه — ولكن القادرين على هذه الالوان من الانتقام قليلون في الحياة

ومعظم الذين يتولاهم شعور بغض الناس إياهم ينفردون في أنفسهم ويشغلون بها عن العالم وما فيه، وينفردون في عالمهم الداخلي يعيشون في جو مظلم من السخط والتشاؤم وحاجة أمثال هؤلاء الناس الى العطف يبعث في نفوسهم حاسة عدم الطمأنينة والقلق. هم يسرون في الحياة قلقين مضطربين — واحسب أنني في غير حاجة الى القول بان عدم الاطمئنان يحرم النفس الجرأة والاقدام في الحياة، وحسبك بها حرماناً يسبب فشل الانسان في كل ما يعمل

وأحب ألا يفوتني أن أذكر أن العطف المتبادل من أقوى ما يبعث في النفس بشعور الطمأنينة وبالتالي بالجرأة والاقدام — وإذا أردنا زيادة الايضاح فلست اتردد عن استعمال لفظ اعجاب بدل العطف ! ... وأولئك الناس الذين يظهرون على مسرح الحياة العامة من مثل رجال السياسة والصحافة والخطابة وما الى ذلك ، تظل حرارة الحياة فيهم قوية مادام اعجاب الجمهور بهم قويًا

ولكن أي عطف وأي اعجاب هذا الذي تكلم عنه ونعنيه في كلامنا ؟ أهو ذلك العطف الشأن الذي تغمر به الامهات ابنائهن فينشأون على الاعتقاد بأن عالم عطف أمهاتهم هو عالمهم الذي لا حياة لهم في غير جوّه ؟ فان هم خرجوا منه ضاعوا في لجة الحياة ؟ فيذكر الوالدان ذلك وليعنوا في كيف يجب أن يعطفوا على أبنائهم وكيف يجب أن يعجبوا بهم ؟ العائلة : ان العائلة اليوم هي أكثر مخلفات الانسانية اضطراباً وأمسها حاجة الى التنظيم ، وهذا الشعور المتبادل ما بين الوالدين والأولاد — وهو من أغزر مصادر سعادة الانسان — يحفّ معينه اليوم شيئاً فشيئاً. ولست أشك في أن عجز العائلة في هذا العصر عن توفير أسباب السعادة للانسان هو سبب بعيد الاثر في اضطراب العصر وقلقه الدائم وشقاء العائلة اليوم مردّه الى عوامل نفسية واقتصادية واجتماعية وغير ذلك ، مما لا يتسع موضوع بحثنا الحالي له فلنكتفِ نحن بالمامة بسيطة : —

أما بين الجماعات التي توافرت لديها أسباب الرزق ، فنفور المرأة من مسؤولية العائلة يرجع الى أمرين : — أولاً : انفتاح ميدان العمل أمامها ومساواتها في ذلك مع الرجل . وثانياً : اشتمال المرأة العصرية من خدمة البيت . والكلام عن هذين السببين أصبح من الاشياء المألوفة فلنعدل عن البحث فيه. وهناك مشكلة السكن . فازدحام المدن بدافع التجمع في المراكز الصناعية لم يترك للمرء فسحة من السكن تضمن له حرّيته الكافية فأصبح المتزوج يجد في سكنه مع عائلته ما ينقص عليه هناؤه وراحته . ثم ان فترة من الانتقال وانتشار الديمقراطية أضحت الى ضياع شعور الطاعة الماضية . واضطراب الروابط بين الوالدين والأولاد فليس يعرف أحد الطرفين اليوم ما يجب وما لا يجب عليه

وعلم النفس الحديث ، ما قولك فيه وفي أوامره ونواهيها التي لا يعرف لها حد من التناقض والاضطراب ؟ فهل تستغرب بعد ذلك أن يهبط معدل المواليد في هذا العصر ذلك الهبوط الهائل بدافع الامتناع عن الزواج ؟

ولكن هذه المدنية لا يمكن أن تدوم اذا انقطع مجرى التناسل فيها ، واذا هو اضطرب هذا الاضطراب الحالي فكيف يتحاشى الناس أسباب هذا الانقطاع ؟

يتحاشونه بمعالجة العائلة وجعلها صالحة لبعث السعادة في نفوس الناس من طريق اصلاح نظامها واقامتها على أسس جديدة منتجة

ان غريزة الامومة والابوة هي أقصى ما يبعث السعادة في النفس واولئك الذين لا يتذوقونها تظل نفوسهم تحس نقصاً فيها لا تعرف سببهُ ، وحتى يستطيع أن يكون الانسان سعيداً في الحياة ، لاسيما بعد ذهاب الشباب ، لابد له من أن يشعر بأنه ليس بالفرد المنقطع الصلة بمجرى الحياة الدائمة . والاولاد هم صلة الفرد بذلك المجرى الدائم . فاذا كان الانسان غير متصل بالمستقبل بسبب أو بنسب تظل حياته جافة ويظل ذلك المستقبل شيئاً لا خطر له عنده . أما اذا اتصل المرء بذلك المستقبل من طريق الاولاد امتدت أمامه اطراف السلوى ، كما تعزى ابراهيم حين علم ان نسله سوف يملأ الارض

﴿ العمل ﴾ : وهل العمل من أسباب سعادة المرء أم من أسباب شقائه ؟

ليس من شك في أن كثيراً من أعمال الناس بضني الجسم ويؤدي النفس ، ولكن من ذا الذي ينكر السعادة التي يحسها المرء في العمل المعتدل المنتج ! ان غاية ما أنتجته المدنية من الابداع هو كيف يشغل المرء أوقات فراغه بما يفيد

والتبرم الذي يحسه المرء الرازح تحت أثقال الاعمال لا يعد شيئاً أمام التبرم الذي يحسه المرء الرازح تحت أثقال « الفراغ » الذي لا يعرف كيف يستخدمهُ

والعمل هو طريق الانسان الى النجاح ، ومهما جفَّ العمل من أسباب الجاذبية فانه يظل محتملاً مرغوباً فيه ما دام هو طريق المرء الى الشهرة . وعلى ذلك فالغاية ودوام السير في طريقها ضرورة من ضرورات السعادة في الحياة

ويوجد عاملان رئيسيان لجعل العمل جذاباً مرغوباً فيه ، وهما المهارة والانشاء كل انسان يحذق شيئاً يميل الى الدأب على ممارسته ، وهذا الميل يظهر في الانسان من صغره ، فالولد الذي يحسن الوقوف على رأسه ... يميل الى عدم الوقوف على رجليه .. والطيار الماهر في الالاب البهلوانية يظهر من ضروب مهارته ما يعرض حياته لخطر الموت ، ولكنه يشعر في ذلك بسعادة كبرى

وكل الاعمال التي تتطلب المهارة تسبب سرور النفس للانسان الماهر بشرط أن يكون ميدان المهارة متسعاً للتلوين والاختلاف الدائمين — فالمسابق الذي ينتصر في سباق مائة ياردة لا يشعر بالسرور ان هو جمد عند هذا الحد ، ولم يسبق في شيء آخر . ومن حسن حظ الانسان ان الاعمال التي تحتاج الى المهارة متنوعة أسباب التغيير والتبديل ، والاختلاف غير المحدود ، وهي مفتوحة الابواب للالسان حتى نهاية العمر . فالرجل لا ينضج

في السياسة قبل الستين أو السبعين من العمر ... ولهذا فالسياسيون أسعد في شيخوختهم منهم في صباهم .. كذلك رجال الأعمال والمشاريع العظيمة وعصر آخر غير المهارة يجعل الانسان سعيداً في العمل ، هذا العنصر هو الانشاء والابداع فمن الأعمال ما ينتهي بأثر دائم . يذهب العمل وأسبابه ويظل ذلك الاثر باقياً لا يزول ، يبعث في نفس منشئه اكبر العزاء

ومن ألوان الهدم ما يبعث الى النفس راحتها وهنائها ، الا أن الفرق بين الشعورين هو في أن الهدم ينتهي عند حد معلوم ، في حين ان فكرة الانشاء لا تنتهي عند حد يعرف . وأغزر مصادر السعادة هي تلك التي تنبعث من عمل أسباب نجاحه غير محدودة فرجال العلم ورجال الفن يعملون اعمالاً تلذ لهم بطبيعتها ، وغالباً يجدان مزاج رجال الفن يميل بهم الى التشاؤم والشقاء . ولولا عزائهم الذي يحسونه في اعمالهم لانتجروا معظم الفنانين . ولكن ليس كذلك العلماء . فغظم العلماء يسعدون بأعمالهم وبطبيعة امزجهم . وأعظم ما ينقص حياة رجال الفكر من ارباب القلم في هذا العصر ، هو شعورهم بأنهم مستبعدون للصحافة التجارية التي يديرها الرأسماليون ، فهم يشعرون بأنهم سيئون الى اقلامهم والى انفسهم بما يكتبون بوحى الرأسمالية ولكنهم يضطرون الى ذلك حتى لا يموتوا جوعاً .. والانسان الذي يشعر بأنه يحقر نفسه تستحيل عليه السعادة

﴿ الجهاد والاستسلام ﴾ : مدرستان متناقضتان في تعاليمهما ، وكلتا المدرستين تبشر بشيء من الحقيقة ولكنها لا تأتي بالحقيقة كلها ، وسأتكلم انا عن الموازنة بين المدرستين فقط ﴿ الجهاد ﴾ : ليست السعادة منحة الا في احوال نادرة ، وانما هي حق يكتسب اكتساباً ، ولهذا فقد سميت كتابي هذا « فتوحات السعادة » Conquest of Happiness كل رجل او امرأة يعمل ليعيش ، يحتاج الى الجهاد ، وهذه حقيقة ثابتة في الغرب اكثر منها في الشرق ، لا سيما ان الجو في الغرب من شأنه ان يجعل العمل احب الى النفس من الكسل ، وعلى هذا فالاستسلام في الغرب لا يؤدي الى اية سعادة ومعظم الناس في الغرب يحتاجون في الحصول على سعادتهم الى شيء اكثر من القوت الضروري ، ذلك ان النجاح هناك اهم عامل من عوامل السعادة ، ولكن هذا النجاح يقاس اليوم بمقياس مادي هو مبلغ ما يربحه المرء من اعماله . ولما كانت الارباح تتفاوت في مقاديرها ووسائلها ، فالغرب مضطر الى شيء من الاستسلام في تقدير مراتب النجاح والسعادة في الزواج مسألة تتعلق بالزوجين ، ولكن ما قولك في عصر تضطرب فيه نسبة الرجال الى النساء ؟ وهو عصر ديمقراطي واسع حرية الفرد . اذا كانت النساء

في انكثرتا اكثر من الرجال يعلن عن انفسهن ... واذا كان الرجال اكثر.... ؟
هؤلاء وأولئك يضطرون في هذا الشأن الى شيء من الاستسلام
والعناية بالاطفال ، أعني الجهاد في سبيلهم ، له خطره ، فالغرب يجاهد في سبيل قوت
الاولاد وفي المحافظة على صحتهم ، وفي تعليمهم وتوفير أسباب السعادة في الحياة لهم . أما
في الشرق فامر الاولاد موكول الى القضاء والقدر أكثر من الوالدين ، وحيث الاستسلام
يبدن الوالدين فهناك معدل الوفيات عال جداً . وفي الانسان ميل الى تطلب القوة ،
وهذه القوه تختلف أشكالها ، فمن الناس من ينشد النفوذ والسلطان على عقول الغير أو على
نفوسهم ، أو لتغيير نظم الاجتماع وما الى ذلك ، وكل هذه الاشكال من القوة تحتاج الى الجهاد
سيقول القارئ وأي جديد في هذا ؟ ومنذ الذي يجهل هذا ؟
ولكني ذكرت هذا لآين ان الانسان الذي لا يتطلب القوة في الحياة هو الانسان
الذي لا يشعر بأية مسؤولية نحو الانسانية ، ولعل في هذا التقرير خير ما أستطيع توجيهه
من النقد لأقبال الغرب مؤخراً على ما يسمونه « حكمة الشرق » ... في حين ان الشرق
نفسه قد زهد هذه الحكمة الجامدة

﴿ الاستسلام ﴾ : وللاستسلام شأن في فتوحات السعادة ... ومن الناس من يضطربون
لاقل عثرة يصطدمون بها في الحياة ، وحتى في اثناء قيام الانسان بأعظم الاعمال يجب ألا يستسلم له
بكل عواطفه حتى يوفر من قواه النفسية التي يسرف في بعثها عند كل صدمة يصطدم بها في العمل
والحذق في العمل لا يتعادل مع اندفاع العاطفة نحوه ، بل كثيراً ما تكون شدتها
ما يعرف لحدق الانسان ومهارته . والمسيحية تبشر بخضوع المرء لارادة الله وليس من
شك في أن الانسان مضطر الى أن يستسلم الى شيء من هذا القبيل في كل أعماله وما
يتعرض به ، وعلى المرء أن يعمل أقصى جهده ثم يستسلم بعد ذلك في شأن النتائج
والاستسلام نوعان ، الواحد يتصل أكبر الاتصال باليأس ، والاخر يتصل بالأمل
الذي لا يقهر ، وأولئك الذين اندحروا اندحاراً يفقدهم كل أمل بالاعمال العظيمة يلجأون
الى استسلام اليأس ، ويشرعون بعزّون أنفسهم بتريد عبارات دينية ، ولكن تظل نفوسهم
غير سعيدة . أما أصحاب الامل الذي لا يقهر ، فهما أصابهم من فشل في الحياة يظنون
غير أشقياء ، ذلك أن الامل العظيم هو الامل الذي يتعدى حدود الشخص ويمتد الى
حدود الانسانية جمعاء . والعالم مهما فشل في مساعيه العلمية لا يشقى لان امله غير شخصي
وأما هو امل السعي في سبيل الحقائق العلمية . ومثل هذه الحالات لا دخل للاستسلام
فيها ، وان صح فيها شيء من الاستسلام فهو استسلام الامل

واوثق الناس الذين يفرعون لكل شيء ، ويقلقون لأقل الأشياء ، يجب ان يتعلموا شيئاً من سجية استسلام الأمل فتبعث الى نفوسهم بشيء من الراحة والهدوء

﴿الانسان السعيد﴾ : — الانسان يستمد سعادته في الحياة من مصدرين ، من عالمه الداخلي والآخر الخارجي ، وقد دار كل بحثنا حتى الآن بوجه عام على اختصاص العالم الداخلي بسعادة الانسان ، واذا توافرت للمرء اسباب القوت ، والسكن ، والصحة ، والنجاح في الاعمال ، واحترام وسطه له ، فليس ما يحول بينه وبين السعادة اللهم الا مرض في النفس يجب معالجته بالطرق التحليلية النفسية الحديثة

واذا كانت ظروف العالم الخارجي غير تعسة تعساً شاملاً فليس ما يمنع الانسان ان يكون سعيداً ، وعلى ذلك فغاية التربية والتعليم يجب ان تكون في السعي للتوفيق بين عالم الانسان الداخلي وعالمه الخارجي

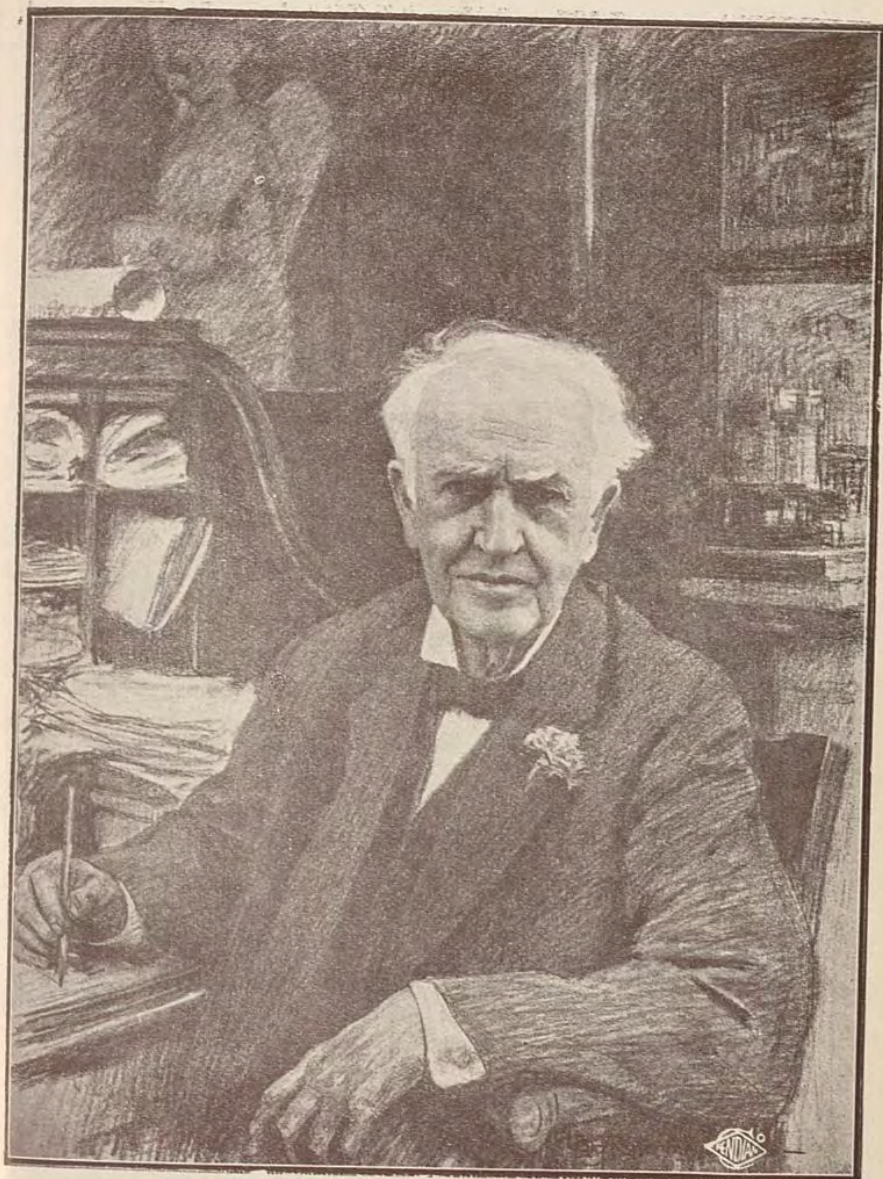
ان الانسان السعيد هو ذاك الذي يحبي للعالم لا لنفسه ويمجد في كل شيء من أشياء العالم سبباً من أسباب المتعة ، ويشعر في ذاته أنه هو نفسه متعة للغير وسبب مسرة لهم ولعلي لا أهم بالتحامل حين أنكر على بعض الاديان اسرافها في توكيد شعور الاشتغال بالنفس من طريق بعث فكره الخطيئة في نفس المرء وفكره . ويستطيع المرء الذي ابتلى بهذا ان يتخلص منه بأساليب الإيحاء النفسي حتى ينجو من سجن الاشتغال بالنفس ويدخل فسحة الشعور العالمي

ومعظم رسل الاخلاق تكلموا عن «نكران الذات» ، ولكنهم اسرفوا في ذلك حتى اصبح «نكران الذات» هذا بموجب التعاليم الدينية والاخلاقية المعروفة ، اكبر سبب من اسباب الاشتغال بالنفس . وما أخالف به تعاليم رسل الاخلاق هو القول بأن الحب يجب أن يكون غير أناني ، بعيداً عن المصلحة الشخصية

صحيح أن الحب يجب أن يكون غير أناني بعيداً عن المصلحة الشخصية ، ولكن هذا صحيح الى مدى معين فقط . وما قولك في أن تدعو سيدة الى الزواج منك لانك تريد اسعادها هي وشقاءك أنت ؟

شخصية الفرد جزء من الشخصية الانسانية العامة ، فمصلحة المجموع لا تعني أنكار مصلحة الفرد ، لان الفرد والمجموع شيء واحد ، وسعادة الانسان هي في هذا التوافق بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ، وفي التساوق ما بين عقل الانسان الواعي وعقله غير الواعي

والانسان السعيد هو ذاك الذي لا يشعر باي تنافر بينه كفرد وبين الغير كمجموع ، لان الفرد والمجموع وحدة لا تتجزأ الا للشقاء



توماس الفا اديسن
Thomas Alva Edison

امام الصفحة ٢٧٣

مقطف نوفمبر ١٩٣١



توماس ادوين

بروميثيوس العصر الحديث

مرافقة بروميثيوس

قلب صفحات التاريخ باحثاً عن شخصية حقيقية أو خرافية تضعها وشخصية ادوين في كفتي ميزان، فلا يستقر بك النوى إلا وقد طويت ألوف السنين راجعاً الى جاهلية اليونان، فنقف في خرافاتهم وسير أبطالهم على قصة البطل بروميثيوس الذي سرق النار من الآلهة لينجها للناس لأنها كانت في رأيه أعظم النعم. فهو في نظر بعض الكتاب القدمين « مغدق المعرفة على البشر » بل هو « مكوتهم ومعلمهم »

قيل: ونظر اروس إله الحب الى الارض وقد اكتست حُلَّةً سندسية تمرح في ربوعها أنواع الاحياء على اختلافها فرأى أن يغدق عليها من الغرائز ما يمكنها من التمتع بأطياب الحياة. فدعا اليه أصغر أبناء ايايثس — وهما بروميثيوس وايميثيوس — وعهد اليهما في توزيع العطايا الالهية على الكائنات الحية. وأوصاهما بأن يخلقا كائناً سامياً ويغدقا عليه الهبات حتى يسود الكائنات الاخرى (الانسان) . فطلب ايميثيوس الى أخيه أن يتولى هو المنح ففعل. فلما انتهى من الاغداق على الكائنات السفلى نفذ كل ما لديه من الهبات العلوية فأخذوا كتلة من الطين وصنعوا منها هيكلاً. وقد أشار هوراس الى ذلك بقوله: « وحول بروميثيوس الجواهر الفردة الى صلصال بشري » ثم طلبا الى اروس أن ينفخ فيه روح الحياة والى مينرثا إلهة الحكمة أن تهب نفساً. فلما رأى بروميثيوس صنع يديه موضعاً للفخر أراد أن ينعم عليه بقوة لا يشاطره إياها كائن على الارض فتعلو به فوق كل الكائنات وتقربه من مقام الإلهة

ولكي يفعل ذلك لم يجد قوة أعظم من قوة « النار ». ولكن « النار » كانت من المزايا

التي تملكها الآلهة دون غيرها ، وكان بروميتيوس يذري ان الآلهة لن تقبل أن تنعم بها على الانسان . واذا فاز بها أحد خلسة عوقب معاقبة السارق . فتأمل المسألة طويلاً وأخيراً عزم على أن يفوز « بالنار » أو يموت في طلبها . وفي إحدى الليالي الظلماء قصد الى جبل أولبوس مقر الآلهة ودخل مخدعها من غير أن يشعر به أحد وقبض على مشعال مضيء وأخفاه في صدره ورحل طرّاً بأجذلاً بما قسم له من النجاح . فلما وصل الى الارض أنعم بالكنز على الانسان فأخذه وجعل يستعمله في مئات من الاغراض . أما ما حدث بعد ذلك وكيف اكتشف الآلهة سرقة بروميتيوس وكيف عاقبته وكيف خلاصه هرقل فحوادث في تاريخ اليونان الخرافي لا متسع للتبسط فيها هنا

النار والنور

وما فعله بروميتيوس بالنار فعله ادبسن بالنور !
نحن لا نقول ان ادبسن علم البشر كيف يستضيئون . ان المصاييح التي كانت تضيء باحتراق زيت من الزيوت أو دهن من الادهان يرجع تاريخها الى العصر الحجري . فقد كان رجال ذلك العصر يحرقون الادهان الحيوانية في قطع مجوفة من الحشب للاستنارة بها . وكان الرومان يحرقون زيت السمك أو غيره من الزيوت الحيوانية في مصاييح من الطين المشوي . وقد كان القصد من اصطياذ الحيتان في العصور الماضية الحصول على زيتها للاستضاءة به . وكان الصينيون يصنعون مصاييحهم الجميلة ويشعلون فيها زيوناً نباتية كذلك لا ندعي ان ادبسن هو أول رجل صنع نوراً كهربائياً باطلاق المعنى . فقد جاء في مدونات المعهد الملكي البريطاني ان السير همفري دايشي أثبت في مطلع القرن التاسع عشر أن التيار الكهربائي الحاصل من عمود فلطاني مؤلف من ألفي خلية يحدث قوساً من النور اذا أجري في عمودين من الكربون مفصول أحدهما عن الآخر قليلاً . هذا هو نور القوس الكهربائي الاول . ولكن استنباط السير همفري دايشي ظل مطويّاً حتى استنبط المولد الكهربائي واشتغل فراداي بالموضوع . فما وافت سنة ١٨٧٠ حتى كان الدكتور شارل برش والمستر ادورد وستن قد جعلوا الانارة بالقوس الكهربائي صناعة رائجة في اوربا وأمريكا هنا دخل ادبسن الميدان وبسرعة الرجل العبقري الذي يخترق ستار الغيب ببصره النافذ رأى أن نور القوس الكهربائي لا يجدي نفعا في توسيع نطاق الانارة الكهربائية حتى نعم البيوت والمدارس والمعامل . وصناعة النور الكهربائي لا تتسع ولا تتقن الا اذا راجت ولا تروج الا اذا عمت الاماكن التي تقدم ذكرها . لذلك صرف ادبسن نظره عن نور القوس

الكهربائي وأخذ يبحث عن طريقة تمكنه من الانارة بالكهربائية بطريقة اللعان أي بامرار تيار كهربائي في سلك مادة معينة. فيجمعو السلك لمقاومته للتيار فيحمر ثم يبيض بالحرارة ومتى ابيض بسطع منه نور باهر يخطف الابصار. وقد كان مسألة النور الكهربائي أعقد المسائل التي اشتغل اديصن بحلها. فانه لما شرع يبحث في هذا الموضوع لم يكن يعرف شيء تقريباً عن النور الكهربائي مما تلزم معرفته. لذلك لما فاز اولاً بصنع المصباح الكهربائي الاول على مثال المصابيح المستعملة الآن عرضت له مصاعب كثيرة وجب تذليلها قبل الفوز بجعل الانارة الكهربائية عملاً تجارياً راجحاً. واديصن من الذين يرون ان تصور الاختراع سهل على نوع ما واخراجه من التصور الى الفعل اخراجاً علمياً قد يكون سهلاً أيضاً. ولكن الصعوبة كل الصعوبة في اخراجه من التصور الى الفعل اخراجاً تجارياً حتى يشيع استعماله ويربح منه صانعه فيغري بموالاته اتقانه

المصباح الكهربائي

ان قصة مباحث اديصن وأعوانه التي أفضت الى اكتشاف النور الكهربائي اللامع (نستعمل لفظة لامع هنا بمعنى incandescent) وصنع المصباح الكهربائي الاول تكاد تحسبها من بنات الخيال أو حديث خرافة لو سمعها. كانوا لا يعبأون بمرور الزمن ولا بأوقات الطعام حتى ولا بالنوم لأن اكباهم على خلق شيء جديد كان قد أوقف كل قوة من قواهم العقلية والعصبية. فأنفقوا نحو ثمانية آلاف جنيه قبلما تمكنوا من صنع مصباح ينير متى اتصل بالدورة الكهربائية. ولما أناروه ظلّ منيراً أربعين ساعة متوالية. ولكن السلك السريع الانكسار الذي استعملوه أولاً لم يف بمطالب التجارة. اذ ما الفائدة من مصباح ينير اذا كانت أقل هزة تصيبه تفتت سلكه وتذروه. لذلك أخذ اديصن يكرن كل شيء تقع عينه عليه. وفي مدوناته الخاصة تقع على أسماء بعض الاشياء التي كرهها محاولاً أن يصنع منها سلكاً للمصباح الكهربائي لا يكون سريع التكسر والتفتت، فاذا راجعتها وجدت فيها كل أنواع الورق على اختلاف درجاتها من القوة والثخانة وكل أنواع الخيوط حتى الاسلاك التي يستعملها الصيادون في اصطياد السمك. كذلك أنواع الخيوط النباتية خيوط جوز الهند وتيلة الكتان والسلولوس وغيرها كثيراً من أنواع الاخشاب والنباتات. ولما خطر له ان يجرب خيوط الخيزران بثّ العيون والارصاد في اليابان وجنوب اميركا وغيرها من البلدان الذي يزرع فيها الخيزران فبعثوا اليه بكل أصنافه وكانت نحو ستة آلاف صنف فخرّب تجاربه فيها حتى وصل الى أفضلها. ويقال انه أنفق في هذا السبيل عشرين ألف جنيه أو أكثر

وبعد ما صنع المصباح الكهربائي اللامع وجب عليه أن يبدع نظاماً كهربائياً جديداً يمكنه من توليد الكهرباء وتوزيعها وتقسيم التيار حتى ينير به حيث يشاء المصاييح الصغيرة والكبيرة على السواء. فأقدم على هذا العمل غير هيباب مع ان علماء من مقام الاستاذ تدل كانوا يهزؤون به. وبعد ذلك أخذ النور الكهربائي يرتقي ويُسْتَقْن وخصوصاً في صنع السلك الذي فيه فصنع سنة ١٩٠٤ من معدن الاسميوم ثم من معدن التتالوم ثم من معدن التنغستن في تاريخ العلم والعمران مستنبطات أعظم من النور الكهربائي أثراً في أحوال الشعوب الاقتصادية كالسكك الحديدية والبواخر والتلغراف والتليفون وغيرها. ولكن استنباط النور الكهربائي اللامع الرخيص الثمن أحدث ثورة في عادات الناس وأسلوب معيشتهم. فقد اشترك هذا النور مع المطبعة في اطلاق العقل البشري من القيود التي كَبَسَل بها والقضاء على الخرافات والخاوف التي كانت تظلم امامه طريق الفكر فأعدّه لعمله العظيم وهو تأييد سيطرة الانسان على الارض. وعلاوة على ذلك بدّد غياهب الظلام من المدن فقضى بذلك على مراتع الجناة ومدّ اجل العمل أمام العمال الفقراء. وقد مكّنت الانوار الكهربائية الساطعة طائفة العلماء من درس طبائع الميكروبات على لوحة المكرسكوب وابداع الطرق لمكافحتها واتقانها ان اديصن أخذ النور من الآلهة - كما أخذ بروميثيوس النار - فأضاء به طريق العمران!

سيرة ونوادره

الظهور في الميراث

في صباح يوم من أيام الربيع سنة ١٨٦٩ دخل فتى رث الثياب زري المنظر مكتب شركة تلغرافية ببول ستريت بنيويورك وهو شارع المالين وفيه مكاتبهم. وكانت هذه الشركة تستعمل نظاماً خاصاً من الاشارات الكهربائية تخبر به اكبر التجار في المدينة عن اسعار الاوراق المالية في بورصتها ساعة ساعة. واتفق انه ما كاد هذا الفتى الغريب يدخل هذا المكتب ويجلس في زاوية من زواياه ينتظر مقابلة مديره، حتى اصيبت الآلة التي توزع الاشارات التلغرافية المذكورة بخلل ووقفت عن العمل. ولم تمض دقيقتان حتى ازدحم المكتب بما ينيف على مائة خادم من خدم التجار يصيحون ويصخبون. فارتبك مدير الآلة في امره ودخل مدير الشركة وعلى وجهه امّار الذعر. لكن الفتى الغريب كان قد اقترب من الآلة وفحص اجزاءها وعرف مكان الخلل. فلما دخل المدير قال له انا اعرف

أن أصلحها فاجابه « أصلحها حالاً » . ففكك اجزاءها بمهارة فائقة واصلح ما اصبحت به من الحلل فعدت الى حالها الاولى وانتظم العمل بها . فدعا المدير هذا الفتى الى مكتبه الخاص ووجه اليه اسئلة كثيرة فاجابه عنها اجوبة تدل على معرفته الدقيقة بقواعد التيار الكهربائي وخصوصاً ما كان منها مرتبطاً بالآلات التلغرافية . فعرض عليه منصباً في شركته براتب قدره ستون جنياً في الشهر

كان هذا الفتى توماس القا اديصن الذي استنبط فيما بعد المصباح الكهربائي والفونوغراف وآلة الصور المتحركة وطريقة لارسال رسائل تلغرافية متعددة على سلك تلغرافي واحد وآلة دقيقة الحس لتدوين الاختلاف في حرارة جسم ما وآلة تدعى المرسل الكربوني كانت كبيرة الاثر في نجاح التلفون وبطرية تخزين الكهرباء فيها مدة طويلة . ثم حاول هو وفورد أن يصنعا اوتومويلاً يسير بها وغير ذلك ماث من المستنبطات الكهربائية العملية . فلما عرض عليه هذا المنصب ذهل عن نفسه لانه لم يكن ينتظر أن ينال مثل هذا الراتب في حياته . وكان شغله قليلاً لا يستغرق كل وقته فجعل يبحث ويجرب الى ان استنبط آلة لطبع الاشارات التلغرافية . ثم استنبط مستنبطات اخرى اشترتها منه شركة التلغراف الاميركية . وحديث شرائها يدل على سذاجة اديصن رغم تفوقه ونبوغه في العلم والاستنباط . قيل ان رئيس شركة التلغراف دعاه اليه وقال له « ايها الشاب نريد ان نتجز مسألة مستنبطاتك . فيكم ترضى أن تبيعها » ويقال ان اديصن كان قد عزم ان يطلب ثمنها الف جنيه . ثم ينزل الى ستائة جنيه اذا اضطر الى ذلك . على انه لما رأى الرئيس امامه خاف ان يطلب هذا المبلغ لثلاثي ستعظمه الرئيس ويطرده ، فقال « لتعرض علي الشركة مبلغاً من المال وانا انظر في هذه المسألة » . فقال الرئيس « ان الشركة تعرض عليك ثمانية آلاف جنيه فاذا تقول » فبلغ من ذهول اديصن حين ذكر له هذا المبلغ انه لم يصدق اذنه وخطر بباله ان في الامر حيلة . ولكنه جمع عقله وقال بلمهجة المستخف « لا بأس » . ثم امضى شروط البيع واعطى تحويلاً بالقيمة على بنك فهرع اليه . ولم يكن قد دخل بنكاً من قبل . فلما قدم الحوالة الى الصراف قطب هذا جبينه وتكلم كلاماً لم يفهمه اديصن لانه كان على جانب من الصمم . فقال في نفسه انه خدوع لا محالة . فعاد الى رئيس الشركة فرف عنه في البنك فصرفت له الحوالة . على أن الصراف اراد ان يداعبه قليلاً فاعطاه المبلغ اوراقاً مالية صغيرة . فاخذ اديصن يحشو بها جيوبه حشواً ويقال انه سهر عليها الليلة الاولى خوفاً من أن تسرق . ثم اشار عليه رئيس الشركة بان يفتح حساباً بالبنك ففعل . لكنه لم يودع المال كله بل اشترى بجانب منه الادوات اللازمة له في البحث والتعقب

من بائع صحف الى مستنيط

ولد في ١١ فبراير سنة ١٨٤٧ فيكون قد بلغ الرابعة والثمانين في ١١ فبراير الماضي. ومع ذلك ظل الى قبيل مرضه الاخير يشتغل نحو ١٦ ساعة في اليوم ويكتفي بقليل من الطعام بكسرة خبز وقطعة سردين وكأس لبن في اليوم. وكان والداه فقيرين. ورغم نشاطه من نعومة اظفاره لم يكن مغرمًا بالدرس. ولما صار عمره اربع عشر سنة استخدمه مدير إحدى الجرائد لبيع جريدته في سكة حديدية. ولا يزال يتذكر تلك الايام ويباهي بها ويخبر اصحاب الجرائد عما لاقاه فيها. فامير المستنيطين الكهربائيين في هذا المصربل في التاريخ كان في حداته بائع صحف

وحدث بعد ذلك انه رأى ولداً يدوسه القطار فاسرع اليه وانقذه. وكان والدهذا الولد من مستخدمي التلغراف في سكة الحديد فاراد ان يكافئه على صنيعه. فعلمه كيفية استعمال التلغراف فتعلم ذلك حالاً ودرس كل ما وصلت اليه يده في علم الكهرباء والتلغراف ثم خدم في مصلحة التلغرافات المتعلقة بالسكك الحديدية في مدن مختلفة. ومن اشهر نوادره فيها انه لما بدأ يخدم في هذه المصلحة كان ذلك في بلده. وكان موعد خدمته في الليل على ان ينام في النهار ليستطيع السهر. على انه اقنع اباه ان يعطيه غرفة في البيت لكي يجرب تجاربه فيها ففعل وكان يقضي النهار دُباً على تجاربه الخاصة فاذا جاء الليل ذهب الى عمله في مكتب التلغراف. فكان النعاس يستولي عليه احياناً فلا يجيب اذا خوطب من محطة اخرى. فانذره مفتش المحطات وامره ان يرسل اليه اشارة خاصة كل نصف ساعة لكي يثبت انه مستيقظ. ففعل اديصن ذلك بضع ليالٍ ثم سئم العمل فاستنيط آلة صغيرة ترسل الاشارة التلغرافية من تلقاء نفسها مرة كل نصف ساعة. وفي إحدى الليالي اراد المفتش ان يتحدث مع اديصن فجعل يخاطبه فلم يجب فاستغرب ذلك لان الاشارة كانت ترد بانتظام. فهرع الى المحطة التي يشتغل فيها اديصن وأطل عليه من النافذة فوجده مستغرقاً في النوم والالة الصغيرة امامه ترسل الاشارة المطلوبة. فأعجب به إعجاباً شديداً ولكن لم يسهه ان يبقيه في العمل بل طرده منه

ولبت بعد ذلك اديصن مدة ينتقل من بلدة الى اخرى حتى جاء بوسطن فاشترى فيها مؤلفات فراڊاي في الكهرباء وقرأها كلها. وعنده ان فراڊاي اعظم العلماء المجرّبين. ولما كان في الثانية والعشرين من عمره جاء نيويورك فتي رث الثياب زوي الهيئة كما تقدم لا يملك فلساً واحداً فاقترض ريالاً من احد معارفه لينفق منه حتى يجد عملاً يعمل به. وما لبث ان

حدث له الحادثة التي وصفناها في مكتب الشركة التلغرافية ببول ستريت فكانت فاتحة عهد جديد في حياته بل في تاريخ العمران. اذ من يستطيع ان يقدر الخسارة التي كان العمران خسرها لو قضي على ادبسن ان يموت جوعاً أو برداً حينئذٍ

بين البيت والمعمل

ومن ثم أخذ يجري سريعاً في ميدان الاختراع والاستنباط. وجعلت الثروة تنهل عليه جزاء مخترعاته. فبنى داراً كبيرةً للامتحان انفق عليها الاموال الطائلة لان المال يهر المال اذا اقترن بالحزم والتدبير. اما حزمه واجتهاده فما يفوق الوصف. قيل انه لما كان يجرب التجارب لعمل المصباح الكهربائي من خيوط الفحم بقي في معمله اربعة ايام بلياليها لا ينام ولا يستريح قائلاً: إما النجاح وإما الموت. لكنه نجح وصنع المصباح الكهربائي الذي نكتب في ضوئه هذه السطور الان. ولا تسئل عن الشهرة التي حازها بهذا الاستنباط والاموال الطائلة التي ربحها منه وقد احتفل بيوبيله الخمسيني سنة ١٩٢٩

ثم استبطن الفونوغراف اتفاقاً فانه كان يتكلم بالهاتفون فشرع باهتزاز القلم الدقيق المتصل به فادنى ورقة وهو يلفظ الكلمة «هلو» فآثر فيها واجرى الورقة امام القلم فسمع كلمة «هلو» منه. ثم صنع الفونوغراف واتقنه ولكن بعد تعب يقصر القلم عن وصفه قال بعضهم وقد زار ادبسن انه اذا كان في بيته فهو يجمع اللطف والبشاشة واذا كان في العمل غاص في الاعمال حتي صار جزءاً منها. زرته في معمله فأدخلت أولاً الى غرفة فسيحة فيها مكتبه وهي من أوسع المكاتب العلمية الخاصة في المسكونة. فيها خزائن الكتب وبينها كراسي ومساند حتى يسهل على المطالع الجلوس حيث يشاء. وفوق الكتب صور مشاهير رجال العلم والشهادات التي نالها من المعارض المختلفة وصور كثير من الآلات

وبينما كنت أنظر في بعض الرسوم فتحت الباب ودخل ادبسن وهو ربة عريض المنكبين شائب الشعر مخلوق الذقن فتقدم اليّ مسرعاً وصاحني وجلس على كرسي امامي وحينما كنت اكلمه كان يضع يده وراء اذنيه ليجمع عوجات الصوت بها وقال لي: «اني اصم» فانه لما كان عمري ١٢ سنة رفعتني رجل باذني فزق طبلتيهما ولكن الصمم لم يضرني ولو امكنتني أن اشفي منه ما اخترت الشفاء لانه ساعدني على حصر افكاري في ما افكر فيه فنهتفع الكيد. ثم اني لا اخسر كثيراً بعدم سمعي مايقوله اكثر الناس. واني أسمع جيداً في معامل الآلات وحينما تكثر الضوضاء وقد صارت الضوضاء من لوازم العمران في هذه الايام ولذلك فانا في الغالب غير اصم»

ثم قال . اني اشرعُ في العمل قبل الساعة السابعة بعشرين دقيقة فاطالع أولاً جرائد الصباح لاقف على الاخبار الى ان يحين وقت الفطور ثم امضي الى العمل فأصليه الساعة الثامنة ويكون لدي غالباً من اربعين عملاً الى سبعين لا بد لي من ان اهتم بها . وفي كل ليلة اكتب قائمة بالاعمال التي يجب ان اهتم بها في اليوم التالي مما يتعلق بمخترعاتي المختلفة . ولدي في كل يوم اربعون تجربة او خمسون من التجارب العلمية العملية في الكيمياء والكهربائية والنور والحرارة وعلم الالات والمعادن والنور والقوة . ولا بد من اجرائها فاوزعها على العمال الذين عندي في ساعتين من الزمان واشتغل باصعبها او بما له عندي الشأن الاكبر منها فسألته ما هي أصعب مسألة اشتغلت بها . فقال مسألة النور الكهربائي فاني لما شرعت في حلها لم يكن يعرف شيء عن النور الكهربائي مما تلزم معرفته . ولما حاولت استعمال هذا النور رأيت امامي مصاعب كثيرة يجب التغلب عليها اشدها جعله رخيصاً من باب تجاري . فان تصوّر الاختراع سهل على نوع ما واخراجه من القوة الى الفعل علمياً قد يكون سهلاً ايضاً ولكن الصعوبة في اخراجه من القوة الى الفعل عملياً تجارياً حتى بشيخ استعماله ويربح منه عامله . والغرض الذي ارمي اليه ان اجعل مخترعاتي رابحة من باب تجاري اذ لا ينجي منها فائدة عامة الا اذا شاعت . ولا تشيخ الا اذا كانت في متناول جمهور كبير ويستطيع صانعها ان يربح منها ربحاً معقولاً

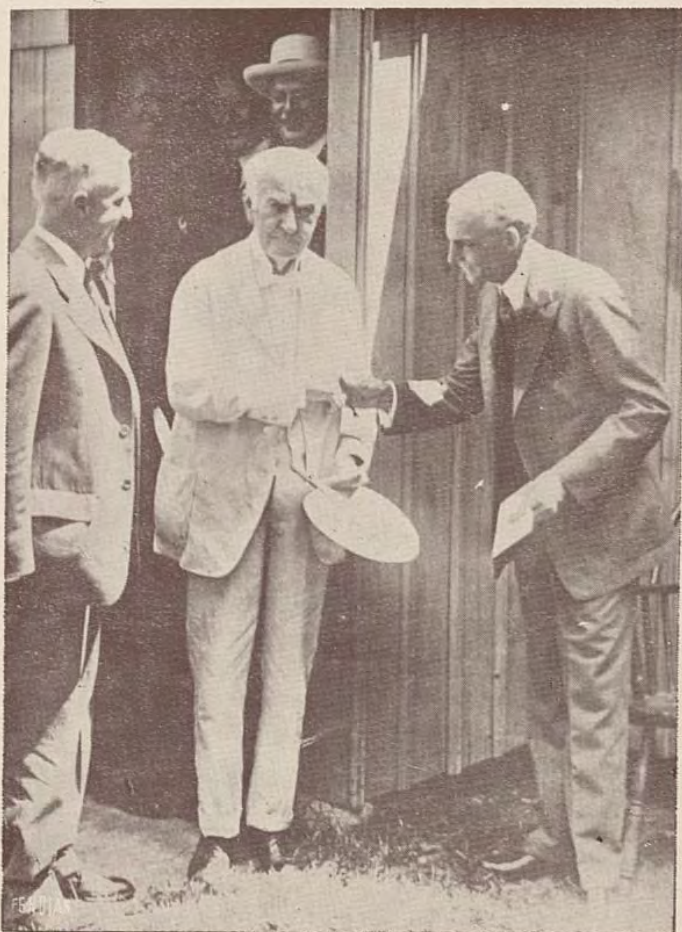
اللاهاسم والعرق

وسر نجاحي في الاختراع والاستنباط مواظبته على العمل . فانه يكاد يطلق النوم في سبيل العمل . ومن أقواله الماثورة إن النبوغ جزء واحد في المائة إلهام و ٩٩ في المائة عرق (أي تعب وجهد) . وقال لاحد كتاب الصحف يوم ميلاده الثمانين أن الدعدو للبشر هو الظلام والنوم . وعليه فهو يعتبر أن استنباطه للمصباح الكهربائي وانشاء نظام الانارة الكهربائية بكل ما فيها من توليد القوة الكهربائية وتوزيعها على اسلاك ، أعظم اعماله على الإطلاق . واذا فرضنا أن هذا النور يزيد ساعات العمل لكل انسان ساعتين كل يوم زادت ساعات عمله في السنة الواحدة نحو ٧٣٠ ساعة أو نحو ٩٠ يوماً من أيام العمل

ولما كان يحاول اتقان الفونوغراف جعله يردد أغنية واحدة الفين وخمسمائة واثنين عشرة مرة الى أن بلغ الغاية التي كان يتوخاها . وكان قد اناط هذه التجارب بعامله فنام في غصونها مراراً ولكنه كان يستيقظ حالاً كلما انتهى الفونوغراف من ترديد الاغنية مرة . أما رئيس عماله فسَمَّ الاغنية وودَّ أن لا يسمعها مرة أخرى في حياته مع أنها أغنية مطربة لانه لم



المدالية التي ضربت في عيد النور الكهربائي سنة ١٩٢٩



اديصن وفورد ممثلا الحضارة الاميركية الصناعية

يسمع غيرها مدة شهر من الزمان فاستسكت منها اذناه واذان رفاقه قبلما ردها الفونوغراف خمسة مرة فقط . ولكنهم اضطروا ان يسمعوها التي مرة بعد ذلك . ومر على هذا الرجل حينئذ عشرة أيام متوالية لم يغم فيها إلا ساعة واحدة كل ليلة وكانت المدة المفروضة لنومه خمس ساعات كل يوم مثل ادبى

لكن التجارب لم تكن دائماً على نسق واحد بل كانت في الغالب متنوعة تنوعاً يسلي من راقبها وبذلك . وما من احد يستطيع ان يواظب على عمل زماناً طويلاً إلا اذا اولع به واستحسنه . وكل مساعدي ادبى من هذا القبيل . ويجب ان يكون ذلك عبءاً للآباء لكي لا يطلبوا من اولادهم ان يواظبوا على عمل إلا اذا استحسنوه واولموا به . والشغف بالعمل ضروري للنجاح لان النجاح يقتضي المزاولة الطويلة ولا يصبر المرء على هذه المزاولة إلا اذا شغف بعمله . ومن رأي ادبى ان الامتحان هو مقياس النجاح في السياسة والادارة كما في الصناعات ولا يحسن ان يقبل رأي مهما كان إلا بعد ان يتمتحن ويعمل به

من استنبط الفونوغراف ؟

المشهور ان ادبى استنبط الفونوغراف واتقن صنعه وصنع قوالبه على اسلوب تجاري ولكن جريدة الاليستراسيون الفرنسية تقول ان الفونوغراف استنبط فرنسي وان مستنبطه هو شارل كروس . واليك خلاصة المقالة التي اثبتت فيها رأيها هذا قالت :

دعوى الاليستراسيون

كثر الاحتفال باعياد العلماء بعد ما وضعت الحرب العظمى اوزارها وذلك حق لانه يهد لنا السبيل الى تمجيد النبوغ الفرنسي والقضاء على كثير من الاوهام وإلصاف بعض العلماء والمستنبطين الذين لم ينصفوا في حياتهم

ولد شارل كروس في اول اكتوبر سنة ١٨٤٢ وكان ابوه معلماً للفلسفة فنشأ في بيت علم وفضل . وتلقى اللغتين العبرانية والسكريبتية في كلية فرنسائيم انضم الى جماعة من الشعراء منهم فرلين الشاعر الفرنسي المشهور وقد بقي اديباً شاعراً الى حين وفاته . لكنه لم يكتف بدرس الادب بل بحث في كثير من المسائل العلمية وله في بعضها آثار خالدة . ففي ٧ مايو سنة ١٨٦٩ عرض المسيو ديكوده هورون صوراً مطبوعة بالالوان على جمعية التصوير الفرنسية وبعد ذلك عرض كروس طريقة مماثلة طريقة ده هورون لطبع الصور بالالوان وكان عمره حينئذ ٢٧ سنة وقد استنبط طريقته هذه على حدة

وفي ٣ ابريل سنة ١٨٧٧ اودع كروس في اكااديمية العلوم الفرنسية ظرفاً مخنوماً فيه وصف آلة تدون الامواج الصوتية وتعود فتسقط بها . ونحن نعلم ان هذا الوصف لا يمنح كاتبه امتيازاً على غيره من حيث الصناعة ولكنه يثبت سبقه الى الاستنباط . وفي ٣ ديسمبر من السنة نفسها طلب كروس الى الاكاديمية ان تفحص الظرف ففحص امام جمهور من الاعضاء واذا هو يحتوي على اوصاف هذه الآلة . على انه لم يتمكن من اثارة اهتمام احد باستنباطه ولا كان هو يملك مائة فرنك كي يسجله ويحصرا امتياز صنع به . وفي اثناء ذلك كان ادبسن مكباً على العمل . ترى اكان جاهلاً باوصاف آلة كروس ؟ من المحتمل انه رأى اوصاف آلة كروس بالاطلاع على وقائع جلسة الاكاديمية التي قرئت فيها رسالته . وفي ١٩ ديسمبر سنة ١٨٧٧ نال ادبسن امتيازاً ابتدائياً لفونوغرافه ثم نال امتيازاً كاملاً في ١٥ يناير سنة ١٨٧٨ ولكن استنباطه لم يسجل في فرنسا قبل ٧ يونيو سنة ١٨٧٨ . وفي ١١ مارس سنة ١٨٧٨ كان فونوغراف ادبسن قد عرض على اكااديمية العلوم الفرنسية فدوّن عبارتين فاه بهما ممثله في فرنسا وبعد ما دونهما الفونوغراف نطق بهما ثانية . وكان يبدو على لفظ العبارتين خسة كان الاحرف صادرة من الاق . وبلغ من دهشة بعض رجال الاكاديمية ان حسبوا في هذا العمل شيئاً من الشعوذة وقال الدكتور بويان ان للتكلم من البطن شأناً في ذلك

وقيل ذلك كان برندن قد اطلع على اوصاف هذه الآلة وضع فونوغرافاً صغيراً في معمله كان نطقه غير واضح كل الوضوح ولكنه نطق بالالفاظ التي دوّنت على كل حال نسوق هذه الحقائق لا لننقص ادبسن . اما يزيد ان نقول بان مستنبط الفونوغراف هو شارل كروس وانه وصفه وصفاً مسهباً دقيقاً لا يحتمل التأويل

وسواء كان ادبسن قد سمع عن استنباط كروس او لم يسمع فلا يستطيع احد ان ينال مكنته وشهرته بسوء وخصوصاً فيما يتعلق باخراج فكرة الفونوغراف الى حيز العمل واتقان صنعه رغم المصاعب الجمة التي لقيها مع انه كان يرتاب في امكان اتقانه كما كتب بذلك الى « مجلة العالم الكهربائي » في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٨٧ . على ان المصاعب لم تنته عن عزمه فاتقن صناعة الفونوغراف اتقاناً عظيماً . ولكن المبادئ التي بنيت عليها هذه الآلة هي المبادئ التي بسطها كروس في مذكرته

ومات كروس سنة ١٨٨٨ فقيراً بعد ما قضى الشطر الاخير من حياته يشتغل بالادب

رد ادبسن

ارسل محرر مجلة الترري ديجست الاميركية ترجمة المقالة السابقة التي نشرتها الايستراسيون

الى ادبسن نفسه وطلب اليه ان يبدي رأيه في محتوياتها فكتب الى المحرر الكتاب الآتي :

تسلمت كتابكم تاريخ ٣ يونيو وفيه المقالة التي تتضمن دعوى المجلة الفرنسية بان مستنبط الفونوغراف هو شارل كروس. هذه دعوى غير صحيحة كما ثبتت لك من الادلة التالية

١ — خطرت على بالي فكرة تدوين الكلام وغيره من الاصوات في ٢٨ يونيو سنة ١٨٧٧ واتممت الآلة التي حققت هذه الفكرة فصنعت اول فونوغراف وأتممت في شهر يولي اغسطس وسبتمبر من السنة ذاتها . ونجح الفونوغراف الاول نجاحاً تاماً في تدوين الصوت والنطق به . وقد دونت آلي كلام متكلم وغناء مغنٍ وصفير صافرٍ وغيرها من الاصوات وكان بناء الفونوغراف الاول قائماً على اهم المبادئ الاساسية التي يقوم عليها بناء الفونوغراف اليوم

٢ — في ٣ ابريل سنة ١٨٧٧ اودع شارل كروس ظرفاً مختوماً في اكااديمية العلوم بفرنسا . وبقي هذا الظرف المختوم في خزانة الاكااديمية الى الجلسة التي عقدت في ديسمبر سنة ١٨٧٧ حين فُضَّ بطلب خاص من الميسيو كروس وقرئت الرسالة التي فيه امام اعضاء الاكااديمية فاذا هي تحتوي على مبادئ آلة تدوين الاصوات وتنطق بها

٣ — كانت انباء استنباطي قد ذاعت في انحاء العالم فاحدث ذبوعها دهشة واستغراباً قبل اجتماع اكااديمية العلوم الفرنسية في ٣ ديسمبر سنة ١٨٧٧ . وعليه يلاحظ ان استنباطي للفونوغراف وصنعي له سبقا قراءة رسالة كروس النظرية

٤ — في اجتماع اكااديمية العلوم الفرنسية الذي عقد في ١١ مارس سنة ١٨٧٨ عرض احد اعضائها الكونت دي مونصل فونوغرافي على الاعضاء فاثار دهشتهم واستغرابهم كما يظهر من مراجعة وقائع الجلسة في دفاتر الاكااديمية

٥ — لم يبلغني ان الميسيو كروس صنع الآلة التي وصفها . وقد قرأت رسالته بعد سنين كثيرة من صنع الفونوغراف فثبت لي ان الآلة التي وصفها لا يمكن اخراجها الى حيز العمل كما هي الامضاء

الحياة والموت والخلود

ان ما حيرَ عُمَر الحَيام حيرَ ادبسن أيضاً . ما هو الانسان اهو الجسم الذي بصور بالفوتوغراف أم هو شيء آخر في هذا الجسم . وما هي الحياة . اهي ما يمكن الجسم من ان يرى ويشم ويسمع وذوق ويتنفس ويتكلم أم هي شيء آخر غير ذلك ؟ اهي انفعال كباوي فقط كما يقول البعض أم هي شيء آخر وما هو ذلك الشيء ؟ ومهما تكن حقيقتها فمن أين أتت . فقد كانت الارض في أول عهدها سحابة تدور

في الفضاء ثم صارت جسماً جامداً حامياً يكتنفه البخار ثم ظهرت الاحياء عليها فمن
أن جاءت حياتهم

الحياة نوع من القوة

ان اديصن يعتقد أن الحياة شيء لا يفنى وأنها نوع من القوة وهذا النوع من القوة
يفعل بالدقائق التي يتألف منها جسم الانسان فيجعلها حية نامية مفكرة . ويفعل أيضاً
بالدقائق التي يتكون منها القمح فيجعله ينمو ويصنع أوراقاً وسنابل وجوياً أي يحيي هذه
وتلك . وحينما يموت الانسان ويبس القمح تذهب هذه القوة الحيوية الى المصدر الذي أتت
منه وتبقى هناك الى ان تعود دقائق أخرى فيتكوّن منها انسان آخر أو نبات آخر .
وهذا نص رأيه كما نشره كاتب اميركي في مجلة « كوزموبولتيان »

« اني اعتقد أن القوة التي نسميها حياة ، تستطيع ان تقطع المسافات الشاسعة بسرعة
الكهربائية وتستطيع ان تنحي ما على الارض ثم تعود الى مصدرها في الكون وهو إما
سيّار آخر أو جهة أخرى لانعلمها . فان الارض كانت في سالف عهدها غير صالحة لوجود
الاحياء فيها حينما كانت مصهورة من شدة الجو . ثم بردت وظهرت الاحياء فيها فتولدت
حياتها في الارض أو أمتها من مكان آخر . وعندي أنها أتت من مكان آخر كما تأتي الكهرباء
من الشمس . ولا اعني بذلك أنها أتت كما تأتي الكهرباء تماماً لاني لا أعلم كيف أتت »
وعنده ان البيض والبر لا يكونان حين أي لا يتضمنان مبدأ الحياة ولكنهما يكونان
معدّين للنمو اذا دخلتهما الحياة . فقد قال « ان البيضة والبرزة مثل النموذج معدّ لسكني
القوة التي نسميها حياة فاذا نبت هذا النموذج وردة فهو معدّ ليصير وردة اذا دخلته
الحياة » ومفاد كلامه أن الحياة شيء واحد دائماً أي أنها قوة محيية فتحي كل شيء حسب
ما هو معدّ له . فاذا دخلت برة قطن أمتها وصيرتها شجرة قطن واذا دخلت البيضة التي
يتولد منها الانسان أمتها وصيرتها أنساناً . فقومات الجنس والنوع تكون كلها في البرزة
والبيضة بالقوة ولكنها لا تظهر بالفعل ما لم تدخلها الحياة . ويتضح ذلك من أن الخلايا
الاولى التي تتكوّن منها أجسام كل الموجودات الحية متشابهة وان كان بين أنواعها اختلاف
فهو طفيف جداً وان الفرق قليل جداً بين الخلايا الاولى التي يتكوّن منها جسم الانسان
وعنده أن الارض سيّار يأتيه من مكان في الفضاء مقدار محدود من القوة الحيوية
وهذه القوة تدخل البيوض والبرزور فتحيها وتجعلها تنمو كل واحد منها بحسب نوعه وبحسب
ما وصل اليه من الارتقاء بناموس النشو . ولكن هذه القوة محدودة لا تكفي لانماء كل ما

تبرزه النباتات من البزور وكل ما تبيضه الحيوانات من البيض. وخلايا البزور والبيض التي تنمو تعرف ما هو خاص بكل منها من العمل فتقوم به

قالت السينفك اميركاه

« اذا كان رجل في مقام لودج أو اديصن يهتم بموضوع ما فان الجمهور يبالغ في الاهتمام بما يقول وبما يرجو أن يفعل . وعليه فلما أذيع ان اديصن يجرب تجارب لمناجاة الموتى فسحت الصحف مجالا واسعا لهذا التبايع فوق ما يستحقه بالنسبة الى الدرجة العليا التي بلغتها أعمال اديصن من التقدم العلمي . وقد أصابت فيما فعلت لأن القراء اهتموا مزيد الاهتمام بمجرد علمهم ان اديصن يشتغل بهذه المسئلة . ثم قالت : « وأهم ما في الأمر أن اديصن رغم الاراحيف التي قد تذيبها الصحف عن هذه المسئلة وعلاقته بها يسعى ليعود بنا الى الموقف الصحيح في أمر الحياة بعد الموت وبقاء النفس وامكان مخاطبة الموتى . وهذه صورة الحديث الذي دار بين اديصن ومكاتب السينفك اميركان العالمي :

ان اديصن الذي استنبط المصباح الكهربائي والفونوغراف والصور المتحركة وبطرية النيكل والحديد والدينامو الكامل وغيرها من المكتشفات والاختراعات التي تدخل أعمالنا اليومية سيوجه سعته وجهده الى أمر يفوق كل اكتشاف واختراع بما لا يقاس . فان في العالم نحو ١٥٠٠ مليون نسمة سيدركهم الموت عاجلا أو آجلا ولكنهم يجهلون كل الجهل مصيرهم بعده . ومثل ذلك يقال عن مجيئنا الى هذه الدنيا . وعليه فالحياة والموت لا يزالان سرا من الاسرار ولغزا من الالغاز التي لم يفتح بها على مخلوق

شاع في سنة ١٩٢١ ان هذا الخترع العظيم يعد طريقة أو آلة لمخاطبة الذين انتقلوا من هذا الوجود الى وجود آخر أو عالم آخر . فنشرت صحف اميركا واوروبا ان توماس اديصن اندمج في صفوف الروحانيين الذين بينهم الآن كثيرون من كبار العلماء والمؤلفين والاختراعيين والطبيين والمهندسين ورجال الدين وغيرهم . ووصف الكتاب الفرنسيون الواسع الخيال آلة اديصن بأنها محطة تلفونية أو مكتب تلغراف أو ما أشبه يقصدها الناس ليخاطبوا منها أرواح أحيائهم وأصدقائهم في العالم الآخر بطريقة عاجلة أكيدة

وليس في الناس أحد أشد أسفا من المستر اديصن على اذاعة أخبار مثل هذه . فقد قال لي في حديثي معه : « اني لا أستطيع تصور شيء يسمونه الروح . تصور شيئا لا تقل له ولا صورة ولا حجما . وبعبارة أخرى تصور غير شيء . أنا لا أستطيع أن أعتقد أن الارواح يمكن أن ترى في أحوال معينة وتحرك الموائد أو تفرع عليها وتعمل أعمالا سخيفة

مثل هذه وكل ما قيل من هذا القيل حديث خرافة »
وأقول هنا أنه إنما قابلي لازالة ما علق بالاذهان من الاشاعات التي شاعت عن غرضه
من البحث والتنقيب في هذا الموضوع . ولا يزال الآلة التي شاع أنه يصنعها، في دور التجربة
والامتحان . وقد طلب مني أن أذيع ما يأتي . قال :

آلة اديصن الحساسة

« فكّرت منذ مدة في اختراع آلة أو أداة يمكن أن يستخدمها أو يؤثر فيها الذين
غادروا هذا الوجود الى وجود آخر أو الى عالم آخر . والآن اسمع وعـ ما أقول لك .
أنا لا أدعي ان شخصياتنا تنتقل الى وجود آخر أو منطقة أخرى . ولا أدعي علم شيء
في هذا الموضوع لأنني لا أعلم شيئاً فيه ولا أحد من الناس يعلم . ولكني ادعي أنه يمكن
صنع آلة بالغة من الدقة مبلغاً بحيث أنه اذا كان أناس في عالم آخر يريدون مخاطبتنا في
هذا العالم فان هذه الآلة تكون أوفى بهذا الغرض من تحريك الموائد والنقر عليها أو غير
ذلك من الوسائل السخيفة المعروفة

« والحق يقال أن سخافة هذه الوسائل هي التي تحماني على الشك في صحة مناجاة الموتى
التي يدعونها . فلست أدري لم يضيع الاشخاص الذين في العالم الآخر وقتهم في تحريك
مثلث من الخشب على مائدة عليها حروف الهجاء . وما غرضهم من تحريك الموائد . هذا
كله يظهر لي من الاعمال الصيانية حتى لا أستطيع أن أبحث فيه بين الجد والاهتمام .
وعندي أنه اذا شئنا أن نتقدم تقدماً حقيقياً في البحث العقلي وجب أن نقدم عليه بالآلات
العلمية وبالطرق العلمية كما نفعل في الطب والكهربائية والكيمياء وغيرها

« أما ما أريد أن أعمله فهو أن أجهز الباحثين في المباحث العقلية النفسية بآلة تلبس عملهم
لباساً علمياً . وهذه الآلة ستكون مثل مصراع أو تشبه مفتاحاً صغيراً يستطيع به رجل
واحد ضعيف القوة أن يفتح مصراعاً تدار به آلة قوتها ٥٠ ألف حصان . وستكون آليتي
على هذا المثال حتى ان أصغر قوة تكبر بها كثيراً فتساعدنا على بحثنا . ولا أقول أكثر
من ذلك عن ماهيتها . وقد مضت عليّ مدة وأنا أشتغل بتفاصيلها وكان يعاونني في عملي هذا
صديق قوتي منذ حين . ولما كان يعلم ما أنا ساع إليه فالواجب أن يكون أول من يقدم
على استعمال هذه الآلة ان استطاع ذلك

« واعلم اني لا أدعي أنني اعرف شيئاً عن بقاء الشخصيات بعد الموت ولا أعد بمخاطبة الذين
اتقلوا من هذا الوجود وإنما أقول اني ساع في تجهيز الباحثين بآلة قد تساعدهم في عملهم

كما يساعد المكرسكوب رجال الطب في مباحثهم . واذا عجزت هذه الآلة عن أن تكشف لنا شيئاً خارق العادة فاني أفقد كل ثقة وإيمان ببقاء الشخصيات بعد الموت كما نعرفه »

ماهية الحياة

ومما يقال عن المستر ادبسن انه لا يصدق المذاهب المعروفة في الحياة والموت لانه يعتقد انها فاسدة الاساس . قال لي باسطاً مذهبه فيهما « عندي ان الحياة كالمادة غير قابلة للفناء . فقد كان في هذا العالم مقدار معين من الحياة على الدوام وسيبقى هذا المقدار كما هو على الدوام . فانك لا تستطيع خلق الحياة ولا ابادتها ولا مضاعفتها . وفي اعتقادي ان اجسامنا مركبة من ملايين من الكائنات المتناهية في صغرها وكل منها حي مفرد ويرتبط بعضها ببعض لتكوين الانسان . ونحن نقول عن انفسنا ان كلاً منا شخص واحد قائم بنفسه وتكلم عن الهرة او الفيل او الحصان او السمكة كأن كلاً منها فرد قائم برأسه ولكني ارى ان طريقة التفكير هذه فاسدة الاساس فان هذه الاشياء كلها تظهر انها بسيطة مفردة لأن الكائنات الحية التي تتألف منها اصغر من ان ترى حتى بأعظم المكبرات

وقد يعترض على هذا الرأي بأنه اذا كانت هذه الكائنات صغيرة الى هذا الحد فلا يمكن ان تكون مؤلفة من اعضاء مختلفة تستطيع القيام بالاعمال التي سأذكرها . فأقول في الرد على ذلك انه لا حد لصغر الاشياء كما انه لا حد لكبرها . واكتشاف الالكترون خير جواب على مثل هذا الاعتراض . فقد ظهر لي بالحساب انه يمكن وجود حي متقن التركيب والتنظيم مؤلف من ملايين من الالكترونات الصغيرة التي لا ترى بما نعرف من المكبرات وهناك دلائل كثيرة تدل على اتنا نحن الخلائق البشرية يتصرف كل منا تصرف جماعة من الاحياء لاتصرف حي واحد وهذا ما يحمني على الاعتقاد ان كلاً منا يحتوي على ملايين من الاحياء وان اجسامنا وعقولنا تمثل افعال الكائنات التي تتألف منها

عجائب صمير بالجسم

« ولننظر الآن في السبب الذي يحمني على القول انه لا بد ان تكون اجسامنا مؤلفة من هذه الكائنات . خذ بصمة ايهاك كما يفعل البوليس في بصم ايها المشبوهين ثم ازل خطوط ايهاك بجرقها بالنار . فتى فما الجلد ثانية تجد ان خطوطه لم تتغير البتة عما كانت قبل احراقه وقد امتحنت ذلك بنفسي حتى تحققت . هذا سر من الاسرار مافتىء مطلقاً حتى الآن . تقول لي ان هذا عمل الطبيعة . فان هذا جواب يراد به المحاولة لغير

اذ لا معنى له بل هو وسيلة لاسكات السائل بذكر كلمة فارغة مكان الجواب . ان كلمة « طبيعية » ما اقنعتني قط . اما جوابي انا فهو ان الجلد لم ينبت ثانية كما كان اولاً بمجرد الاتفاق بل ان هناك من وضع رسوم النمو الثاني وعني بمطابقته لرسوم النمو الاول من كل وجه . وانت لا تعلم شيئاً من تلك الرسوم وعليه فان دماغك لم يشترك في هذا العمل . وهنا تدخل الكائنات المشار اليها وتشترك في العمل . وانا اعتقد جد الاعتقاد انها تحوكم نسيج جلد الابهام بمزيد العناية مستعينة على رسم التفاصيل الدقيقة بذكرتها العجيبة «ولزيادة الايضاح اقول : لنفرض ان كائناً من سكان المريخ هبط الى هذه الارض ولنفرض ان بصره ليس دقيقاً كبصرنا وان اصغر شيء يمكنه ان يراه بعينه هو جسر (كوري) مثل جسر بروكلن . وعليه فانه لا يرى اجسامنا وقد يحسب الجسر المذكور شيئاً طبيعياً كما نحسب نحن العشب او الرمل او المعادن وغيرها من الاشياء الطبيعية . ولنفرض انه هدم جسر بروكلن وذهب ثم عاد بعد سنين فرأى من هناك فوجد جسراً جديداً مكان القديم وعلى مثاله . فهل يقوده الفكر الصحيح الى افتراض ان الجسر الجديد نما بنفسه مكان القديم وعلى مثاله او الى افتراض انه مدّ ثانية بفعل فاعل عاقل . لا ريب ان الفرض الثاني اقرب الى العقل

هذا هو الموقف الذي يجب ان نقفه نحن بازاء الكائنات الحيوية . والمسئلة كلها مجرد افتراض وتخمين كما لا يخفى . فقد يكون ٩٥ في المائة من تلك الكائنات التي تتألف اجسامنا منها عمالاً والخمسة الباقية مديرة للعمل وقد يكون غير ذلك . ومهما يكن من الامر فان مجموعها هو الذي يكون شكل اجسامنا الطبيعي وصفاتنا العقلية وشخصياتنا وما اشبه ذلك وهذه الكائنات هي الحياة بعينها وهي لا تفنأ تعمل وترمم انسجة اجسامنا وتشرف على وظائف اعضائنا . فاذا اصاب الجسم بطارئ افضى الى موته كأن يكون مرضاً عضالاً او عارضاً او هرماً فان هذه الكائنات تفارقه ولا تترك وراءها الا بناءً خاوياً . ولما كانت عمالاً لا تكل ولا تمل فاما ان تدخل جسم انسان آخر او تبدأ العمل في صورة اخرى من صور الحياة واشكالها . وسواء كان هذا او ذاك فان هذه الكائنات محدودة العدد وهي نفسها عملت كل شيء في عالمنا هذا . ولكن تعدد التراكيب التي تتألف منها هو الذي اوقنا في الخطاء فحسبنا ان لكل مولود حياة جديدة

وهذه الكائنات خالدة لا تموت فانك لا تستطيع اثناءها كما انك لا تستطيع اثناء المادة وجهدها هناك انك تستطيع تغيير صورة المادة لاغير . فقد كان مقدار الذهب والحديد



اديسن من ثلاثين سنة وأماه
مكرس كوف في معمله الكيماوي
مشتغلاً باتقان البطارية الحازية
لتستعمل في الآلة والمواصلات



من الفوائد التي استفرت عن
استيلائه للبطارية الحازية
استعمالها في صنع مصابيح
كهربائية للمعدن . وتراه
فوق هذا جالساً يفتحص أحد
هذه المصابيح سنة ١٩٢٨



اديسن الى شمال الفاري .
وستستمر الى بينه وكلاهما من
أربع المستعطين الكهربائين
وقد عرف كل منهما « يساحر
الكهربائية » سنة ١٩٢٢



اديسن يدون في احد دفاتره
ملاحظات على تجاربه في البحث
عن نبات يحمل محل التلصق الطبيعي



بدأ اديسن حياته كمنسبط عاملاً من
عمال التلغراف وذلك سنة ١٨٦٠
ومع اني لحوا من ستين سنة اقتضت
عليه الان فانه لا يزال قدراً ان يرسل
رسالة تلهرافية بشفرة مورس



اديسن وهو في الحادية والثمانين من عمره يتلقى درساً في
استقطار التلصق من هارفي فيرستون صاحب مصانع التلصق
المشهور ومعه أحد مساعديه . صورت سنة ١٩٢٨



وجهه المداالية التي خُبرها الكثيرون
الأميري وأهداها الى اديسن



فقا المداالية وقد نقش عليه « لقد
انار طريق التقدم بمسقطاته »

مشاهد من حياة اديسن الحافلة بالآثار الحادثة

والكبريت والاكسجين وغيرها في بدء العالم كما هو الآن بلا زيادة ولا نقصان . نعم اتنا نستطيع التغير في تركيب مركبات هذه العناصر ولكننا لم نظفر بتغيير نسبها بعضها الى بعض وهذا هو حال الكائنات الحية فانت لا نستطيع افناءها بل نغير صورها واشكالها . وقدرتها متعددة الضروب حتى يصعب علينا تمييز اعمالها في كل الاحوال . وعليه لم يستطع العلماء حتى الآن ان يسموا حداً بين الاشياء الحية وغير الحية . وقد تمتد هذه الكائنات الى الجماد وتعمل فيه والا فها هو الشيء الذي يجعل البلورات تكون على اشكال هندسية محدودة

الشخصية وبناءها

والآن نأتي الى مسألة الشخصية . انت لسكربورا (اسم الكاتب) وانا اديصن لان في كل منا مجموعاً من الكائنات يختلف عن مجموع الآخر . فقد اثبت الطب باثنتين وثمانين عملية جراحية شهيرة عملت حتى الآن ان مركز شخصيتنا هو في تلفيف من تلافيف الدماغ اسمه تلفيف « بروكا » . ومن العقل والصواب ان نفرض ان مركز مقر الكائنات التي تدير حركاتنا وتشرف عليها انما هو في ذلك التلفيف . فهو الذي يشعرونا بالتأثيرات العقلية وبشخصيتنا

ولقد قلت ان ما نسميه الموت انما هو مفارقة تلك الكائنات لابداتنا . والمسئلة كلها في زعمي هي مسئلة ما يجري للكائنات المرشدة التي مقرها في تلفيف « بروكا » . إذ المعقول ان الكائنات الاخرى التي تعمل عملاً ميكانيكياً في اجسامنا تتشتت وتذهب في جهات مختلفة طلباً للعمل فيها . أما الكائنات التي تتكون منها شخصياتنا فتكون أنت بها لسكربورا واكون أنا اديصن ويكون زيداً فإذا يجري بها . هل تبقى مجموعة واحدة أو تتفرق في الكون طالبة العمل منفردة لا مجمعة . فان كانت تتفرق فان شخصياتنا لا تبقى بعد الموت . فقد تقدم القول ان هذه الكائنات تعيش الى الابد وتمنحنا الخلود الذي نرجوه كثير منا ولكن ان كانت تتفرق ثم تتحد بكائنات اخرى لتؤلف اجساماً جديدة منها فان ذلك يضعف علينا شخصياتنا والخلود الذي نرجوه أي خلود تلك الشخصيات بعينها

ولي الرجاء ان شخصياتنا تبقى . فان كانت تبقى فان الآلة التي أنا ساعٍ في اختراعها لا بد ان تفيدنا . وهذا ما يحدوني الى الانهماك بعملها واخراجها على غاية من الدقة . واني انتظر النتيجة بذهاب الصبر »



النمو الروحي أمتسق

سبيل الانسانية الى السوبرمان

تلخيص فصل عن الفيلسوف اوسينسكي

بقلم يوسف حنا

لم يقنع الفكر البشري يوماً ما بأن هذا الانسان في حالته وفي شكله الحاضر هو نهاية ما وصل اليه الخلق من الاقتان والابداع وفكرة السبرمان تشغل الانسان منذ ان وجد له عقل يدرك ويفكر، بل أن اساطير القدماء ، الدينية منها والتاريخية ، تتحدث كلها عن هذه الفكرة وان اختلفت أوجه الحديث ، وليس ابطالها الاً صوراً تتباين في اشكالها الظاهرة وتتفق كلها في حقيقة مدلولها من الاشارة الى السبرمان ؟

وعلى هذا لم يكن مذهب نيتشه شيئاً جديداً ولو أنه ظهر للناس كذلك وتصور الانسان لفكرة السبرمان في أول ما تصور لها ، كانت شيئاً يتصل بالماضي ، فالناس كانوا مولعين بالتحدث عن عصور الماضي الذهبية وما ظهر فيها من اناس متفوقين على البشر يحاربون الشر وينصرون العدل ويقومون وسائط بين الالهة والناس ثم تطور الانسان في انماط تفكيره وأصبحت صور الماضي لا تكفيه فشرع يتصور المستقبل زمن مجيء السوبرمان ثانية . ومن هنا نشأت صورة جديدة للسوبرمان فبات الناس ينتظرونه لينظم شؤونهم ويحكمهم ويعلمهم طاعة القانون ويهديهم الى نواميس جديدة وتعاليم جديدة ومعارف جديدة وحقيقة جديدة ورؤيا جديدة . باتوا ينتظرونه ليخلصهم من أنفسهم وليحررهم من قوى الشر التي تحيط بهم . ان كل الديانات تقريباً تشتمل على فكرة انتظار السوبرمان أو النبي أو المسيح

وفكرة السبرمان في هذا العصر العلمي ، مسألة تتعلق بمذهب التطور ، بل هي ثمرة من ثمرات التطور في زعمهم ، ولكن الغائلين بهذا الرأي ينسون أن التطور لا يعني شيئاً حاسماً أبداً ، فالارتقاء فيه والانحطاط شيئان يتداخلان في بعضها البعض اكبر التداخل ، وكثيراً ما يعجز المرء عن أن يميز في تلك العملية من التطور ما الارتقاء فيها وما النكوص ، وانما الشيء الوحيد الحاسم فيها هو أن التطور في الحياة معناه عملية دائمة من التغير والتبديل . وكل الاحياء التي نعرفها هي نتيجة للتطور او للانحطاط

الانسان يتغير ويتبدل ، ولكن هل هو يرتقي ام ينحط ، هذا ما يصعب الجواب عليه
وفضلاً عما ذكر ، فنظرية التطور شيء يتصل بتركيب الاحياء البيولوجي ولكنه لا
يعني بالاجتماع والعادات والشرائع وما الى ذلك — مع ان التطور صوب السبرمان معناه
خلق أشكال جديدة من التفكير والشعور وترك أشكال الماضي منها
أما مصدر الخطأ في صور السوبرمان المختلفة فحسبنا ان الانسان اكمل خلقاً مما هو حقيقة
والواقع ان الانسان شكل غير تام الصنع ، وعملية أمامه هي عملية دائمة ، فهو يختلف
في يومه عن أمس وعن غدٍ وما بعده ، ونفس الانسان الداخلية تعاني تغيرات أقوى من
تلك وأشد تعقيداً وتركيباً

والمرء عالم مستقل بذاته ، تجري فيه عمليات مستمرة من الولادة والموت ، ومن تسلط
القوي على الضعيف ، ومن الارتفاع والانحطاط ، ومن النماء والموت وأنت تجد في هذا
العالم (الانسان) شيئاً من كل شيء من معادن الارض الى الله ...

ففي روح الانسان وثبات من روح الله يندفع بها الى عوالم التخيل والشعور البعيد
عن قيود الزمان والمكان — ومن هذا التباين ما بين عالم الانسان الجسدي والآخروحي
نشأت فكرة الثنائية في الانسان ، الواحد يتصل بعالم المعادن والحيوان والزمان والمكان ،
والآخر يعلو الى العالم الآخر المحجوب عن الانظار

وفي الانسان مخلوقان ، الواحد يتصل بالماضي ، والآخر يتصل بالمستقبل ، وكلا ذينك
المخلوقين في نضال دائم ، والمرء لا يفلو ولا يتعدى الحق ، حين يقرر ان الروح الانسانية
هي احتراب مستمر بين الماضي وبين المستقبل

وانظر ما يقوله نيتشه عن لسان « زراتسترا » : —

« أنا من اليوم وما قبله ، ولكن يوجد في شيء من الغد وما بعده من المستقبل »
« زراتسترا » لا يتكلم هنا عن الاحتراب بين الماضي والحاضر وانما هو يتكلم عن
الوحدة التي ينطوى تحتها اليوم وما قبله ، والغد وما بعده ، وهذه الوحدة لا تيسر إلا اذا
انتفت أسباب الاحتراب والتناقض والثنية في الانسان ، أعني ألا اذا قهر الانسان تلك الأسباب
وجعل حياته وحدة متساوقة بين الماضي والمستقبل وبين العالم الخارجي والآخروحي الذي فيه
وفكرة السبرمان تقسم الفكر البشري اليوم الى قسمين يتباينان أشد التباين — أتباع
القسم الاول يعتبرون الانسان مخلوقاً كاملاً ، يدرسون كيانه الجسدي والسيكولوجي ،
وتاريخه ، وحضاراته ويعالجون كل ما يمكن أن يدخل عليه من اصلاح وتحسين ، مهتمين في
هذا كله بنتائج مساعي الانسان ومكتشفاته ومخترعاته ، ثم يعتبرون هذه النتائج أدلة على

تطور الانسان ، أعني على ارتقائه ، مع انه كثيراً ما تكون تلك النتائج عنها دليلاً على عكس ذلك ، وفكرة ذلك الارتقاء الذي يزعمونه يشمل في نظرهم النوع الانساني بأكمله أما أتباع القسم الثاني فيعتبرون الانسان شيئاً غير تام الصنع وانما هو في طور التكيف والعمل ، وان هذا الشيء يجب أن يخرج منه شيء يختلف عنه ، وعلى هذا فغنى وجود الانسان الحالي هو في سعيه المتواصل للانتقال الى الحالة المنتظرة

وفكرة هذا الانتقال هي فكرة غامضة فالنظر الى الانسان من حيث السوبرمان الذي سوف يصيرهُ تسند الى الصوفية والكهانة وما اليهما ولكنها لا أثر لها في التفكير العلمي ولا في فاسفات الحياة والآراء الواسعة التي يزعم لها العلم الذبوع في هذا العصر والسبب في انفصال فكرة السبرمان عن الفكرة العلمية العصرية يرجع في اعتقادي الى اثبات الصلة بين الذهن الغربي والتفكير الديني ، ولو ان الغرب طابعا من التفكير الديني ، لاستطاع أن يساعده على قبول فكرة السبرمان ، لأن الفكر الديني لا ينفصل في صميم معناه عن فكرة السبرمان ، ولولا هذا الاضطراب في أنماط تفكير العصر ، لاستطاع فلاسفة العصر أن يدركوا فكرة السبرمان على خير وجوها ، وأن يفهموا ان الانسان الحالي عابرسبيل سوف يمر وبآتي غيره أسمي منه

ولكن فكرة كهذه لا يمكن أن تكون فكرة راجحة ، ذلك ان معظم فلسفات العصر تقوم على أساس علم الاجتماع ، أو ما يزعمون له انه علم ، وهذا العلم لا يقوى على أكثر من اعتبار الحاضر أو المستقبل القريب ، ولكنه يعجز عن التغلغل الى خفايا المستقبل البعيد وما قد تتطوي عليه ثناياه من اشكال انسانية جديدة

هذا العلم يعتبر الانسان المتوسط فقط ، بينما ان الفرد في الانسان ، والمجموع فيه ، يشبه سلسلة من الجبال ، فيها القمم ، وفيها القدم والاودية ، وتلك السلسلة فوق كل اعتبار آخر ، ما زال في طور التكوين . تنخسف الجبال وتتحسر المياه فتحل الصحاري محل البحار ، وتثور البراكين فتغطي اودية المروج والحقول

فالانسان المتوسط لا وجود له في الواقع ، كما انه لا يوجد ارتفاع جبلي متوسط . بل ثمة أفراد مختلفون وقيم متباينة الارتفاع . وعلى ذلك فليس من السهل أن نعين الزمن الذي يظهر فيه شكل ثابت من أشكال الانسان ، لأن هذه الاشكال هي في عملية مستمرة من التكوين ، وحركة النمو فيها لا تقف أبداً ، وظهور الاشكال الجديدة من الناس عملية هي الاخرى مستمرة لا تهدأ

والسبرمان لا يتعلق بالمستقبل ، واذا أمكن للسبرمان أن يوجد في العالم فيجب أن

يوجد في الماضي وفي الحاضر ، ولكنه لا يستمر ، هو يظهر الى حين ثم يختفي — وكما ان حبة الحنطة حين تزرع وتنمو تنفصل عن عالم الحبوب ، فليس يعود يدركها ذلك العالم ولا يلاحظها في عالم نموها هي ، فكذلك السبرمان يظهر بيننا ولكننا لا ندركه ولا نلاحظه لانه ليس منا ، والانسان العادي لا يمكنه أن يدرك السبرمان ولا أن يعرفه اذا وُجد بينه ، وهذه حقيقة تمنعنا كبرياؤنا عن أن نعرف بها

ونقطة العجز في فهم فكرة السبرمان عند الناس هي في أنهم إما يعتبرون الحياة بدون غاية أو أنهم يرون ان تلك الغاية هي في تطور المجموع وفكرة تطور الجمهور سخيفة ! فكأنك تطلب أن تتطور جميع خلايا الشجرة ويصبح كل ما في الشجرة زهواً ونمواً ان الطبيعة لم تعهد للانسان بان تكافئه باخراجه من سجن الانسانية الى فسيحة السبرمان جزاء له على طول خدمته ، او شدة آلامه أو حسن سيرته . وانما طريق هذا الخروج هو في فهم فكرة السوبرمان وهذا الفهم أصبح نادراً الآن

خذ مثلاً خلط الناس في فهم السبرمان ، تلك الاشكال التي كانوا يتصورونها عنه في الماضي — هم كانوا يتصورون السبرمان في أشكال ضخمة غير عادية ، مع أن هذا خطأ ، ان طول القامة ، أو ضخامة الديدن ، وطول العمر ، كل هذه الصفات وأمثالها لا توزن بشيء في تكوين السبرمان . فالانسان مهما طالت قامته فهي لا تعلو عن النخلة ... وأصغر آلة أقوى من اضخم يد ... ومن الحيوانات والنباتات ما تعيش مئات السنين ... فهل في مثل هذه الصفات ما يعد بحق من ميزات السبرمان ؟

ان صفات السبرمان هي تلك التي يستقل بها الانسان وحده ، لا يشاركه فيها آخر من الالياء الاخرى — وتاج تلك الصفات هو نماء عالم الانسان الداخلي ، اعني نماء الشعور أو الوعي Consciousness

تطور وعي الانسان ، وهو ما لا يشاركه فيه اي مخلوق آخر ، هو المصعد الذي ينتهي بالناس الى مرتبة السبرمان

وبديهي أنه ليس من المستطاع تقرير قاعدة ثابتة لتطور السبرمان العقلي والعاطفي ، ولكن في الامكان تبين بعض نواحي ذلك التطور تيناً واضحاً

ان اول ما يجب أن نقوله عن فكرة السبرمان هو انها فكرة لا تفهم في عالم الماديات وانما هي فكرة غامضة تتصل بشيء خفي ويمت بسبب الى السحر والسبرمان لا يمكن أن يكون رجل اعمال عظيماً أو فاتحاً عظيماً أو مخترعاً عظيماً ، او

عالمًا عظيمًا ، وانما هو اما أن يكون قديسًا أو ساحرًا ... والروس في خرافاتهم يسندون الى جميع ابطالهم صفات الحكمة السحرية! ذلك أن فكرة السبرمان تتصل أقوى الاتصال بفكرة المعرفة المجهولة، وانتظار السبرمان هو في الواقع انتظار وحي جديد او معرفة جديدة بمجهولة

ولكن فكرة السبرمان عند الناس في هذا العصر الاخير تتصل اكبر الاتصال بفكرة التطور البيولوجي ، اعني بفكرة تطور الانسان كنوع ، والغريب أن هذا الرأي يهدم فكرة السبرمان من الاساس ، أما اولاً فلخطأ فكرة تطور النوع وارتقائه ، وأما ثانياً فلأن السبرمان بموجب هذا الرأي من التطور ، ينطوي على فكرة من النظام والقانون ، اعني فكرة انتهاء عملية التطور النظامية الى نتيجة نظامية هي الاخرى، وهي ظهور السبرمان بينما أن جوهر السبرمان هو هذا الشيء الذي فيه مما لا يتسق مع نظام ولا مع قانون ، وانما هو شيء جري متفحم لا يعرف نظاماً ولا قانوناً

وقد أشار نيتشه الى هذا بقوله على لسان « زاراتسترا » : —

« انا اريد أن اعلم الناس معنى وجودهم ، ذلك المعنى هو السبرمان — هو ابراق

تلك الغيوم القائمة »

يفهم من هذا أن نيتشه لم يكن يفهم السبرمان على أنه نتيجة تطور بيولوجي ، والصور في مثله جليلة ، فالبرق ليس تطوراً للغيوم القائمة ...

وتلك الصفة من الخروج على النظام والقانون جعل الناس يتصورون السبرمان كسيارة تندفع بسرعة بين الناس فتصدمهم في كل الجهات ، واصبحت فكرة السبرمان تمثل القسوة والبغض والاثرة وما الى ذلك ، وصار اسم نيتشه قرن ذلك القانون الاخلاقي القاسي ، ولكن ليس الذنب في ذلك لنيتشه ، بل الحق أنه لم يوجد من قرن فلسفة السبرمان بمبدأ خلقي صحيح من الحب مثل نيتشه

ان كل ما فعله نيتشه هو أنه قال بهدم قوانين الماضي الاخلاقية التي أصبحت غير اخلاقية اليوم ..، وثار على تلك الاثواب « الجاهزة » من الاخلاق التي تعتبر واجبات مفروضة على كل الناس عني السواء نظرياً ، ولكنها اثواب تمزق كل يوم بأيدي الناس عملياً والناس يعتبرون تلك القسوة في فكرة نيتشه للسبرمان كاساس لتعاليمه في معاملة الناس بعضهم لبعض ، وهذا خطأ في فهم نيتشه

ان نيتشه يبحث الانسان على القسوة في معاملة كل منزع ضعيف من منازع النفس الداخلية هو يريد نفوساً قوية خالية من الضعف والفساد ، وهذه لا يرجى لها وجود إلا

من طريق قسوة الانسان في كبت منازعه البشرية ، فما شأن معاملة الناس بعضهم لبعض بالقسوة المرهقة ؟ واصنع الى ما يقوله « زاراتسترا » : —

لما نزل « زاراتسترا » من الجبل لم يقابل احداً في الطريق ، فلما دخل الغابة انتصب امامه فجأة رجل عجوز وخاطبه بقوله : —

ليس هذا الرجل المتجول بالرجل الغريب عني — لقد مررت عليّ منذ سنوات كثيرة مضت — وكان اسمه زاراتسترا ، وهو قد تغير الآن
انك تحمل رمادك الى الجبال ، فهلا تحمل نارك الى الوديان ؟ وهلا تخشى حكم المحرقة ؟
اجل اني أعرف زاراتستر ذا العينين الزرقاوين ...
فاجابه زاراتستر : —

اني انا احب الناس

والناس بعد كل هذا أساءوا فهم يتشبه ونسبوا اليه روح القسوة والحرية التي سادت المانيا ، فما علة هذا الخلط في فهم يتشبه ؟

علة ذلك أن يتشبه نفسه اساء فهم حقيقة المسيحية ، لانه درسها علي ريتان الذي اعتبرها دين الضعف والخور ، ثم ثار عليها جاهلاً في ذلك انه يشور على أجمل مظهر من مظاهر فكرة السبرمان في العالم كله

ان ميزة السبرمان البارزة هي القوة ، وفكرة القوة تقترن عادة في ذهن الناس بفكرة تلك « الروح الشريرة الخفية الميالة الى القسوة » ، وهؤلاء الناس لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا حقيقة معنى القسوة المتعلقة بفكرة السبرمان

وفكرة الشر في ذهن الناس هي لون من ألوان آرائهم المغلوطة ، وهذه الآراء تتلبس أشكال ما تنطوي عليه تلك الاذهان البليدة من خيالات ورموز كاذبة ، ففي أذهان الناس مسيح كاذب ، وعلم كاذب ، ودين كاذب ، وغير ذلك ، لان سوء الفهم عند الناس قين بخلق شيء كاذب من كل شيء آخر صحيح

وعلى هذا القياس شاء الناس أن يقرنوا فكرة السبرمان بسجاياء القسوة والبغض

فاذا بحثنا هذه التهمة بحثاً علمياً صحيحاً وجدناها تهمة كاذبة

وحتى نستطيع أن نفهم فكرة السبرمان حق الفهم ، يجب أن نبحث في مبدأ الامر تلك الصفات الانسانية التي لا تتلائم وما تتطلب عملية السبرمان من صفات وسجاياء ان الدور الذي لعبه ييلاطس البنطي في تاريخ السيد المسيح يمثل لنا نموذج الانسان النطوي على السجاياء المتنافرة اشد التنافر وما يتطلبه صنع السبرمان من صفات

كان يلاطس يفهم السيد المسيح بعقل روماني ويرى انه كان فيلسوفاً سليم التفكير لا يستحق الموت ، ولكن الحاح اليهود في صلبه جعل موقف يلاطس ما بين المؤثرات الخارجية ومنازع نفسه الداخلية موقفاً حرجاً حقاً

اشتد النضال والاحتراب ما بين نزوع قوة نفس يلاطس الداخلية الى الحقيقة ، وبين المؤثرات الاخرى الخارجية التي تميل بالنفس الى انكار الحقيقة ، ثم انتهى ذلك الى خضوع يلاطس واستسلامه لقوة المؤثرات الخارجية

هو سخر بالحقيقة وتهكم عليها بمجمله إياها شيئاً نسيباً ، ثم غسل يديه بالماء وقال « اني برئت من دم ذلك البار » . وما أكثر ما يلجأ الناس الى التخدير والى الرموز كلما نزع نفوسهم الى الحقيقة ثم جبنوا عن السير معها الى نهاية الشوط

امثال يلاطس كثيرون بين الناس ، وسجايها هؤلاء الناس هي اكبر عثرة في سبيل السبرمان ، ان النماء الحق ، والتطور الصحيح نحو السبرمان هو في التساوق التام في نماء العقل والشعور والارادة نماءً متسقاً حقاً

وشخصية أخرى في تاريخ السيد المسيح تمثل ناحية أخرى من نواحي صفات الناس المعاكسة مع تطور السبرمان — تلك الشخصية هي يهوذا الاسخريوطي . فانه لم يفهم حكمة السيد المسيح ولم يقدر على فتح عينيه في نور تلك التعاليم السامية فسعى الى قتل صاحبها نجد في تينك الشخصيتين احتراباً ما بين مؤثرات خارجية وبين منازع داخلية ، ونجد ان احتراب يلاطس يقوم على العلم والمعرفة ، واحتراب يهوذا يقوم على الجهل والغباء ، ولكن نهاية احتراب العوامل في الشخصيتين كانت نهاية واحدة ، فكلا الرجلين لم يسع لاجتاد وحدة من الائتلاف والتساوق ما بين المؤثرات الخارجية والاخرى الداخلية ، وانما كلاهما سلم وخضع

ان جوهر معنى تطور الانسان وارتقائه هو في تلك الوحدة الداخلية ، وما لم يفز المرء بها لا يمكنه أن يحصل على « انا » أعني على الارادة

ومعظم أعمال الناس تثيرها عوامل اضطرابية لا اختيار للناس فيها ، فالمرء ينقاد لكل عامل خارجي يؤثر عليه حتى اذا ذهبت قوة ذلك العامل أو نافستها قوى عوامل أخرى أشد منها ، انقاد الانسان الى هذه المؤثرات الجديدة وهكذا دواليك ، وعلى ذلك فحياة الناس سلسلة من التغيير والتبديل المتعارضة لا وحدة فيها ولا ائتلاف و « انا » في الانسان أو هي الارادة ، تتلبس مختلف الاشكال والالوان بدون انقطاع ، ومن هنا كانت الارادة في الانسان لا يمكن أن تعرف بأكثر من أنها نتيجة الميول المتعارفة

الابداع في التفكير

منوال التقدم العلمي

يحدث التقدم العلمي باحد منوالين ، فإما ان تهذب الفروع العلمية تهذيباً متواصلاً وتتقد النتائج العلمية نقداً مستمراً فترجع الفروع الى اصولها الصحيحة وتسند النتائج الى مقدماتها ، او تؤخذ هذه المقدمات ذاتها وتلك الاصول نفسها بالنقد والتحليل فتعدل او تلغى وتستبدل باصول ومقدمات جديدة تنفرع منها نتائج جديدة تشمل ، فيما تشمل ، النتائج السالفة للمقدمات السالفة وتتعداها الى حقائق جديدة لم تستطع المقدمات العتيقة ان تحيط بها المنوال الأول للتقدم العلمي يقع في استخراج الاستنتاجات العلمية وتهذيبها وصلها وتنظيمها . فهو يفترض اوليات ثابتة لا يجيد عنها ويستخلص منها كل ما يستطيع الى استخلاصه سبيلاً . فاذا جابهته حقيقة علمية جديدة فسرعان ما يحاول اسنادها الى الأوليات المفروضة حتى تظهر وهي في مركزها المنطقي من النظام العلمي القائم

أمّا المنوال الثاني للتقدم العلمي فيقع في نقد الأسس الأولية التي يقوم عليها العلم وادخال التعديل اللائق عليها . وقد يتناول هذا التعديل شؤوناً جوهرية بحيث تصبح النظرة العلمية الجديدة وهي تختلف جداً الاختلاف عن النظرة العلمية السابقة

المنوال الأول يتناول النتائج التي ترتب على اوليات علمية معينة اما الثاني فيتناول هذه الاوليات ويدخل عليها التعديلات التي تقتضيها الحقائق العلمية الجديدة . ويتعاون هذين المنوالين وانسجامهما يحصل التقدم العلمي العام

وقد ينقسم عصر من العصور العلمية بالنشاط الشديد في تطبيق احد هذين المنوالين وبلية عصر جديد يتخذ المنوال الآخر نبراساً لتوليده العلمي . فالقرن السابع عشر للميلاد مثلاً شاد هيكلًا فخماً من الاوليات العلمية الجديدة فطبّق بذلك المنوال الثاني للتوليد العلمي . وتلاه قرنان — الثامن عشر والناسع عشر — جداً في تطبيق المنوال الاول فافترضوا صحة التراث العلمي الذي خلفه القرن السابع عشر واستنتجوا كل ما تضمنه ذاك التراث من الحقائق المنطقية

ونحن الآن في القرن العشرين في بداية نوبة جديدة من الابداع العلمي تتناول

الاصول التي وضعها القرن السابع عشر وتوسع فيها القرنان الثامن والتاسع عشر . فالعلم في القرن العشرين يطبق المنوال الثاني للتقدم العلمي فيتناول النظام النيوتوني للطبيعة بالنقد لا من حيث استنتاجاته بل من حيث اصوله . فقد صار للعالم العلمي نيف وقرنان وهو مسالم بصحة مباديء نيوتن . اما الآن فقد شرع العلم يشكك حتى في صحة هذه المبادئ ويجسُنُ بنا ان نشير الى كل من منوالَي التوليد العلمي بلفظٍ خاص فترمز الى المنوال الاول للتقدم العلمي بلفظة « المنوال الفرعي » . والى المنوال الثاني بلفظة « المنوال الاصلي » . فيكون المنوال الفرعي ما يأخذ فروع العلم بالنقد والتحليل . والمنوال الاصلي ما يبدع في الاصول العلمية نفسها . والغرض من هذا المقال ان تفهم ماهية كل من هذين المنوالين وان نوضح فعلهما وان نبحت كيفية نشوءهما وتفاعلهما

وقد يكون القارئ لاحظ اننا استعملنا لفظي « التقدم » و « التوليد » بنفس المعنى ، وهذا يفضح منا عقيدة نؤمن بها وهي ان التوليد الحقيقي في اي شأن من شئون الحياة لابد وان يكون تقدماً كذلك . اما التوليد الاعمى المبعثر لقواء من غير انتظام ولا قصد فما هو الا فوضى في التفكير لا يستأهل صفة التوليد . ولذا فانا نقول ان كل تقدم يتضمن توليداً وكل توليد يؤول الى تقدم

الشورة العلمية وظروفها

وبهذا التوضيح تتقدم الآن الى التساؤل الآتي : متى تحدث ثورة علمية ؟ متى يتطرق النقد والتشكيك الى قدس اقداس العلم ، اي الى اولياته المنطقية ؟ متى يقع الابداع العلمي في اصول العلم وفي جوهره وفي نظريته الى معنى الحقيقة الواقعية ؟ متى يؤخذ النظام العلمي الشائع بالنقد والتحويل لا من حيث فروعه واستنتاجاته بل من حيث صحة افتراضاته نفسها ؟ يحدث ذلك في ظروف اربعة خاصة يكفي اي واحد منها لتحقيقه . والظرف الاول هو تلك الحال الطبيعية التي ينتهي اليها العلم القائم عاجلاً ام آجلاً اعني حال استنزافه البطيء لكل قطرة من دمه وحياته . ينشأ النظام العلمي على اساس من المبادئ الاولى في الظاهر وطيد فيؤمل منشؤه براءة واخلاص وعقيدة راسخة ان فيه بزور التخليد والبقاء ، وانه ان تتمكن ايدي الزمان المقبل من النيل منه . ولكن اية مجموعة من المبادئ الاولى علمية كانت ام فلسفية ام دينية ام اجتماعية ، تتضمن عدداً جديداً محدوداً من الاستنتاجات التي تستقيم ومعناها المشترك ، فاذا لم يستنفد هذا العدد من التضمينات ، اي اذا لم يكشف عنه العقل البشري ، في جيل واحد او قرن واحد او اية برهة محدودة من الزمن ، فهو

لا بد مستنفده يوماً من الأيام، وهو لا بد آت على آخر إنتاج منه . ومتى اقترب هذا الوقت ، متى شرع العلماء يطمسون النظام القائم فلا يمتط ويداعبونه فلا يستجيب ، متى أصبحت الحقائق المكتشفة الحديثة نافرة شاذة في النظام القائم تزيد تعقداً ويستعصى بعضها الانضواء تحت لوائه ، عندئذ يتنبه العلماء الى ان المشكلة اعظم من مجرد السعي لإدخال الحقائق الحديثة في صلب النظام القائم ، واشد استعجالاً من صعوبة إيجاد متضمنات جديدة ، ويشرعون يشكون ان العلة تقع في جذب النظام القائم وقحطه واستنزافه كل ما تضمن يوماً من الحُصْب والإنتاج . وهكذا يحاول العلماء تخطي المبادئ القاصرة العتيقة وخلق مبادئ اولية جديدة تصبح بداية نوبة جديدة من التوليد العلمي . وتأتي هذه النوبة على نهايتها المحتومة متى حلَّ ظرف من الظروف الاربعة التي يحدث فيها المنوال الاصلي للتوليد العلمي

هذا هو المصير الذي يلحق بكل نظام علمي او فلسفي او عاطفي على الاطلاق مهما ظهر في بادى الامر منيعاً . وسرُّ الحكمة في الحياة هو الاقرار بحتمية وقوع هذا المصير والاستعداد الداخلي لالتجيلة من غير ماداع ، بل لاستقباله متى حلَّ ولتوطيد النفس على الاعتراف به ولتنسيق الحياة من جديد على اساسات تتلاءم ومقتضيات النظام الجديد . وسرُّ العبادة في الحياة هو التمسك الاعمى بنظام علمي او ثقافي او ديني استنفد جميع قيمه وانتاجاته واصبح مجدداً بالياً . ولكن لو لم تكن العبادة متفشية في الحياة لما قام نظام جديد على انقاض نظام قديم ولا سمحت بعر الكالانظمة وقهر ما كان منها غصفاً فتيماً لما شاخ وتصلب وجمد والظرف الثاني الذي يشجع المنوال الاصلي للتوليد العلمي هو قيام طريقة جديدة للبحث العلمي . فطريقة الاستنتاج والبحث لا تقلُّ شأنًا في التأثير في الحقائق المستنتجة من المبادئ الاولى التي تقوم عليها هذه الحقائق . قد تبدأ عمليتين ذهنتين بنفس الافتراضات ولكنك تتوصل في نهاية العمليتين الى حقائق متباينة ، والعلة في هذا التباين لا يمكن ان تعزى الى اختلاف في الاساسات المنطقية ، لان هذ الاساسات واحدة في كتا الحاليين ، بل هي تقوم على ان الطريقة العملية للبحث في الحال الواحدة غيرها في الحال الاخرى . وعلى ذلك فطريقة البحث تميّن النتائج التي تترتب على اوليات خصوصية كما تميّن هذه الاوليات وهنا يخطر سؤال هام وهو هل للبحث اكثر من طريقة واحدة حتى يمكن ان تتضارب نتائجها ؟ اجل ان للبحث عدة طرق غير متعادلة من حيث قدرتها العلمية في الكشف عن الحقيقة الواقعية . خذ مثلاً القرون الوسطى فهي امتازت بطريقة البحث الخالص المجرد عن الخبرة والمشاهدة . والقرون الثلاثة الاخيرة امتازت بتطبيقها الخبرة المباشرة على كل ما

نعم حقيقة علمية. كذلك في العلوم الطبيعية ، فقد كانت الغاية المثلى للتعليل الطبيعي الى زمن قريب ان يتمكن العالم من صوغ ما يصفه في نموذج آلي ميكانيكي بحيث اذا تحصل على ذلك فقد ادى به واجب التعليل كاملاً . اما الآن فلا يكتفى قط بهذه الصيغة الالية اذ اصبحت الغاية المثلى للتعليل الطبيعي ان يضع العالم ما يبحثه في قالب رياضي بصرف النظر عن امكان صوغه في قالب آلي . كذلك الامر في العلوم الاجتماعية ، فانت اذا تصفحت التاليف الاجتماعية الحديثة فيها وتكرز على طريقة غير الطريقة المتبعة في التاليف القديمة ، اذ هذه تفلسف دون ان تسند تفلسفها الى تجارب عملية تطبقها على الاجتماع ، بينما الابحاث الحديثة تجرص الحرص كله على ان يكون ما تصرح به مسنداً اسناداً مباشراً الى تجارب عملية . ولذا فان العلوم الاجتماعية الحديثة تقول انها تعرف النزر القليل من المادة الاجتماعية الضخمة لان عملية التجربة والتطبيق التي لا تعرف العلوم الحديثة الى حقيقة بسواها ، صعبة جداً في النظم الاجتماعية ، بينما العلوم الاجتماعية القديمة كتاليف سبنسر مثلاً ، تدعي انها حلت الغاز الاجتماع وعرفت كل ما يعرف عنها ، وذلك لان طريقة من السهولة بحيث لا تتطلب الا كاتباً يقبع في حجرته ويخلق الحقيقة الاجتماعية خلقاً . وهذا التجديد في طرق البحث لم يتورع عن ان يمس الدين اذ اصبحت الدين الآن (اعني في الغرب) عرضة للنقد والبحث كأي فرع آخر من فروع الحياة . ولكن هذه الروح المتمردة لم تتطرق بعد ، الى الثقافة الشرقية ، او قل هي تتطرق ولكن بقدر غير كاف .

ومتي تناولت نظاماً علمياً او اجتماعياً او دينياً واستبدلت طريقة البحث المتبعة فيه — اي نوع المنطق الذي يبرر اعتباره حقيقة واقعية — بطريقة مستحدثة ، اقول متى سمحت لنفسك ان تفعل ذلك فانك تجد ان نظرة النظام كلها تغيرت وان لون الحقيقة الجديدة يختلف جداً عن لون الحقيقة السالفة بحيث لا يمكنك ان تبقي على اليات النظام السالف بل يجب ان تساطع معول الهدم عليها وتعقبه بريشة البناء التي تستمد تأييدها من الطريقة الجديدة . وهكذا يتطرق الابداع الى اساس النظام القديم ويحصل معنا ما اسميناه « المتوال الاصلي » لتوليد العلمي

والظرف الثالث الذي يترعرع فيه هذا الضرب من التوليد هو احتكاك الثقافات المتباينة فكل ثقافة هي نظرة للحياة والحقيقة ، مغلفة على نفسها ، مكتفية بقيمتها وثمارها ، مستقلة عن سواها من النظرات . ولكن ليقرب عدد من هذه النظرات بمضئ من بعض ولتوافر لديه اسباب الاحتكاك والتلاصق وسرعان ما ينتجم عن ذلك توليد رائع من الطرق والقيم ، فتمضي كل ثقافة نفسها لأول مرة وتعني كذلك قيمتها بالنسبة للثقافات الجديدة التي احتكت

بها وتطفق تنقد نفسها بقصد تقويم ما اعوجَّ منها واصلاح ما فسد من شؤونها حتى تنهض وتنفوز في العراك الثقافي الصارم. وارل ما ينجم عن هذا الاحتكاك هو الوعي الحاد للاساسات التي يتربع فيها النظام القائم، ومتى وعى الانسان شيئاً، خصوصاً متى وعاه بالمقابلة مع غيره من الاشياء، فانك تستطيع ان تثق كل الثقة ان ذاك الشيء لا بدَّ متغير

هذا ما حدث فعلاً في التاريخ عندما احتكت الثقافات بعضها ببعض. فاحتكاك العرب بالفرس انتج توليداً جديداً في التفكير والحياة، واحتكاك النظرة الاغريقية بالنظرة الرومانية انتج كذلك ابداعاً جديداً، وهكذا قل في اي احتكاك بين اي عدد من الثقافات. فالاحتكاك بين النظم والنظرات كفيل بانتاج « المتوال الاصيل » للتوليد العلمي

والظرف الرابع والاخير الذي زعمنا انه كاف بمجد ذاته للتوليد في اساسات العلم ومقدّماته هو العبقرية العلمية. قلنا ان كل نظام، علمياً كان ام اجتماعياً ام دينياً، محدود باصوله وفروعه لا بدَّ ان يستنزف مع الزمن كل ما يضمّر من قيم وهان. وقلنا انه يتنبه لنفسه ويتطور اذا احتك بغيره من النظم او اذا غيّر منطقته في تسويغ وجوده، وفي جميع هذه الحالات نلاحظ ان الابداع والتطور يأتيان ببطء ويتوقفان على شيء من الصدفة وعلى عوامل خارجية قد تضرعها او تبطلها او توقفها. ولكن يظهر احياناً عبقرى يجمع بين جميع هذه العوامل فلا يصبر على الزمن حتى يفعل فعله المحتوم في النظام القائم بل يستبقه هو الى هذا الفعل. ولا ينتظر التنبيه الناجم عن احتكاك النظام الشائع بالنظم القائمة بغيره، اذ هو بنفسه واع كل الوعي لقيمة هذا النظام النسبية، ولا يزن النظام بمياره المنطقي الخاص بل يستعمل لهذا الغرض معياراً اشمل واعم واعوص بحيث يظهر منطق النظام وهو حال خصوصية من منطق كوني عام — اقول يظهر احياناً فرد هذه رسالته للحياة، فيؤديها على خير منوال وترسم بذلك العبقرية بحروف من نار على جبين الدهر هذه كانت وظيفة نيوتن في زمنه وهذه وظيفة اينشتين وبلانك في زمننا الحاضر.

فهؤلاء اخترقوا ببصيرتهم الحادة النظام العلمي القائم والقوة محدوداً باسسه وافتراضاته الاولى وادخلوا ما ابدعت عبقرتهم من التعديلات والنظرات الجديدة على هذه الافتراضات. وليست العبقرية وفقاً على العلم وكفى، بل هي مشاع لجميع نواحي الحياة. فانت تجد العبقرى كذلك في الدين وفي الاجتماع وفي الفلسفة وفي السياسة. وجميع مظاهر العبقرية تتميز بان العبقرى يتناول اس اساسات النظام القائم بالنقد والتشكيك ولا يبالى اذا اضطر الى قلب هذه الاساسات رأساً على عقب بل يُقدم على هذا القلب من غير تردد حتى ولو لمسي فيه حنقه. وهكذا ينشأ زرع جديد من نظم التفكير والسلوك ونحوه ويترعرع ويثمر

نمارة شهية من التوحيد في التفكير والإجادة في السلوك والتناهي في الفن والجمال . واخيراً يأتي يومه المحتوم بأحدى الطرق الأربع السالفة فيقاوم ما خبأته له سنة الكون ولكن دون جدوى فهو يهرب الى ثايان النسيان . ونحن اليوم تتمتع بحسنات نظم مختلفة كلها بزغت على هذا النحو وبعضنا يعتبر علمه او فلسفته السياسية غاية ما يمكن ان تولده الحياة والبعض الآخر يوقن ان عقيدته هي اسمى ما اولده ويستطيع ان يولده الكون ، وانه لذلك لا يمكن ان تبرز عليها عقيدة جديدة في طول الملايين من السنين التي سبقت الارض فيها آهلة بالحياة والعقل . وفي كل ذلك ننسى ان هذه النظم التي قدسها هي نفسها وليدة سنة كونية قضت عليها بان تزول يوماً من الايام في نفس اللحظة التي سمحت لها فيها بالبروز . فالوجود يضمر عدمه بين جنبيه والا اتفق كل معنى له

هذه هي الظروف الاربعة التي تسمح بالتوليد في مقدّمات العلم الاساسية . عبقرى ينتص حفنة جديدة من الحق والنور ويهبها للعالم الضال ، واحتكاك مولد بين مختلف النظم والنظرات ، وانتقال بريء من المنطق الداخلي للنظام الذي ، من مجرد كونه منطقاً داخلياً له ، يسوّغه تسويغاً تاماً ، الى منطق يانع جديد أعم وأشمل وأخصب من المنطق القديم ، ونهاية محتومة تلاحق بأيّ نظام مهما قاوم ومهما طغى . وهذه الظروف الاربعة لا تستقل في فعلها بعضها عن البعض بل هي تفاعل دائماً وتتداخل وتتساند حتى تسقط النظام القائم وتحلّ محله نظاماً جديداً فيه من أسباب الحياة والنشاط ما يجعله أليق بالنور الجديد والمعرفة الجديدة من النظام السالف

المنوال الفرعى

هذا ما يختص بالمنوال الأصلي للتوليد العلمي ، وبودّنا الآن أن نخوض قليلاً في ماهية الطراز الآخر من التوليد العلمي أعني ما أطلقنا عليه عبارة « المنوال الفرعى »

تشبيه بسيط

ولأجل تفهّم هذه الماهية على حقيقتها أريد أن أُلجأ الى تشبيه بسيط يعبر عن علاقة المنوالين احدهما بالآخر وعن طبيعة كل واحد منهما تعبيراً لا بأس به . تصوّر قطاراً حديدياً يبدأ سيره من محطة مركزية ، فاذا رغبت في معرفة المحلّ الذي يشغله القطار في لحظة معينة يجب أن تعرف : (١) الخط الذي وضع عليه في بداية سيره (٢) السرعة التي يسير بها . ومتى عينت هذين الامرين عرفت أين يوجد القطار في أية لحظة تختارها . أما اذا عرفت واحدة وكنت تجهل الاخرى فلا تستطيع أن تعين مكان القطار بالضبط بل بإمكانك

أن تعين سلسلة من الامكانات كل واحد منها ينطبق على الحقيقة الفردية التي تعرفها . فمثلاً ، لو عرفت سرعة القطار فقط لما أمكنك أن تقول الا أنه في اللحظة كذا موجود على بعد كذا عن المحطة دون أن تعين المكان الذي وصل اليه . وهناك عدة أمكنة تتفق جميعها في أنها تبعد هذه المسافة عن المحطة وقد يكون القطار في أي واحد منها تبعاً للخط الذي بدأ عليه سيره . كذلك اذا عرفت الخط الذي وضع عليه القطار وكنت جاهلاً سرعته لن تتمكن من تعيين مركزه بالضبط بل جل مايا مكانك قوله أن القطار ملازم هذا الخط وأنه موجود هذه اللحظة في نقطة من نقطه . أمّا أين هذه النقطة بالضبط فلا يسعك ان تقول . وهكذا فان معرفتنا للخط الذي وضع عليه القطار في بدء رحلته تعين معنا اتجاه مسيره ، ومعرفتنا للسرعة التي يسير بها تعين بعده عن المحطة الاصلية . وكلا المعرفتين لازمة لتعيين مركز القطار تعييناً كاملاً في هذا المثل البسيط نشبه المنوال الاصلي للتوليد العلمي بالخط الذي وضع عليه القطار ، أو بالأحرى بعملية وضعه الأولية . والمنوال الفرعي بالسرعة التي يسير بها . فلدنا نظام قائم نود أن ندفعه في طريق الرقي المستمر . هذا النظام شبيه بالقطار في مثلنا . ونستطيع أن ندخل عليه أية كمية وأي لون من التحويل والابداع في أسسه ، كما اننا نستطيع أن نضع القطار على أي خط من الخطوط المعروفة أمامنا . ومتى أجرينا الابداع اللائق في أسسه المنطقية نستطيع ان ندفع به في تيار التطور الدائم بأن نستخلص بدقة جميع ما يتضمنه الابداع الجديد من النتائج المنطقية . وكذلك في مثل القطار نستطيع ان نسيره ، بعد أن نختار له خط السير ونضعه عليه بأية سرعة مرغوبة

وكما أنه يتحتم على القطار ، بعد أن يُعيّن خط سيره ، أن يسير على خط واحد لا حيدة عنه البتة كذلك المنوال الفرعي للتوليد العلمي يكون سلسلة فذة واحدة من الاستنتاجات المنطقية تضمنها جميعها المقدمات الجديدة التي أنتجها الابداع الجديد . فأنت اذا سلّمت بالمقدمات الجديدة وجب حتماً أن تسلم كذلك بالاستنتاجات التي تتولد منها . ومتى اتخذت المقدمات الجديدة أساساً لنظرة كونية جديدة فإن عملية استخلاص نتائجها ليست بالعملية المستحيلة إذ هي لا تطلب الا قدراً كافياً من الجهد والنشاط ومعرفة الاساليب المنطقية للتعليل والاستنتاج يتكلمون عن القضاء والقدر والحتمية في السلوك ، ولكن ليس ثمة قضاء وقدر أشد حتمية من القضاء والقدر في النظم الفكرية . عاش العالم نحو ألفي سنة على ثمار النظام الفكري الذي ابتدعه ارسطو فعند ما وضع ارسطو قطار الرقي الفكري في بداية معينة وعلى خط من السير معين ، أي عند ما سنّ أوليات نظره الكونية ، اتخذ الرقي الفكري اتجاهاً معيناً لم يحد عنه مدة ألفي سنة . وعند ما تمخضت الحركة العلمية الحديثة عن النظام النيوتوني طفق العلم في القرون

الثلاثة السالفة يستخلص كل ما يتضمنه هذا النظام الجديد من الحقائق . والآ ن يقوم في يومنا هذا اينشتين وغيره من العلماء فيؤسس مقدمات علمية جديدة شرع العلم مؤخرآ في استخلاص ما تمكنه من المتضمنات . وفي كل من هذه الرحلات الفكرية الثلاث قامت حتمية ما بعدها حتمية إذ ان مقدمات كل واحدة منها تضمنت استنتاجات حتمية لا تستقيم الا مع هذه المقدمات وإذن فالتواليان يختلفان في جوهر علميتهما ، اذ في المتوال الاصيلي يكون العالم حرآ مبتكرآ اما في المتوال الفرعي فيكون عبداً مقيداً . في المتوال الاصيلي يمثل العالم دور فنان خالق ، بينما هو في المتوال الفرعي آلة ميكانيكية . وهكذا يجمع العلم بين الفن والآلية

صيرّة العالم المولود وقبورده

عندما يعتزم العالم ان يولد في فروض العلم الاساسية فانه غير مقيد إلا بضرورة خلق اسس جديدة تتضمن ، فيما تتضمنه ، الحقائق المكتشفة الجديدة . وعملية الخلق هذه عملية محض فنية ، إذ لدى العالم عدد لا نهائي من الامكانيات التي يستطيع ان يختار منها الامكان الذي ينسجم وطبيعته الفنية . وفي هذا الاختيار هو حرّ طليق يخلق ما يختاره خلقاً . فكما ان الفنان لديه ادوات يعالج بها المادة للتعبير عما يحيش في وجدانه من الشعور هكذا العالم المولود على المتوال الاصيلي يجد نفسه تلقاء حقائق جديدة نافرة في حدود النظام القديم فينسجها في نظام جديد من صنع يديه وإجاء روحه . وهذه الحقائق لا تنسجم في نظام واحد فذّ بل انها تتسق في عدة نظم لامتناهية العدد ، وجميع هذه النظم سواسية من حيث قيمتها المنطقية ، والعالم الذي يختار منها واحداً لا يختاره لانه هو النظام الاوحد الذي يعمل المظاهر الجديدة بل لجرد ان نفسه تعي ذاك النظام وتطمئن اليه . خذ مثلاً النظام الاينشتيني الحاضر فهو تعليل موفق لمظاهر جديدة ظهرت نافرة في النظام النيوتوني ، ولكنه على نجاحه الباهر في هذا التعليل لا يمكن بحال من الاحوال ان يكون النظام الفردي الذي لا تعلل الظواهر الجديدة الا به ، بل في تسايا الفكر البشري نظم عديدة كلها تتجح نجاحه في هذا التعليل ، والبرهان القاطع على ذلك هو انه سيأتي يوم يزول فيه نظام اينشتين لاكتشاف حقائق جديدة تتنافر معه وسيحل محله نظام آخر اصح منه لتعليل الحقائق الحاضرة والحقائق التي سيكشف عنها البحث العلمي المقبل . وبما ان هذا النظام الاي معلل لجميع الحقائق الحاضرة فهو صالح على الاقل صلاحية نظام اينشتين في تعليلها . وهكذا ترى ان ثمة نظاماً غير نظام اينشتين يعمل جميع ما وفق نظام اينشتين الى تعليله ، والسبب في ظهور نظام اينشتين وعدم ظهور هذا النظام الاخر هو ان في الارض الا ان اينشتين واحد ، ومتى ظهر خليفة اينشتين فسيبرز لاحالة نظامه الجديد .



توماس كارليل من صورة زيتية صوّرها « وِسْلر »

ونستطيع أن نقول الشيء نفسه في هذا النظام الجديد بالنسبة لما سيعقبه هو من انظمة ناسخة له . وهكذا ترى أن أي نظام علمي يمثل لاية مجموعة من الحقائق ليس سوى نظام واحد من عدد من النظم لاحد له . والسر في ظهور احد هذه الانظمة دون سواء هو وجود عبقرى صادف أن لاءم هذا النظام روحه الفنية . فالعقري العلمي كالفنان الذي يقع اختياره على انتاج في فرد مع أن مادته يمكن أن تنتظم في ملايين الانتاجات الفنية

والامر نقيض ذلك في حال العالم المولّد على المنوال الفرعي ، فهذا مقيد بالاصول المنطقية التي اسسها العالم المولد على المنوال الاصلي . تعرض عليه مجموعة معينة من الاسس العلمية ويطلب اليه ، او بالاحرى يطلب هو من نفسه ، ان يستخرج مضمناها . ولعملية الاستخراج هذه جادة واحدة فقط هي الاسلوب المنطقي بقواعده المنطقية المعروفة والعالم مضطر الى سلوكها اضطراراً والا لما استخرج شيئاً

اذا سلمت بالاسس التي ركزها نيوتن في التربة الفكرية وشرعت تستخلص كل ما يرتب على هذه الاسس من النتائج المنطقية المحتومة فانك تسلك في ذلك سبيلاً واحداً لا حيدة لك عنه ، هو السيل المنطقي القدرى . وفي سلوكك هذا ترى فكرك يشب من مركز الى آخر لا أنك حرّ سيد في هذه الحركة بل لأن المركز الواحد يؤدي حتماً الى المركز الآخر ، فشأنك في هذا شأن القطار الذي تضعه على خط معين فيجري عليه الى نهايته . واذا كان في هذه الظاهرة شيء من الحرية فهي فقط امكان اختيارك السرعة التي تتقدم بها نحو استنفاد ما تكنه الاسس من المتضمنات . فقد يظهر عالم يدفع المعرفة خطوة واحدة نحو هذا الهدف ، وقد يخلفه آخر يدفعها خطوات أو يوصلها اليه ، كما حدث أو كاد يحدث مع العالم مكسول بشأن النظام النيوتوني لهذا كله قد يكون أقرب الى الصواب الا تعتبر المنوالين متساويين من حيث التوليد الفكري المطلق ، بل أن يميز الصفة التوليدية الفنية في المنوال الاصلي عن الصفة الالية القدرية في المنوال الفرعي . وهكذا فإن التوليد العلمي الحقيقي يكون الخلق في اسس الفكر واولياته لا الاستنتاج المنطقي الا لي للحقائق التي تنجم عن هذه الاسس

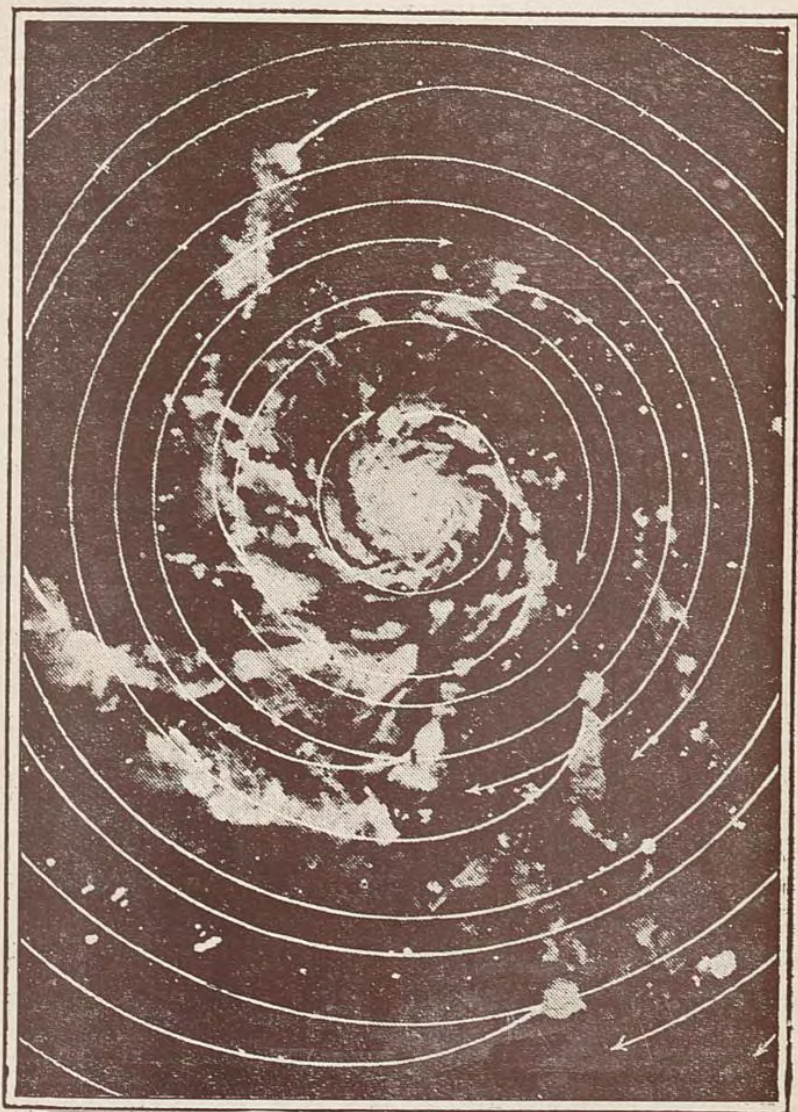
رتع في الفكر البشري حركتان مستقلتان ، الواحدة للخلق والاخرى للاستنتاج ، والتقدم العلمي العام اثر لتناوب هاتين الحركتين ولتعاونهما . وحركة الخلق لا تتكامل الا بما تفتتح عنه من معانٍ وقيم . كما أن حركة الاستنتاج لا تستقيم الا بما تثبت فيه من اصول ومقدمات . والحرّ الحرّ من تكون نفسه متمردة على الدوام ، غير مطمئة الى أي نظام ، مشككة في كل كمال ، تواقه الى الاندماج في حركة الالهة الازلية ، حركة الوثوب المتواصل نحو ما هو اكمل واعم واجمل . وبربي أن الاحرار من هذا النوع جد قليلين

شارل مالك

السَّيَابَةُ الْمَغْرِبَةُ

سحابةٌ كالصَّبِّ في جوفها ما في فؤاد الصَّبِّ من وجده
 تمشي الهَوَيْنَا كالجهول الذي يسير مزهواً على لحده
 كثيبةٌ كالسَّبْدِ الذي يودُّ لو يأتي على ضده
 دجناه كالجماني ، تراءت له حفائرُ القتلى وفي قيده
 أفعى تساقيه الردى فانثنى يكسّر الصمصام في غمده
 جُبلى ولكن لم يحن وقتها جنينها حيران في مهده
 مرّت بطودٍ شامخٍ يرتقي الى عنان الجوّ في بعده
 فغاظها أن لا يبالي بها فأقسمت لا بدّ من هده
 لا بدّ أن تنزيه عن غيّه فإنه قد ضلّ عن رشده
 قد ظنّ أن المجد في رأسه لا بدّ أن تأتي على مجده
 تقدّمت منه وفي صدمة سريعة بادت على صلده
 هوت من الجوّ رذاذاً على جوانب الطود الى تجده

حسن كامل الصبر في



النظام الشمسي في مراتب نشوئه الاولى من الوف نملالين من السنين وقد نثرت
من كتلتيه الاصليه نثرات ما زالت تدور حوله وعلى نفسها حتى تقلصت
واصبحت سيارات كما ترى في الصفحة التالية

امام الصفحة ٣٠٧

مقطف نوفمبر ١٩٣١

أصل النظام الشمسي ونشوءه

المذاهب المختلفة منذ أيام لابلاس الى عصرنا

للسر جيمز جينز



المزدهبان القريم والجريير

العالم الفلكي الذي يعنى بالسما والكوكب من ناحيتها الوصفية لا يهتم الا اهتماماً غير مباشر بمسألة نشوء الارض والسيارات . فتلسكوبه لا يمكنه من معرفة شيء مباشر في هذا الصدد ، لانه اذا كان للشموس الاخرى سيارات فهي اصغر وأبعد من أن يتبينها التلسكوب . ولو أن كل شمس في السماء ولدت الآن سيارات على مثال سيارات شمسنا لما تمكنا من الشعور بما هو حادث قط

على أن المسألة ذات شأن اخاذ للعلم باوسع هانيه . فالرأي السديمي القديم الذي قال به لابلاس ، صور النجوم سداً آخذة في التقلص ، فتزداد سرعة دورانها بازدياد سرعة تقلصها . ثم تنثر من منطقتها الاستوائية حلقات من المادة ، مصير كل منها أن تصبح سيارة . وهذا الرأي ينطوي على أن تكوين السيارات هو حادث طبيعي سوي في حياة كل نجم . فانضى بانباء القرن التاسع عشر الى القول بان كل نجمة في السماء تشرق بضوئها وحرارتها على اتباع من الكواكب تدور حولها . ولما كان ضوء الشمس وحرارتها الزم ما يلزم للحياة الارضية ، فكان من الطبيعي أن نقول بان كل نجمة تراها بالتلسكوب مشغولة بارسال الضوء والحرارة لحفظ الحياة على السيارات التي تحيط بها . فاذا خطوت هذه الخطوة ، أمكنك من غير مط للاحتالات التي ينطوي عليها هذا القول ، ان تخطو خطوة أخرى فنقول بان كل نجمة انما خلقت لهذا الغرض الخاص (حفظ الحياة على سياراتها)

أما الرأي الاحداث فيحسب أن تكون السيارات بعيد عن أن يكون حادثاً طبيعياً سوباً في حياة نجمة من النجوم — بل هو حادث شاذ ونادر جداً . ويبلغ من ندرته ، أن من النجوم التي بلغت من العمر أطول ما قدر لها — ملايين الملايين من السنين — عدد ضئيل جداً يحتمل أن يكون له سيارات . واذا امتد عمرها في المستقبل الى مئات الملايين من ملايين السنين — ظل عدد ضئيل جداً منها له سيارات . وهذا الرأي ينطوي

على القول بان معظم النجوم تولد وتحيا وتموت عقيمة من دون أن تولد سيّارات — وحتى النجوم التي تولد سيّارات يكون معظمها قد تقاص وبرّد . فلا يستطيع أن يحفظ الحياة — كما نعرفها — على سيّاراته بضوئه الضئيل وحرارته الفاترة

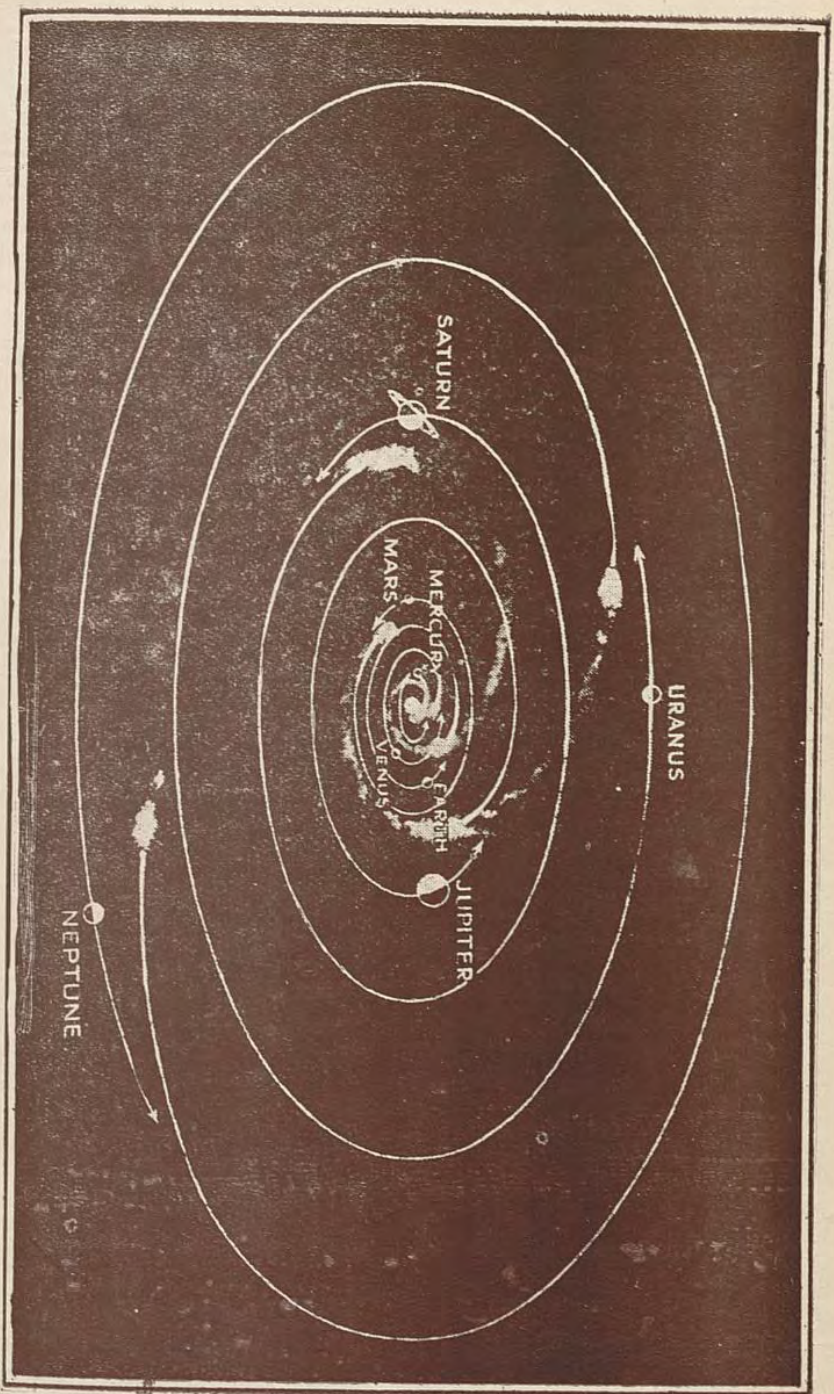
وخلاصة المذهب القديم ، أننا نستطيع بشيء من الخيال أن نتصور الكون بعج بالحياة . وأما الرأي الحديث فيصور الكون ماضياً في طريقه ، فيحدث هنا أو هناك ، في زوايا منبوذة لا شأن لها ، وفي فترات بعيدة ، حادث فجائي غريب ينجم عنه أن الحياة تبرز صدفةً الى الوجود . أما أية هاتين الصورتين هي الصورة الصحيحة — فمسألة لا يمكن للعلم — ولا للإنسانية — أن يتغاضيا عنها

عمر الارض والسيّارات

فلننظر أولاً الى بعض الادلة الطبيعية : يبدو للناظر العجول أن فعل الراديوم دائم . ولكننا نعلم أنه ليس أكثر دواماً من أي شيء في الطبيعة . ولكن الراديوم يفقد قوته فقدماً بطيئاً . فهو ينحلّ رويداً رويداً فإذا مضى عليه ١٦٠٠ سنة أصبحت قوته في نهايتها نصف ما كانت في بدايتها

والسبب في فقد هذه القوة معروف . ذلك أن الراديوم يتحوّل الى شيء ليس راديوماً ، فلندعُه بنفاية الراديوم . فإذا أخذت قدرًا من الراديوم الصافي تحول نصفه في أثناء ١٦٠٠ سنة من راديوم صافي الى نفاية الراديوم . واذن فقوة الراديوم قد نقصت نصفها لأن قدر الراديوم نقص نصفه

فإذا أعطينا مزيجاً من الراديوم ونفايته ، كان في الامكان أن نعلم مدى تحول الراديوم حتى أصبح له هذا القدر من النفاية . فإذا كانت النفاية نصف قدر المزيج أي أن قدرها مساوٍ لقدر الراديوم — عرفنا أن ١٦٠٠ سنة قد انقضت على انحلال الراديوم . فإذا كان ثلاثة أرباع القدر نفايةً ، علمنا ان عمل الانحلال مضى عليه ٣٢٠٠ سنة وهكذا وما يعلم عن الراديوم من هذه الناحية يعلم عن العناصر المشعة المختلفة . فقد حدّد العلماء مدى انحلالها وتحولها من شكل الى آخر . فعنصر الثوريوم يستغرق ١٦٥٠٠ مليون سنة حتى يتحول نصفه الى نفاية . وعنصر الاورانيوم يستغرق ٥٠٠ مليون سنة



وفي قشرة الارض يعثر الجيولوجيون على قدر من الاورانيوم ونفايته في صخره من الصخور . وقد ثبت أن مقدار النفاية كان في كل ما وجدوه اقل من مقدار الاورانيوم نفسه — أي أنه لم يمتز على الاورانيوم ٤٥٠٠ مليون سنة وهي المدة التي يستغرقها لتحول نصفه الى نفاية .

وبتحليل الصخور التي عثر فيها على الاورانيوم والثوريوم وجد العلماء أن عمرها (الصخور) هو نحو ١٥٠٠ مليون سنة. فإذا أضفنا المدة التي استغرقتها هذه الصخور قبلما تجمدت امكن الحصول على عمر الارض . وقد قدره اللورد رذر فوردي بأنه لا يمكن ان يزيد على ٣٤٠٠ مليون سنة . ثم اذا بحثنا في الشهب والنيازك وجدناها تؤيد ما تقدم . ففي بعض الاحيان يعجز الهواء عن حرق نيزك من النيازك فيسقط الى الارض جلوداً يحدث في سطحها غوراً كبيراً . وقد وجد أن هذا الرجم الساقط الى الارض يحتوي غالباً على عنصري الثوريوم أو الاورانيوم كل مع نفايته . ومقدار هذه النفاية يمكننا من حساب الزمن منذ تجمد هذا النيزك . هذا الزمن لا يمكن حسابه بدقة عظيمة . ولكن ليس بين الحجارة التي امتحنت ما زاد عمره على ٢٩٠٠ مليون سنة منذ تجمدها . ومعظمها من رتبة عمر صخور الارض أي نحو ١٥٠٠ سنة . فنستطيع أن نقول بوجه عام أن طول الزمن الذي انقضى على تجمد السيارات وغيرها من أعضاء النظام الشمسي لا يمكن أن يزيد عن نحو ٣٠٠٠ مليون سنة .

هذا التقدير مبني على التقدم الحديث في علم الطبيعة . ولم يكن ثمة سبيل لعلماء الفلك المتقدمين يمكنهم من الوصول اليه . ولو تمكنوا منه لما كان أفادهم شيئاً . وهو ذو خطر في نظرنا الآن ، لانا نستطيع أن نقرنه الى المعارف الفلكية الحديثة . فنحن نعرف الآن مدى التحول في الشمس والنجوم في أثناء ٣٠٠٠ مليون سنة . أن الشمس تشع من مادتها ما متوسطه ٣٦٠ ألف مليون طن في اليوم . وهذا اشعاع عظيم سريع جداً لا نستطيع تصوير صحته حتى نقابله بكتلة الشمس . ولكن هذا الاشعاع السريع في أثناء ٣٠٠٠ مليون سنة لم يؤثر تأثيراً كبيراً في كتلتها . ثم أن البحث الفلكي الحديث اثبت أن حالة الشمس الطبيعية لا تتوقف الا على كتلتها تقريباً . فالنجوم التي كتلتها من رتبة كتلة شمسنا يشبه بناءها الطبيعي بناء شمسنا . واذن فيجب أن نحسب أنه لما ولدت السيارات والنيازك كانت كتلة الشمس ما هي عليه الآن تقريباً — رغم اشعاعها العظيم — وأن بناءها الطبيعي لم يتحول بعد ذلك كثيراً .

رأي لابلاس لديفي

هذه النتيجة المبنية على ادلة قلما يُطعن فيها ، تُمددنا بمقياس نقيس به صحة المذاهب التي تعلل أصل النظام الشمسي ونشأته . فلنطبقها أولاً على أشهر هذه المذاهب ونعني الرأي السديمي الذي قال به لا بلاس . فقد ذهب لا بلاس الى أن الشمس بدأت وجودها كسديم فسيح الرقعة ممتد الى فلك أبعد السيارات — أي الى فلك بلوطو الآن . واذ تقلص هذا السديم لبرده ترك وراءه حلقات من المادة تكتشف بعدئذ وتكونت منها السيارات . واذاً فلما تكونت الارض سيّاراً كان طول قطر الشمس طول قطر فلك الارض الآن . فرى مما تقدم ان هذا الرأي لا يثبت على الامتحان الذي بسطت (أي ان الشمس لم تتغير كثيراً في مدة ثلاثة آلاف مليون سنة مضت عليها منذ تكونت الارض) . والواقع أن ثمة امتحانات أخرى معظمها من علم الفلك الدينامي امتحنت بها نظرية لا بلاس ووُجدت ناقصة

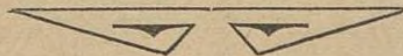
ومن المتعذر أن نبسط هنا كل المذاهب التي وُضعت لتعليل أصل الارض كلاً على حدة . ولكن لنلاحظ أن كل هذه المذاهب تقسم الى طائفتين . فالاولى تحسب ان لا شأن للأل للشمس في تكون السيارات ، والثانية أن اجساماً أخرى — عدا الشمس — كانت ذات شأن في تكوينها

ولو ان الشمس وحدها كانت العامل الفعّال في تكون النظام الشمسي ، لصعب علينا ان نفهم بآية طريقة امكنها اطلاق السيارات الخارجية البعيدة الى ابساده الحالية . ازاء ذلك نضطر أن نقول بوجود انفجارات داخلية في كتلة الشمس — او السديم الذي كانت — قذفت بالسيارات الى مواقعها . ثم انها لا تعلل لنا سرّ الشبه بين الاقمار الدائرة حول المشتري وزحل وبين نظام السيارات الدائرة حول الشمس من كل الوجوه الا من حيث الحجم . والواقع ان هذا الشبه كبير جداً ، فكل رأي لا يعمله يمكن الاغضاه عنه . وهذا الامتحان يقضي على نظرية الانفجارات الداخلية . فمن الاغراق أن تصوّر سلسلة من الانفجارات المتتالية تستطيع أن تخلق شيئاً منتظماً مثل مجموعة السيارات . ومن الاغراق في الاغراق تصوّر حدوث هذه العجيبة مرتين أخريين لخلق نظامي المشتري وزحل واذن لا يبقى لنا الا أن نقول بأن جسماً واحداً آخر على الاقل — عدا الشمس —

كان له شأن في تكوين السيارات . ففي سنة ١٧٥٠ تصوّر بوفون ان السيارات نثرت من الشمس نشرّاً على أثر اصطدام بين الشمس ومذنب . وفي سنة ١٨٨٠ قال بكرتون بنظرية

مماثلة إلا أنه أبدل المذهب بشمس . وقد تجدد القول بنظرية الاصطدام حديثاً على يد جفرز . ومع أن آراءه تحتاج الى بحث وتفحص دقيقين ، إلا أننا نستطيع أن نرى الآن كيف يمكن التوفيق بين قواعدها والشبه الكائن بين نظامي المشتري وزحل من جهة والنظام الشمسي نفسه من جهة أخرى . فلنسلم جدلاً أن اصطداماً نثرالسيارات ، واذن فقيرٌ محتمل أن يحدث اصطدامان آخران شبيهان بالاصطدام الاول يكون من أثرهما تكوين نظامي المشتري وزحل المتشابهين

واظن أني اول من عني سنة ١٩٠١ بالنظر في امكان اقتراب جسم الى كتلة الشمس فيكون السيارات بفعله المدي لا باصطداميه بها . وفي سنة ١٩٠٤ نظر الاستاذان تشمبرلين ومولتن على حدة في امكان هذا وتوسعا فيه اكثر مما كنت قد توسعت فيه انا . فقد تصوروا ، ان سلسلة من الانبعاثات الشمسية كالتي تحدث السنة الشمس المندلعة من قرصها ، قوي مدّها بفعل نجمة مجاورة ، حتى خرجت المادة المنبعثة منها من نطاق جاذبية الشمس ، وهناك تكثفت وصارت اجساماً صغيرة دعواها « السيارات المتناهية في الصغر » وبدا لي ان اعتراضات جمة تقوم ضد الرأي الذي ذهب اليه . فهو من جهة لم يعلل الشبه الكائن بين أقمار زحل والمشتري ، ونظام السيارات التي تدور حول الشمس . ثم لم يبين لنا سبباً يجعل تكون أنظمة الاقمار معقولا على الاطلاق . والواقع انني أرتاب شديد الارتياب في أن يتمكن مذهب تشمبرلين ومولتن من تعليل تكون السيارات . فنفيخات الغاز التي تصور الاستاذان تشمبرلين ومولتن انها تكثف وتصبح سيارات لا يمكن أن تكثف حتى تصبح اجساماً جامدة على الاطلاق . انها لا تستطيع أن تجمد في نطاق جو الشمس الحار ، فاذا خرجت من نطاق جو الشمس انتشرت في الفضاء كما ينتشر الغاز الواكف من انبويه في البيت . وتدل الحسابات الرياضية على ان أي جسم من الغاز ينتشر كما تقدم ، إلا اذا كانت كتلته اعظم جداً من كتل السيارات الصغيرة المزعومة . فالتجاذب بين الجزيئات في كتلة غاز وزنها من رتبة اوزان السيارات الصغيرة اصغر جداً من أن ينجم عنها تكثف مقاوم لضغط الغاز الناشئ عن حركة دقائقه [في الجزء التالي خلاصة رأي جينز]





المحرّمات الجنسية

بسط ونقد لدعاوى اصحاب الثورة

في شؤون الزواج والحب والغيرة

لا ريب أن ثمّ ما يصحّ أن ندعوه بالثورة الجنسية العالمية . فالشكّ في مُثل الجنس العليا ، وهو أولّ طلائع هذه الثورة ، والكفر بكلّ ما أحيط به الجنس من مقدّسات ومحرّمات ، وهو اقصى عناصرها ، يتفشيان وينتشران في كل قطر من أقطار المعمور . فالحبّ المطلق الذي لا يعتريه النقص ، والزواج المؤبد الذي لا يحتمل النقص ، والغيرة العمياء والعفّة والطهر المتقيان من كل زغل ، وما يلحق هذه من عواطف وفضائل واخلاق اصبحت مداراً للجدل العنيف وهدفاً للنقد القاسي . ولم يعد الناس يصدقون في هذه المسائل التي تلامس اقتدّتهم وتحرك مشاعرهم ، كلّ ما كان يُلقى اليهم بلهجة الجرم وصيغة الاطلاق . فالإيمان والتسليم اللذان كانا صبغة العصور السالفة حلّ محلّها الكفر بكلّ معتقد من معتقدات الجنس ، والرغبة في الانطلاق من كل قيد والانعتاق من كل رق او عبودية من عبوديات الجنس . ولا تقتصر هذه الثورة على الأوساط العادية — كما هو في معظم الثورات — انما هي تتحيّز لها ارقى الأوساط وتختار اذكي العقول . ومن هنا خطرُ هذه الثورة وعمق الأثر الذي لا بدّ تاركته في العمران . فالذي يسمع اسم برنارد شو وولز وبرتراند رسل وبن لندسي وماري دنكان وعشرات غيرهم من قادة الفكر العالمي في عصرنا هذا ، ويعلم أن هذه العقول في طليعة الداعين الى صدع كل قيد من قيود الجنس وتمزيق كل سجن من سجوفه ، لا يسمعه الاّ ان يفكر تفكيراً عميقاً فيما سوف يؤول اليه امر هذه الثورة وما ستفضي اليه من نتائج بعيدة أو قريبة الأثر . فهي ثورة تهزّ الحياة في امنع معاقلها والعمران من اساساته البعيدة . واذا لم يكن بناء هذه الحياة متيناً فلا ريب في انه يتصدّع ، ويقوم مقامه بناء جديد تكون هيدونية (فلسفة اللذة غرضها) اصحابها هؤلاء وغيرهم ممن يبشرون بمذهب اللذة القديم اظهر صفاته وأبرز صور

ومحور دعوتهم واهم ركن من اركانها أن معظم هذه المحرّمات ، كما يمارسها العالم المتمدن الآن ، لا يبرّرها عقل ولا تقرّها تجربة . وهم — لذلك — يدعون الى استعمال الفكر

وتحكيمة في كل مسألة من مسائل الجنس والرجوع إليه في كل طريقة من طرائقها . ولكن هل تحكيمة العقل والرجوع إليه في كل مسألة من مسائل الجنس يفرضان علينا ان نستخلص من هذه المحرمات جملة واحدة ، كما يريد نفر من اصحاب هذه الفلسفة بلغت منهم الحماسة حد الانفجار او درجة الغليان ان صح التعبير ؟ وأي عقل واي تفكير في ان نطرح في عشية وضحاها اختيار البشرية وزبدة تجاربها آلاف السنين ؟ وهل نأمن بعدها ان لا يقوم الجيل الآتي فيخترع من المحرمات ويحكم من القيود والاصفاد ما يفوق تلك في قوة الأسر وإحكام التقيد ؟

وعلى كل فلنرجع الى العقل ونحتكم اليه . ولنرَ بعدها هل يُيسر لنا هذا العقل ان نطرح دفعة واحدة كل هذه المحرمات او ان هناك عدداً منها كان في الحقيقة مطية العمران ومهراز الرقي ؟ فيما يدعو اليه قادة هذه الثورة أن نظام الزواج في حالته الراهنة يجب أن يأنى ويحل محلّه نوع من الرفقة الحرة يكون اساسها التفاهم والاستقلال الشخصي الطلق لكل من الزوجين . وذلك بان لا يتقيدا بقيد ويرتبطا برابط مما يتقيّد ويرتبط به الناس من لا يزالون مجرون على نظام الزواج الراهن . وهذا راجع في الأكثر الى ايمانهم الشديد بان غاية المرء في هذه الحياة التي يجب أن يسعى لها كل السعي هي الحصول على أكبر مقدار من اللذة . وهذا — في رأيهم — غير متيسر في نظام الزواج الحاضر ، لأن اقتراض دوام الحب بين الزوجين ثابتاً غير منقوص ، وهو ما يُبنى عليه ويستند اليه الزواج في وقتنا الحاضر ، اصبح ، في نظرهم ، خرافة من الخرافات التي لم يمدّ في اجلها الا الحين والرياء الانسانيان . ويفهم ضمناً وصراحة من كلام هؤلاء الهيدونيين ان التنازل وتربية البنين والأسرة هي في الاعتبار الثاني ، وان الغاية الأولى من التفرقة الجنسية هي ما ذكرناه من الحصول على أكبر قسط من اللذة

وعلى فرض أن غاية المرء في الحياة هي هذا الذي يبشرون به ويدعون اليه من الحصول على أكبر مقدار من اللذة . وعلى فرض أن العمران يستطيع ان يستمر ويتقدّم بدون نظام العائلة ، فهل فيما يدعون اليه ويبشرون به من حبٍ حرٍّ مطلق ما يحقق هذا الفرض ؟ والجواب القاطع على هذا السؤال ، لم يجيء بطريقتي جدلية . بل جاء على شكل فاجعة اليمية كان بطلها أحد المتحمسين لهذه الفلسفة الجديدة

أرادت ماري دنكان — وهي من اشدّ دعاة هذه الفلسفة — أن تطبق هذه النظرية على نفسها تطبيقاً فعلياً . فكانت تطرح نفسها على المعجبين بهادون قصدٍ او اعتدالٍ واضحت تنقل من حبٍّ الى حب مسرفة في ذلك اشدّ اسراف عليها تظفر بهذا الذي تنشده من سعادة

غير مكبوتة او مقيّدة . ولكن ماذا كانت النتيجة؟ لم يشفع لهذه الكتابة كل ما كان لها من جمال او نبوغ . فكان الرجل اذا ملّ عشرتها يبنذها كما يبنذ المتاع البالي . ولكنها اذ لم تزل في ميعة الصبا وطراوة الشبية لم تكن تعدّ معجيين جدداً بها . ولكن سرعان ما فقدت هذا السلاح الوحيد واضحت تلك الايدي التي كانت تُمدُّ اليها مرحبةً تدفعها بقسوة دونها كل قسوة . وقد ادركت هذه الكتابة مقدار ما جنته على نفسها بطيشها ورعونتها ، وادركت ايضاً ما قيمة أن يكون للمرأة رفيقٌ يشاطرها وتشاطره الافراح والأتراح . ويرتبط بها برباط الحب المعتدل والرفقة الصحيحة اللذين يقويهما ويثبتهما البنون - ادركت كل هذا وادركت مقدار ما خسرتها . فحاولت ان تضع حداً لحياتها المعذبة اكثر من مرة . ولكن القدر كان يأبى عليها في كل محاولة الا ان تسجّر عكاسها حتى التالة

فاذا كانت هذه عاقبة مثل هذه الكتابة التي كان لها من ذكائها وجمالها ما كان ، فاذا تكون عاقبة اللائي لا حظّ لهنّ من الذكاء ولا نصيب من الجمال ؟ والواقع الثبوت أن آلام المرأة وشقاءها في جميع العصور مشتقان من هذا الذي يدعو اليه فلاسفتنا . فهؤلاء النساء اللواتي نسمّين بالسقوط ونفسو ما نفسو عليهنّ وتنفين هذا النفي الاجتماعي المؤبد هنّ تطبيق فعلي لهذه الفلسفة الحيثية

وقد يقال أن استقلال المرأة استقلالاً اقتصادياً يفكّ عنقها ويجعلها في غنى عن الرجل . وقد يصحّ هذا لو كان ما تطلبه المرأة من الرجل لا يعدو الشراب والطعام . ولكن الحقيقة أن المرأة تطلب في اول ما تطلبه من الرجل الحب الخالص الصحيح ، ولن يرضيها الا هذا مهما بلغ من ثروتها واستقلالها الاقتصادي

ومما يُقبّل هذه الفلسفة التي يدعون اليها أن في طبيعة الحب ذاته ما يجعل الاستمتاع المطلق مضعفاً لقوة الحب نفسه . فالثابت أن الحب يزداد قوة وحدة بقدر ما يوضع في طريقه من حواجز وموانع . وقيمة الحب النفسية والحسية ايضاً تتوقف على مقدار ما يبذل المتحابان من جهد في سبيل تخطي هذه الحواجز . فاذا كانت هذه الحواجز قوية بحيث تبتعث اقصى كوامن النفس . فالحب بالغ حدّه وغايته . ويحسن أن نذكر انه ليس ثمة صنف من اصناف الحيوان تسلّم اثناء نفسها الى الذكر عند أول دعوة من دواعي الحب . وحكمة الطبيعة في هذا لا تقاس ولا تُقدّر . فهذا التهرّب والامتناع من جانب الأنثى يُذكي عناصر الغريزة ويضاعف زخم العاطفة . ويجب الا ننسى أن هذا التهرّب وهذا الامتناع من جانب الأنثى يسهلان عمليّة الانتخاب الطبيعي اذ يجعلان فرصة التناسل قاصرة على اصحّ الذكور في الغالب الأعمّ

وكما يحسب غلاة هذه الثورة نظام الزواج الراهن حماقةً اصرّت عليها العصور كذلك هم يحسبون ان كل ما يحيط بهذا النظام وبلاسه من عواطف ومثُل عليا يشترك معه في الجرم والخطيئة . والغيرة الجنسية ، وهي الزم ما يلزم الزواج من عواطف ، هي في نظر الكثيرين منهم جرم لا يسوغه الا ما جبلنا عليه من اناية حمقاء واثرة عمياء . وهي في نظر شطر منهم ليست جرماً بسيطاً فحسب ، بل هي آفة من آفات العمران التي تسمم محيط العائلة وتنتشر فيه أول بزور العداء والرياء والاثرة . وهكذا يحمل الصغار معهم الى الحياة مواد التدمير وعناصر التخريب . فالحروب العالمية والاحقاد الجنسية المتوارثة والجشع الاقتصادي وما يتبعه من مشاحنات ومناورات سياسية مرجعها ومنشأها ، في رأي اصحابنا هؤلاء ، هذه الغيرة الجنسية . وهذا هو دأب الكثيرين من أصحاب التحليل النفسي من حيث الميل الى التعميم وتحميل الشيء اكثر مما يستطيع ان يحتمل . وعلى كل لسانا تنكر ان هذه الغيرة قد تكون في بعض الاحيان سبباً فيما ينشأ من مشاحنات عائلية . ولكن يجب الا يغيب عن الذهن ان الانسان عواطف غير هذه العاطفة وغرائز غير الغريزة الجنسية . ولكن اصحابنا ، وهذا وجه الغرابة ، لا يودون ان يدخلوا هذه العواطف والغرائز في حسابهم !! ان فهم الطبيعة البشرية لا يكون على هذا النحو من التبسط وحصص جميع مظاهر السلوك الانساني بهذه العاطفة وعزوها اليها . وحيداً لو كانت الطبيعة البشرية من البساطة بهذا المقدار ! اذاً لكان من السهل جداً على أطباء العمران وأساء البشرية ان يجدوا الدواء الناجع لهذه الآفات الاجتماعية التي تكاد تأثي العمران في اساساته

وهي — هذه الغيرة الجنسية — في رأي اصحابنا — آفة الحب التي ما فتت دقيقة واحدة تعمل على تقليص الحب بين المتحابين وافقاره . وهذا صحيح بحسب الظاهر . فليس ما يضعف أسباب الحب ويولد النفرة بين الزوجين ككثرة المشادات . ولكن ليست هذه المشادات التي تقوم وتنشأ من الغيرة الجنسية . فهذه ، في الحقيقة ، دفاع عن الحب ومحاولة لتثبيته . وهي كارتفاع درجة الحرارة في المريض تنذر بالخطر وتدعو الى المعالجة العاجلة . فالغيرة لا تفيق من غفوتها ولا تكشف ما دامت أو اصر الحب قوية سلبية . ولكن هذه الغيرة لا تتوانى دقيقة واحدة في الدفاع متى تشعر أن سلطان الحب أصبح مهدداً . فالغيرة ليست عمياء — كما يود أن يصفها بعض المفكرين — انما هي بصيرة كل البصيرة . فهي لا تفتح عينها ولا تنهض من رقدتها الا اذا غزا غاز مملكة الحب — كالكريات البيضاء في الجسم لا تنشط الى الدفاع والعمل إلا اذا هدد الجسم خطر من الخارج . فالغيرة ليست اذاً بسبيل مما ينسب اليها من تقليص الحب وافقاره . والصحيح أن يقال

إنها حارس الحب وحاميهِ الذي لا تأخذه سنة من النوم أو الغفلة وقد يتبادر الى الذهن أن هذه المحرمات الجنسية لا تنتشر إلا بين الأقوام المتحضرة، كما يتبادر الى الذهن أيضاً أن هذه المحرمات مفقودة فقدماً نسبياً أو مطلقاً بين الأقوام المتوحشة لقلّة ما يخضعون للنواهي والأوامر الاجتماعية ولقرب عهدهم بحياة الحيوانات الحرة الطليقة. ولكن الواقع المثبت أن الرجل المتوحش له من هذه المحرمات عداد ما للرجل المتمدن. فالتوحش — كالتمدن — يُحب الأثرة في الحب ويحب التكم إلى حدود الرياء الشديد، كما دلّت على ذلك المباحث التي قام بها الدكتور مالينوسكي وغيره بين القبائل المتوحشة فحصر هذه المحرمات بالرجل المتمدن وقصرها عليه ليس في شيء من صدق النظر فهي تشيع شيوعاً عاماً بين الرجل المتمدن والمتوحش على السواء مع شيء من التعديل في بعض هذه المحرمات اقتضته طبيعة العمران والحياة الاجتماعية عند مختلف الاجناس. ومن هذه المحرمات ما تشترك جميع الاجناس فيه وتمازسه دون أن يكون ثمة دليل على أن هذا الاشتراك ناجم في جملته عن التواطؤ أو العدوى الاجتماعية. وشمول هذه المحرمات على هذا الشكل المستقل هو الذي يجلنا نفكر كثيراً قبل أن تحدثنا النفس بالتخلص منها. فهي خلاصة اختبار البشرية جمعاء وزبدة تجاربها. وما أفادته البشرية في مئات الآلاف من السنين وبكثير من التضحيات لا يصح أن يُطرح ويُلقى من بيتنا إلا إذا ثبت لنا أن الربح سوف يربى على الخسارة. والذي نعتقد أنه لو كانت هذه المحرمات ضارة لانت على نظام العمران من قديم لا سيما أنها تتصل بهم وأعظم عناصر الحياة البشرية. ولستطيع أن ندرك الخطر الذي يتعرض له العمران لو ألغيت هذه المحرمات دفعة واحدة إذا علمنا أن بعض شعوب الباسفيك التي رضيت أن تجري هذه التجربة على نفسها توشك أن تنقرض من الوجود. والتاريخ حافل بالأمثلة والشواهد على أن الشعب الذي كان يتساهل في أمور الجنس كان يصير الى الانقراض. فحضارات اليونان والرومان كان للتساهل الجنسي الأثر الأكبر في تدميرها على ما نعتقد.

نستخلص من هذا أن هذه المحرمات التي قاومت صروف الدهر وصبرت على عبء الزمان هذا الصبر الذي لم يقو عليه غيرها من أنظمة العمران لا بد أن يكون لها الشيء الكثير الذي يشفع لها

ولكن اليس لهذه المحرمات ما يشفع لها ويدعو الى بقائها سوى هذا الأثر السلبي؟
اليس لها من قيمة موجبة في العمران؟

من المجمع عليه أنه بقدر ما يوضع في سبيل الغريزة الجنسية من حواجز يكون المجال أوسع للتسامي بها من المستوى الحسي إلى المستوى الفني. وعلى هذا تصبح هذه المحرمات الجنسية دافعاً قوياً في الإنتاج الفني والعلمي أيضاً. والذي يدرس أحوال البلدان المختلفة دراسة دقيقة يجد أن أعظمها إنتاجاً فنياً أكثرها مراعاة لهذه المحرمات. والفنان — كما يقول نيتشه — أبعد ما يكون عن تمثيل نفسه في فنه. فهو لكل الأجيال بعيد عن كيانه وطبيعة نفسه. فهو ميروس لم يكن لينجح في تصوير أخيل وغوته في تصور فوست لو أن الأول عاش كما عاش أخيل والثاني كما عاش فوست. والمتنبئ لو أتبع له أن ينال من السمادة والسلطة ما كان يرغب ويؤمل لما خلف هذه القصائد التي تمثل الضعف والقوة تمثيلاً لم يُبسّر لأحد غيره. وأبو الغاهية مثال طريف على هذا التناقض بين حياة الفنان الصحيحة وبين الروح السائدة في فنه. ونيتشه نفسه أفضل ما تقدمه من أمثلة على هذا التناقض بين حياة الفنان إذ يطلق النفس على سجيته وبين ما يتكلفه من تصور أمور بعيدة كل البعد عما في طبيعته. فالشهور عن نيتشه أنه كان مضرب الأمثال في دنائته الخلق ورقة الجانب والعطف ولكنه مع ذلك كتب أقسى ما تستطيع أن تخطه راعة كاتب أوفيلسوف في ذم الرحمة والعطف على الضعيف وكل مظهر آخر من مظاهر الرقة والطرادة الخلقية

شرق الاردن
اديب عباسي

الميكروبات الخفية تستجلى

اهم اكتشاف طبي بعد عهد باستور

وكلام على « البكتيريوفاج » الفاتك بالجرائم

بين رجال الطب في اميركا عالم كان حتى عهد قريب خامل الذكر، وهو استاذ ديدنه السكنية في عمله، والوداعة في خلقه، دأب في مباحثه الكيماوية، حيث تُربى الجرائم وتفحص بالمجاهر في معمل إحدى جامعات الطب فوق لعدة مكتشفات خطيرة سوف تؤول الى قلب الطب على طائفة من الامراض العقامة

ونفني بذلك المكتشف، الدكتور « آرثر كندل » استاذ المباحث البكتيريولوجية في مدرسة الطب في جامعة نورثوسترن بمدينة شيكاغو، الذي اعلن للعالم بضعة اسابيع مكتشفاته الطبية الخطيرة فقايلها العلماء في الخافقين بالارتياح واعتبروها اعظم خطوة

خطتها البكتريولوجيا الطبية من عهد العلامة باستور الخالد الذكر الى الآن وفي وسعنا ان نحصر مكتشفات كندل ، في طائفتين تتصل احدها بالآخرى اتصالاً وثيقاً. فقد نجح في تربية الجراثيم التي تسبب النزلة الوافدة « الانفلونزا » والحصبة والتهاب المفاصل ، والزكام ، والتهاب غشاء القلب الداخلي ، مع ان كل ما بذله العلماء من الجهد لتحقيق من شخصية الجراثيم المسببة للأمراض المذكورة ، المهمة أحياناً ، وتربيتها في المعامل الكيماوية ، ذهب هباءً منثوراً

اذن يجدر بنا الاعتراف بان الاستاذ آرثر كندل قد أسدى الى الانسانية مائة عظمى ترفع شأن الطب لانه قد سهّل درس الامراض آنفة الذكر درساً قد يؤول الى القضاء عليها

وإخفاق العلماء الذين تقدموه في درس اطوار الجراثيم عن كشف هذه البكتيريا للعيان سببه عجزهم عن رؤيتها باقوى المكرسكوبات . اما كندل فقد ظفر بتلك الامنية لاول مرة في تاريخ الطب ، فاضحى في طاقته اظهار تلك الجراثيم بمحض ارادته امام عيون الناظرين وليس ذلك فقط بل في وسعه ايضاً جعل جراثيم كثير من الامراض — التي دأبها الاختفاء عن الانظار — جليلةً ثمّ يعيدها خفية ، وهو اشبه بعسا الساحر في الخرافات وقد فعل ذلك في جراثيم الانفلونزا وحمى التيفوئيد وشلل الاطفال والحمى الصفراء والتهاب الرئتين والحمى القرمزية وفي البكتيريا التي تسبب الدماجل والخراجات والبكتيريا التي ينجم عنها تسمم الدم وبعض الامراض الجلدية

يبدو أنه لم يكن أول من حسر اللثام عن نوعي الجراثيم وهما (١) الخفي منها عن النظر. و(٢) الجلي منها للعيان. بل سبقه فوج من العلماء رأوا هذا الرأي من سنين عديدة ، ونخص منهم بالذكر الدكتور تورث Twort اللندني ، فكان اول من اذاع ذلك الرأي من نحو عشرين سنة اذ أعرب وقتئذ عن اكتشافه الجراثيم الخفية ثم حذا حذوه الدكتور ديريل الطبيب الفرنسي الذي كان حينئذ موظفاً بالحكومة المصرية — وهو الآن استاذ في جامعة ياييل في امريكا — فافضى به بحثه الى مذهب (البكتيريوفاج) الذي اهتزت له اركان الدوائر الطبية لما أعلن

وخلصته — انه جراثيم طفيلية خفية دقيقة الحجم تتغذى بجراثيم اخرى. وقد سماها الدكتور ديريل (بكتيريوفاج) اي الفتاكة — لانها تقتل جراثيم الامراض من غير ان تسطو على جسم الانسان نفسه. واخرج الدكتور ديريل نظريته من حيز الفكر الى حيز العمل منذ خمس عشرة سنة . وكان اذ ذاك في معهد باستور في باريس حيث عالج

بالبكتيريوفاج شخصاً كان مصاباً بالدوسنتاريا فشفاه. فعرف العلماء ان الجراثيم ذات نوعين وهما النوع الجلي والنوع الخفي

ثم اهتدى حديثاً الدكتور «فيليب هدلي» الاستاذ بجامعة متشيجان بأمريكا الى حقيقة اخرى وهي ان الميكروب نفسه قد يكون له شكل ظاهر وشكل خفي. وقد ثبتت هذه الحقيقة اي «ازدواج شخصية الجراثيم» في جراثيم الدوسنتاريا والكوليرا والتيفوئيد والدفتيريا اذ عرّض كلاً منها في شكله — الخفي والظاهر — فاسفرت مباحثه عن كون الشكل الخفي من جراثيم الدوسنتاريا لم يفتك بالارانب وانه لم يقع فريسة للبكتيريوفاج اذن يخلص مما تقدم ايضاحه ان اكتشاف الاستاذ كندول مؤلف من حقيقتين وهما (اولاً) ان الجراثيم تتغير هيئتها الجلية الى خفية والعكس بالعكس — وانه من الميسور مراقبة ذلك التغير والتحكم فيه. اي ان الجراثيم الفتاكة الخفية الدقيقة الحجم يمكن جعلها ظاهرة فيتسنى الوقوف على اطوارها والتدريج بما يلزم من الوسائل الى مكافحتها. (ثانياً) — ان تجارب الاستاذ كندول قد اماطت النقاب عما كان غامضاً من طبائع البكتيريوفاج وأفعاله ومما لاشك فيه ان الاستاذ كندل قد نجح في تغيير البكتيريوفاج الدقيق الخفي الى الجراثيم المرئية التي كان يفترسها

ويعن لنا مما سبق ظهوره من تجارب الدكتور هدلي أن البكتيريوفاج انما هو الشكل الخفي للميكروبات التي يفترسها كما يلوح لنا ان اكتشاف الاستاذ كندل وان كان ما يزال في مهده لا بد أن يفيد الطب فوائد لا يمكن حصرها. وانه متى تسنى للعلماء تربية البكتيريوفاج الفتاك بمحض اختيارهم، تهيات لهم معدات القتال التي لم يوجد لها نظير في استئصال الاوبئة في مستقبل الايام. ومتى أسفر اكتشاف الاستاذ كندل عن اختراع أسلحة جديدة قوية لقطع دابر الامراض التي ما برحت تتفشى بين الانام منذ قرون — كان ذلك مدعاة لاجداث انقلاب تام في صناعة الطب

ومما هو خليق بالذكر أن الاستاذ كندل لم يتجاوز الرابعة والخمسين من العمر، وقد اتم اعلان نتائج مباحثه الطبية من أسابيع قلائل وذلك في خطبة خطبها أمام فريق من كبار العلماء في جامعة شيكاغو فأتوا عليه ثناء عطراً وقابلوا أقواله بما يليق بها من الترحيب. وما فرغوا من تصفيق الاستحسان حتى نهض الدكتور (ادوارد روزنو) رئيس قسم مباحث البكتيريولوجيا في عيادة مايو بمدينة روتشستر. فقال: «لقد سمعنا الآن خبر اكتشاف جيل» ونحنا نحوه الدكتور إرفنج كتر Cutter عميد أساتذة كلية الطب بجامعة نورثوسترن فقال: «انه لا اكتشاف يثير الإعجاب في دوائر العلم ولا مثيل له الا مكتشفات العلامة

لوبيس باستور من ستين سنة . وسرُّ اكتشاف كندول كغيره من أسرار المكتشفات العظيمة غاية في البساطة متى كشف لك ذلك

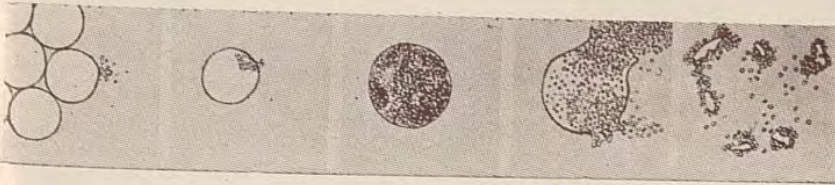
فقد عرف أن في مقدوره جعل الجراثيم أمّا جليّة وإما خفية ، بتغذيتها بالبروتينين البشري . وكان يعتقد أن « غذاء الجراثيم الناقص » هو سبب فشل العلماء الذين حاولوا تربية بكتيريا الانفلونزا والحصبة والجذري ، وكلها من ذوات الشكل الحفي متى كانت خارج الاجسام البشرية . وان علماء البكتيريولوجيا كانوا يغذون تلك الجراثيم بمواد خفيفة مؤلفة من مرق لحم البقر والجلاتين وهما يحتويان على المواد الناجمة عن انحلال البروتينات . والواقع ان الجراثيم التي تسبب الامراض ، متى شهرت الحرب واخرقت بدن الانسان والحيوان ، تتعش من تغذيتها بمادة أقوى من ذلك الغذاء الناقص لانها في هذه الحالة تتغذى بالمواد البروتينية الخالصة

والمعروف أن الجسم البشري والحيواني فلما يحتوي على المواد الناجمة عن انحلال البروتينات وبناءً على ما تقدم باشر الاستاذ كندل تغذية جراثيمه بأغذية مكونة من مواد بروتينية خالصة فركب السائل الذي يربي فيه الجراثيم من قطع استخرجها من الامعاء البشرية الدقيقة وأمعاء الخنازير والكلاب والارانب بعد ما عالجها العلاج اللازم وسمّى ذلك السائل محقّلة ^(١) كندل (K. Medium) وجعله نقيّاً لا تشوبه أية شائبة من المواد المنحلّة متوسلاً الى تنقيته بالوسائل الكيماوية . ثم وضع في محقّله قطرات دم من بعض المرضى المصابين بالانفلونزا

وجاء الاستاذ كندل بأرنب فحقنه في مجرى الدم بقطرات عديدة من ذلك السائل المحتوي على جراثيم الانفلونزا لكي يتحقق من وجود جراثيم الانفلونزا فيه فابلت ذلك الارنب حتى ظهرت عليه أعراض الانفلونزا بحذافيرها ، فأيقن الاستاذ من نجاحه وتلا ذلك الجانب الخطير في التجربة

مزج الدكتور كندل بعضاً من ذلك السائل القائم المحتوي على دم المصابين بالانفلونزا بقدر من الغذاء القديم الذي كانت تغذى به الجراثيم فحصل على نتيجة مذهشة إذ رأى محقّله التي كانت خالية من الجراثيم قبيل ذلك قد غصت بربوات منها ممرح على شكل جراثيم مستديرة الشكل دقيقة الحجم ، فتبيّن بالفحص انها هي نفسها جراثيم الانفلونزا بهيئتها الجليّة التي طالما أخفق العلماء في اظهارها — وأعاد كندل التجربة عينها في جراثيم عدة

الدكتور ارثر كندل
وهو استاذ البحث العلمي
البكتيريولوجي في مدرسة
الطب بجامعة نورثوسترن
الاميركية بمدينة شيكاغو
وقد افاح في اظهار الجراثيم
الخفية بتحضير مستنبتات
لها تحتوي على مواد
بروتينية خالصة



صورة تمثل اقتراب البكتيريوفاج من المكروبات (طرف الصورة اليسر) ثم دخوله
فيها ثم تكاثره فيها ثم تبددها وتلاشيها

أمام الصفحة ١٢٣

مقتطف يونيو ١٩٣١

أمراض أخرى كانت خفية من قبل فظفر في كل حالة بالنتيجة نفسها
وحينئذ لم يسعه إلا عكس التجربة رغبة منه في الوثوق التام بنجاحه — فجاء بطائفة من
الجراثيم التي كانت تُعْتَبَر إلى ذلك الحين من الجراثيم التي ترى بالمجاهر حينما تروى وتتغذى
بالغذاء القديم فوضعا في محقنته المكونة من المواد البروتينية الخاصة ، فأصبحت كلها خفية
فأخذها (أي الجراثيم الخفية) ورشحها بأدق المرشحات المصنوعة من الخزف الصيني
وتناول السائل الذي نتج من الترشيح ومزجه مرة أخرى بالغذاء الجرثومي القديم فجعلت
الجراثيم تعود إلى هيئتها الأولى الجلية بطريقة كالسحر . وكرر التجارب مراراً فكانت تسفر
في كل مرة عن حصوله على جراثيم جلية من مدة خفية Virus (شرف) مرشحة .
وكانت البكتيريا الجلية تعود إلى هيئتها الخفية وذلك بغرسها في محقنته المكونة من المواد
البروتينية الخاصة

فاعتقد الدكتور كندل أنه من السهل جعل جميع جراثيم الأمراض تعيش مثل هذه
العيشة المزدوجة معوالة على الغذاء الذي تأكله . ثم راقب الجراثيم في حال تغيرها من شكلها
الظاهر إلى شكلها الخفي فرآها تشرع في عملها بطمس معالمها حتى تكاد لا تروى بعدستي
المجهر وتظل تتوارى عن النظر حتى لا يبقى منها غير حبيبات دقيقة الحجم جداً تمر من أدق
المرشحات . ثم لا تلبث أن تدب فيها الحياة من جديد فتصير جراثيم ظاهرة كاملة النمو ، وذلك
إما بالتربية وإما بإحداها بعضها مع بعض مرة أخرى

وكان العلماء قد سبقوا فعثروا على أمثالها تلك الحبيبات الغامضة في سائل العمود الفقري
لبعض المرضى في الأدوار الأولى من أمراضهم . والظاهر أن تلك الجراثيم كانت في منتصف
طريق تغيرها إلى شكلها الخفي . وقد حضر الدكتور كندل محقنة جديدة من نموذج
أكثر اتقاناً من ذي قبل وذلك من المواد البروتينية القوية المتبلورة

ومع أن النطاسيين يرون أن مكتشفات كندل سوف تحدث انقلابات جوهرية في
علاج فئة من الأمراض في المستقبل ، فما لاجدال فيه أن اكتشاف البكتيريوفاج كان ذا
أثر بعيد في صناعة الطب إذ أنقذ الأطباء من اليأس الذي كان يساورهم عند محاولتهم درس
الأمراض المعدية . وقد بدا لهم الآن ، بعد مكتشفات كندل أن البكتيريوفاج الذي يفترس
جراثيم الأمراض البشرية دون أذى المريض نفسه ، سوف يغدو أقوى حليف للأطباء في
استئصال شأفة الأدوية

وقد استخدم البكتيريوفاج على سبيل التجربة من عهد قريب في بلاد السنغال (في افريقية الغربية الفرنسية) لآبادة الطاعون البشري حيث عولج به اولاً المرضى الذين كانوا في الادوار الاخيرة وكانت نسبة الوفيات بينهم مائة في المائة رغم استعمال جميع العلاجات المألوفة — فاسفر استخداماً ، عن جعل نسبة الشفاء كنسبة ١٥ الى ٢١

ثم استخدم البكتيريوفاج ايضاً تحت اشراف معهد « اسوالدوكرز » التابع لحكومة البرازيل من بضع سنوات لعلاج ١٠٠٠٠ مصاب بالدوسنطاريا فلم يمت منهم اكثر من اثنين !! وجربت طريقة العلاج بالبكتيريوفاج لأول مرة في وباء الكوليرا الذي انتشر في ولاية بنجاب من اعمال الهند ، من زمن قريب ، فنجحت نجاحاً مذهشاً بينما كانت نسبة الوفيات بذلك الوباء الاسيوي مع استعمال جميع طرق العلاج المدروسة تتراوح بين ٦٠ و ٨٠ ٪ من المصابين . فهبطت تلك النسبة باستخدام البكتيريوفاج في العلاج الى ٨١ في المائة

فجدير بنا اذن أن نبسط الكلام في اعمال الكائنات المدهشة التي تقوم بتلك المهمة . ولما كنا لا نستطيع رؤيتها بأية وسيلة علمية فلتتخيل انفسنا ذوي عيون اقوى نظراً من المجاهر الحديثة التي تجعل الحبة قبة : ولنفرض أن البكتيريوفاج اخذ يسطو على جماعة من الجراثيم المسماة « الميكروبات العنقودية » وهي مصدر كل ما يحدث للمصابين بالجراح المسماة والخرجات والجرعات . وقد سميت بهذا الاسم لانها اشبه بعنقود العنب . وتؤلف من خلايا جرثومية مستديرة الشكل متقاربة بعضها من بعض . وهي صغيرة جداً حتى أن الذرة من الرماذ يمكن تغطيتها بمئات منها

ولو أتيج لنا رؤية البكتيريوفاج بين تلك الكريات الجرثومية لظهرت أمامنا كأنها طور يبد على مقربة من مدرعة ، لا يعم على صغره ، أن يدمرها مع ضخامتها — ولو تسنى لنا أن نزيد قوة بصرنا لرأينا البكتيريوفاج يلصق نفسه بجرثومة اخرى ويختفي فيها . ومضى تعلق بأهدابها وغار في جوفها جعل ياتهما رويداً رويداً ثم يوسع لنفسه مكاناً في جوف مضيقته وسرعان ما يملأ ذلك الفراغ الذي تغلغل فيه بنسبه . وكلما توغل في قلب مضيقته تضاعفت ذريته أكثر فأكثر حتى تفتي الجرثومة الاصلية ولا يبقى منها غير قشرة جوفاء مملأى بذرات من الجرثومة الفتاكة فتتمزق تلك القشرة الجرثومية ويخرج منها الوف من الجراثيم الفتاكة الجديدة وكلها متحفزة لمقاتلة اعداء الانسان

بيد ان عملية الاتهام التي سبق ان حدثناك بشأنها ليست اتهاماً بالمعنى الصحيح بل هي تأكل كالذي ينجم عن فعل الاحماض اذا مست بعض المواد . وقد كان اكتشاف البكتيريوفاج من قبيل الاتفاق . وذلك أنه في سنة ١٩٠٩ زحفت

أرجال الجراد على مدينة سوتيرل من أعمال المكسيك بأمر كا الوسطى فهب الأهالي لمقاتلتها بجميع الوسائل فأخفقوا ، وتابعت جماعات الجراد زحفها ملتزمة الاخضر واليابس من المزروعات في تلك الارزاء . ثم شاء القدر الذي ساقها الى هنالك أن يقضي عليها رافة بالناس . فما لبث القوم وهم قانطون من الخلاص من تلك الكارثة حتى أخذت أرجال الجراد تهلك جماعات جماعات فأيقنوا انها قد أصيبت بمرض غريب ولكنهم لم يعرفوه . فشرع العلماء بشرحون جثث الجراد الميت ويفحصونها جيداً توصلوا للحقيقة فاستخرجوا منها نماذج من البكتيريا ثم ربوها في محاقل الكيماوية لكي يتمكنوا من درسها وتجربة التجارب بها . وأرسلوا بعض المحافل التي ربّوا فيها جراثيم المرض الذي أهلك الجراد في مدينة سوتيرل الى الجهات الموبوءة بالجراد أيضاً حيث قبض العلماء على بعض من الجراد الحي وحققوه بجراثيم ذلك المرض الجديد وخلوا سبيله فطار وعاد الى الالتحاق برفاقه . وسرعان ما تمتلئ الدور الذي وقع في سوتيرل اذ أخذ الجراد الاجنبي يموت جماعات وأصبحت تلك الافة في خبركان في زمن وجيز . وتنبه العلماء الى ذلك الاكتشاف فجددوا مباحثهم بأساليب أكثر اتقاناً متسائلين هكذا : « اذا أتيح لنا إيجاد كائن طفيلي يستطيع قتل جراثيم المرض في الجراد فلماذا لا يمكننا إيجاد مثل ذلك الكائن الطفيلي ليفعل هذا الفعل نفسه في أمراض البشر ؟؟ » . فكان أول من أجاب عن هذا السؤال الاساذ ديريل وذلك في سنة ١٩١٧ فقدد العالم الطبي اكتشافه حق قدره ولم يدخر العلماء وسعاً في البحث عن الجراثيم الفتاكة والانتفاع بها . وقد ظهر لهم ان تلك الكائنات تعيش في الاقدار . ولذلك قصدوا الى نهر الكنج وهو مرعى خصب لها لان مجاري القاذورات تصب فيه وتلوث ماءه . وكذلك عرفوا عرضاً ان مجاري مدينة باريس غاصة به . ومما لاشك فيه ان البحث في تلك المجاري بالوسائل الحديثة التي اكتشفها كندل سيظل متواصلاً . أما طريقة استخراج تلك الكائنات الحية الخفية من بيئاتها الطبيعية فيشبه طريقة استعمالها في الامراض البشرية . ولذلك يؤتى بنماذج من المواد البرازية . ثم تصفى عدة مرّات بمرشحات مختلفة . وآخر ما صنع لهذا الغرض هو شتمة الخرف الصيني التي تخرج منها المواد البرازية كأنها سائل صافي لا لون له . ثم تصب فقط قليلة منه على محقلة الجراثيم وتراقب مراقبة شديدة . فاذا لم تمت الجراثيم في تلك المحقلة أيقن البكتريولوجيون أنهم مخطئون أي أن نماذج تلك المواد البرازية التي جربوها خالية من البكتيريا فواج

كيف وصلت الى طريقتي في

علاج داء ادمان المخدرات

مخلاصات الغدد الصماء

ببحث مبتكر للدكتور فرّا

الحلقة الثامنة

سواء سلمنا في حالة التسمم بالافيون وقلوياته بجواز نظرية نشاط العصب الحائر او
بمسكنا بافضلية نظرية خمول العصب السمبثاوي فالتا نواجه في كلتا الحالتين خلافاً في التوازن
او التكافؤ بين العصبين السمبثاوي والحائر

فاذا ما اردنا اصلاح هذا الخلل واعادة العصبين الى حالة التوازن الطبيعية فقد يحل
الينا لاول وهلة انه سواء اتجه العلاج الى تنشيط العصب السمبثاوي مباشرة بالادرنالين،
او الى كبح العصب الحائر بالاتروپين، فالنتيجة العلاجية يجب ان تكون واحدة . ولكنها
في الواقع ليست كذلك. اذ قد علمنا مما تقدم ان الاختصاصيين في الامراض الزهرية لا يستعملون
الاتروپين في علاج الصدمة الزرنيفية بل الادرنالين . وقد فسنا على هذا علاج التسمم
بالمورفين . فما هو السبب اذاً في استعمال الادرنالين وبند الاتروپين في هذه الاحوال ؟

ح س



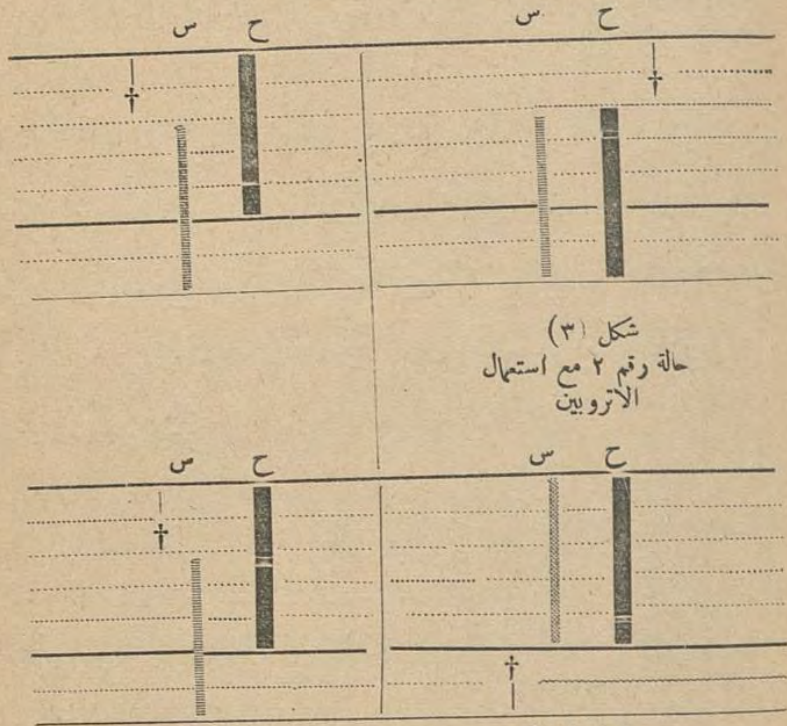
شكل (١)
توازن السمبثاوي
والحائر في الحالة
الطبيعية

س = العصب السمبثاوي

ح = العصب الحائر

ان مجرد النظر الى الرسم السابق وما يليه هو برهان حسي يقنعنا بان للادرنالين افضلية
علمية وعملية عظمى على الاتروپين في اصلاح خلل التوازن بين العصبين السمبثاوي والحائر
في حالة التسمم بالمورفين او مشتقاته، بل هو العلاج المباشر لهذه الحالة منطقياً وعلمياً. ومنه
يثبت لنا ايضاً جلياً ان نظرية خمول العصب السمبثاوي هي النظرية الصحيحة
فالشكل الاول يمثل حالة او درجة التوازن الطبيعي بين العصبين السمبثاوي والحائر

واما الشكل الثاني فيمثل حالة خلل التوازن بينها على اثر التسمم بالمورفين اي خمول او هبوط العصب السمبتاوي مع بقاء العصب الحائر على حاله . ففي هذه الحالة يكون العصب الحائر ظاهرياً أنشط من العصب السمبتاوي مع ان درجة نشاطه في الواقع لم ترتفع عما كانت عليه قبل التسمم بالمورفين



شكل (٣)
حالة رقم ٢ مع استعمال
الأتروپين

شكل (٤)
حالة رقم ٢ مع استعمال الادرنالين

والشكل الثالث يمثل حالة التسمم السابقة اي شكل ٢ مع كبح العصب الحائر بفعل الأتروپين . ففي هذه الحالة نرى شبه توازن في درجة نشاط العصبين، ولكن هذا التوازن ليس طبيعياً صحيحاً بل شاذ لان كلا العصبين في حالة هبوط ، اذ ان السمبتاوي قد هبط بفعل المورفين والحائر بفعل الأتروپين . ولما كان تأثير الأتروپين في المدمن هو اسرع زوالاً من تأثير المورفين بالنظر لحدائمه استعمال الاول وقدم تعاطي الثاني ، فهذا التوازن الوقتي الشاذ لا يلبث ان يختل سريعاً ويعود تدريجياً الى حالة الشكل الثاني اما اذا اردنا اصلاح حالة الخلل الموضحة في الشكل الثاني اصلاحاً اصولياً حقيقياً وارجاعها الى حالة التوازن الطبيعي كما في الشكل الاول فما علينا الا ان ننشط العصب

السببناوي مباشرة بالادرنالين فيعود التوازن شكل (٤) الى الحالة الطبيعية كما في الشكل الاول هذا وان استعمال الادرنالين هو اوسع مجالا من استعمال الاترويين بمراحل. اي ان تكرار تعاطي جرعات الاترويين يعقبه تسمم سريع لا يخلو من الخطر. اما تكرار جرعات الادرنالين فلا خطر منه ولا يوصل الى ضرر الا بعد ان يعود العصب السببناوي الى درجة نشاطه العادي ويتجاوزها مجاوزاً بعيداً وذلك اذا استعمل الادرنالين وقتاً طويلاً لا يقل عن شهر بعد الشفاء من التسمم. والخلاصة فانه :

في حالة التسمم بالافيور او قلوبانه اذا اردنا اصلاح خلل التوازن بين العصبيين السببناوي والمحائر - الخلل الناشئ عن ضحول العصب السببناوي بسبب هذا التسمم وبالتالي ارجاع التوازن بينهما الى الحالة الطبيعية الصحية ، فالعلاج بالادرنالين هو اصح وافير من العلاج بالاترويين . وليس الاول منهما الاخطار المعروفة عن الثاني

في هذا الاثناء توفقت الى العثور على حادثة مدمر مورفين منذ سبعة عشر سنة كان قد عولج بطرائق متنوعة ومنها طريقة العلاج بالاترويين ولم يشف . عاجله حينئذ بالادرنالين فكان حكمه على هذه الطريقة انها اخف ألماً من غيرها في منع المخدر . ولكن هذا المريض لبث يشعر بشيء من التعب الذي لم يكن يفارقه بعد العلاجات السابقة الى ان عاد الى تعاطي المورفين بعد شهر تقريباً

ان هذا الفشل لم يبط عزمي بل دفعني الى مواصلة البحث باهتمام اشد . ولم استغرب امر هذا الفشل اذ قد علمنا مما سبق ان استعمال الاترويين بمثابة نقيض للمورفين ، لا يفلح الا في حوادث التسمم الحاد ، وان لا فائدة منه في احوال التسمم المزمن . وقياساً على هذا فان علاج ادمان الافيون او قلوبانه بالادرنالين مباشرة مع انه مفيد فائدة كبرى في تخفيف آلام دور حذف المخدر ، الا انه لا يشفي الادمان شفاء تاماً قطعاً لان الادمان ليس تسمماً حاداً بل مزمناً . وقد استنتجت من هذا :

انه نظرية ضحول العصب السببناوي وانه تكن صهيبة لتفسير تأثير الافيور وقلوبانه في حوادث التسمم الحاد الا انها غير كافية لتفسير حالة الادمان انه هو تسمم مزمن . وبعبارة اوضح : انه الحالة المرضية التي تنشأ عن

التسمم المزمن بالمخدر اى الادمان لا تقتصر على ضحول العصب السمبتاوى فقط مع ما يترتب عليه من خلل فى التوازن بين السمبتاوى والحائر (Dysvégétation) بل هى اسر وطأة وأبعد مرمى

وهنا اتسع لي مجال البحث لمعرفة مركز هذه العلة ومداها

الحلقة الرابعة

علمنا مما سبق ان التسمم الحاد بالمخدر (واعني به هنا الافيون وقلوياته) يورث العصب السمبتاوى هبوطاً اى خولاً وبالتالي فانه ينشئ خللاً في التوازن بين السمبتاوى والحائر اتنا اذا رجعنا الى المؤلفات الدراسية نرى انها تضع في صدد هذا الخلل حداً فاصلاً بين حالي نشاط السمبتاوى (Sympathicotonie) ونشاط الحائر (Vagotonie) طبقاً لما رسمه الاستاذان اينجر وهس سنة ١٩٠٩ (Eppinger et Hess). وان كلا من هاتين الحالتين ترتبط ارتباطاً متيناً بافرازات الغدد الصماء كما اثبتت ذلك الاختبارات البيولوجية. فان افرازات الغدة الدرقية مثلاً وكذلك الادرنالين تنشط المجموع العصبي العضوي (اي السمبتاوى والبراسمبتاوى). كما ان هذا المجموع العصبي العضوي ينظم افرازات الغدد الصماء. فاذا كان هذا المجموع سليماً تكون افرازات الغدد الصماء طبيعية سليمة ايضاً. اما اذا اعتل هذا المجموع فافرازات الغدد الصماء تتأثر هي ايضاً ولو بعد حين وتنفذ عملية اي غير طبيعية. والخلاصة « فان الرابطة الفسيولوجية بين المجموع العصبي العضوي وبين الغدد الصماء هي من المتانة بحيث يستحيل فصل احد الجهازين عن الآخر من حيث العمل الفسيولوجي »^(١)

وهنا لا ارى بداً من الاشارة الى ان المؤلفات الدراسية اذ تضع حداً فاصلاً بين حالي نشاط السمبتاوى ونشاط الحائر انما تقصد تسهيل الفهم على الطالب. ولكن اذا رجعنا الى المطولات نرى ان هذا الحد ليس فاصلاً حتماً لان حالي السمبتاوى والحائر هما في الواقع اشبه بحركة كفتي الميزان قلما يستقر على حالة ثابتة. لان العامل الذي ينشط العصب الحائر مثلاً لا يعرض عن العصب السمبتاوى اعراضاً تاماً بل ينهاه ويوجهه الجزء الاعظم من عمله الى التأثير على الحائر اذ هو يصرف ما تبقى وهو جزء طفيف للتأثير على السمبتاوى

(١) Traité de Pathologie Médicale et de Thérapeutique appliquée tome IX. Sympathique et Glandes Endocrines 1921 p. 19. R. Porak — Les Syndromes Endocrines 2e, édition 1929 page 23

ايضاً ^(١) ولولا ذلك لاختلَّ عمل هذا الاخير اختلالاً لا يخلو من خطر . ولهذه النقطة شأن كبير في التطبيق العملي اي العلاج . وقد استخلصت مما تقدم النتيجة الآتية وهي :

إذا اقتصر التسمم الحاد بالمخدر على ضمول العصب السمبناوى وانسأ قبل في التوازن بين السمبناوى والمحائر فالتسمم المزمن لا يلبث عندها الحر بل يتخطاه الى التأكبر في الفرد الصماء ايضاً

فما هي العلة التي تصيب هذه الغدد ؟

الحلقة الخامسة

إذا اردنا تحديد هذه العلة تحديداً علمياً فنيّاً اصولياً لا يترك مجالاً للشك فمن الواجب الالتجاء الى معامل الفيسيولوجيا العملية والاستعانة بمن فيها من الاختصاصيين في اجراء الاختبارات على الحيوانات القرينية للانسان . واول هذه الاختبارات بل ابردها الى الذهن هو ادمان هذه الحيوانات المخدر ثم اخذ نماذج دم من وريد كل غدة صماء وحقنها في الحيوانات السليمة ، ثم درس الاعراض التي تطرأ على الحيوانات المحقونة خلاف الاعراض الناشئة عن صدمة حقن المواد البروتينية الموجودة في هذه النماذج . واخيراً تشرخ الحيوانات المدمنة وبحث حالة اعضائها من الوجهة التشريحية عضواً عضواً ومنها الغدد الصماء . ولكن هذه الاختبارات هي من الدقة بحيث لا يستطيع اتقان عملها الا الاختصاصيون الذين مارسوا هذا العمل سنين طويلة

اما الطبيب الممارس العلاج فلا يستطيع القيام بعمل كهذا . واذا لم يسعفه الحظ بالوصول الى معمل كفو لاجراء هذه الاختبارات فلا لوم عليه ولا حرج ان هو عمد الى الاستدلال بالمبادئ المثبتة علمياً يتخذها كمقدمات يبني عليها نتيجة منطقية صحيحة ، ثم يستعين بهذه النتيجة في التطبيق العملي للوصول الى نتيجة حسية وهي شفاء المريض . ولذا نرى ان جانباً كبيراً من العلاجات الحديثة هو نتيجة التطبيق العملي الكلينيكي وانا بصفتي طبيباً ممارساً فاني مع اضطراري الى سلوك طريق غير طريق المعمل الفيسيولوجي فانما اتحول عن هذا الاخير مرغماً ولكي لا انفك اعلى النفس بالعودة اليه اذا اسعفني الحظ بالوصول الى اختصاصي كفو لعمل هذه الاختبارات وغيرها حسبما يقتضي الحال . اما الآن فاني اقتنع بمواصلة سلسلة البحوث الآتية الذكر

اذا تجرّع شخصٌ سمّاً فما هو مصير هذا السم في جسمه^(١) ؟ — إما ان تمتصّه المعدة كاملاً او ان تدفع جزءاً منه بالقيء وتمتص الباقي . اما دقائق الجزء الممتص فتسير الى الخلايا . وعندئذ اما ان تتسرب الى داخلها فتؤذيها او ان ترسب خارجها بفعل المواد الزلالية . وهذا المصير لا يتغير سواء حصل تناول السم عن طريق الفم او الجلد او الانغشية كالانف والمستقيم وغيرها

وقد اثبتت الاختبارات العلمية ان السم يختار اولاً اخر الخلايا واشرفها اي ذات الاهمية الكبرى في عوامل التفاعل الحيوي لخلايا الغدد مثلاً^(٢) فيسرع اليها ويصارعها اشد مصارعة واطرها . وعندئذ اما ان يصرعها ويبتلع عملها كلية فهو التسمم المميت او يبطل عملها وقتياً فهو التسمم العارض او يلبث خارجها مكبلاً بفعل المواد الزلالية فيتأثر الجسم منه تأثراً عارضاً خالياً من الازدية . اما في احوال التسمم المزمن ومنها ادمان المخدرات فالمواد الزلالية تغلب اولاً على دقائق السم وتلفها ولكن ورود نجات اخرى منواله، اي تناول جرعات جديدة من المخدر يكفل الاتصاف لهذا السم نهائياً

وخلايا الافراز في الغدد الصماء هي من اشرف الخلايا في الجسم واعظمها اهمية اذ تنفج الدم والاعضاء بنحار ذات اهمية رئيسية حيوية وقد تضحي الحياة مستحيلة بفقد بعضها كالغدة الناجية Surrénale مثلاً

والمؤلفات الطبية الحديثة لا سيما ما يختص منها بدرس السموم لا تقتصر على شرح تأثير السموم في المجموع العصبي النخاعي الشوكي فقط كما كان الحال قديماً بل تهتم ايضاً بما يصيب الجهاز العصبي العصوي Systeme Nerveux Végétatif من تأثير السم تأثيراً جليلاً يعرقل عمل الغدد الصماء فيحدث تغييراً في تكوين خلاياها وخللاً في افرازاتها^(٣)

ان الخلل الذي يطرأ على افرازات الغدد الصماء اما ان يكون خللاً في كمية الافرازات او كيفيتها اي صفاتها الفسيولوجية او كليهما معاً . فالكمية تتأثر بالنقصان (Hyposécrétion) او الزيادة (Hyper- sécretion) والكمية بالانحراف (Déviation) وهذه الاخيرة اما ان تكون مصحوبة بنقص او زيادة الافراز

فأي خلل من هذه الثلاثة يطرأ على افرازات الغدد الصماء في داء ادمان المخدرات ؟

(١) Traité de Pathologie Médicale et de Thérapeutique appliquée tome XXII. Intoxications 1922. p. 10 - 14 .

(٢) Id . p . 13

(٣) Id . p . 14



المستشرق الروسي كراتشكوفسكي

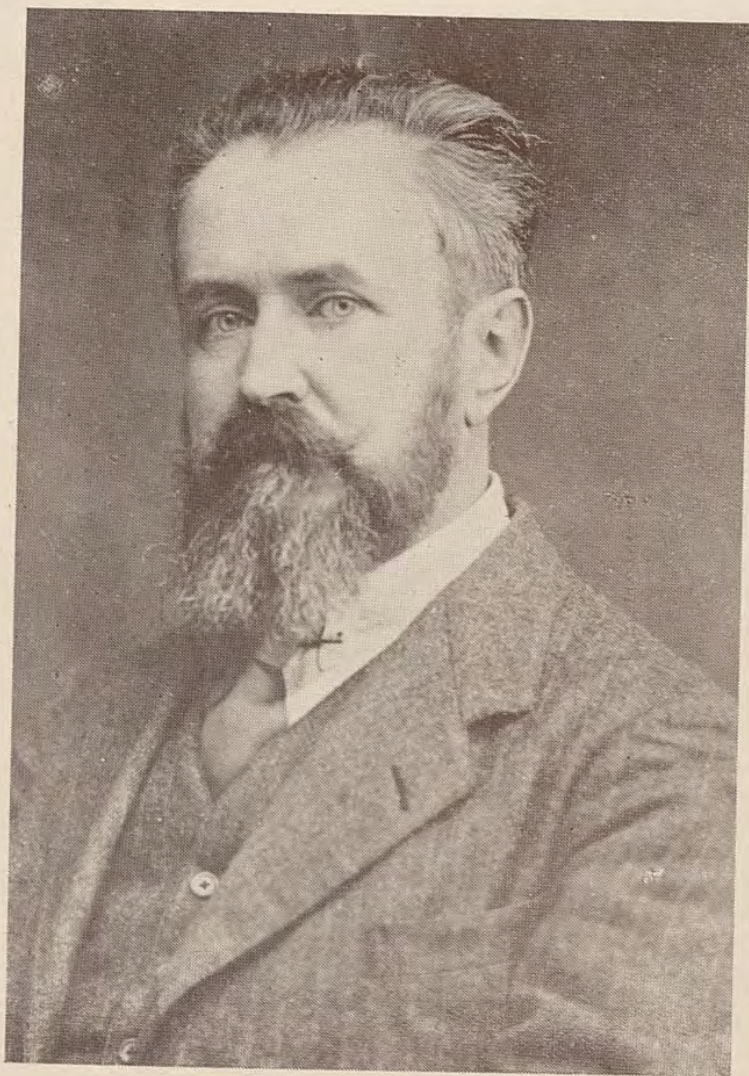
واشهر آثاره في خدمة الادب العربي

للاستاذ بندلي جوزي من جامعة باكو

احتفل في أواخر شهر أكتوبر من السنة الغابرة طلبة الاستاذ كراتشكوفسكي ومحبه من المستشرقين الروسين في غير طنطنة ولا ضجة بيوبيله الفضي العلمي أي بانقضاء خمسة وعشرين سنة على حياته العلمية اوفقها خالصة على البحث والتدقيق العالي في آدابنا العربية ومظاهر حياة امتنا العمرانية من يوم ظهرت في ميدان التاريخ الى هذا اليوم . ولم كنت أود لو اشترك في هذا العيد عالمنا العربي حيث للاستاذ معارف ومحبون كثيرون يعرفونه معرفة شخصية ويقدرونه حق قدره ولعله يفعل متى عرف ذلك

عرفت الاستاذ الفاضل سنة ١٩٠٩ في بيروت يوم كان مقيماً فيها يتردد على دروس آداب اللغة العربية في جامعة اليسوعيين ويطالع مخطوطات مكتبها العامرة ، ثم يبحث عن شعر الوأواء الدمشقي ويهيء مواد تأليفه الدكتور في الشعر العربي الذي جعله مقدمة للديوان المذكور أو بالاحرى ملحقاً له

منذ تلك السنة وأنا اراقب حياة الاستاذ العلمية عن كثب واطالع بامعان ولذة عظيمة كل ما كانت تجود به قريحته الفياضة وقلمه السيال ومعارفه الواسعة من المقالات والكتب العلمية التي كان وما زال ينشرها في مجلات بطرسبرج وبرلين وباريس وليزيج وأوبسالا الاختصاصية وفي بعض مجلاتنا العربية احياناً . واكثر هذه المؤلفات والمقالات امامي الآن — وأنا اكتب هذه العجالة — وهي تبلغ المائة او تزيد وكلها او تقريباً كلها في آداب لغتنا العربية من شعر ونثر وروايات وقصص وخرافات وطلاسم وسيّر الى غير ذلك مما له اتصال بالآداب العربية . وهي لا تقتصر على عصر او دور من ادوار ثقافتنا بل تتناول جميع ادوارها التاريخية بين جاهلي وأموي وعباسي وعصري ، وبين عربي ومصري وعراقي واسباني وسوري وهلم جرا . بهذا أي بان يقف الاستاذ الفاضل المحبوب حياته العلمية على الادب العربي وحده دون ان يتعداه الا في ما ندر الى اللغة والتاريخ ، يمتاز على غيره من مستشرقي الغرب والشرق . فهو اذن ذلك العاشق الموحّد الذي لم تسنوه عادة اخرى من غادات العرب كالتاريخ واللغة والفلسفة والدين . ولعل في ذلك رمزاً جميلاً الى



المستشرق الروسي اغناطيوس بن بوليان كراتشكوفسكي مدرس اللغات الشرقية
العالمة في جامعة بطرسبرج (لنغراد) وعضو اكاديميتها العلمية
مقتطف نوفمبر ١٩٣١
امام الصفحة ٣٣١

حياته الشخصية العالية . فهو في آدابه ومعاشرته وعيشته العائلية المثال الاعلى الذي تصبو اليه ارواح السالكين والبررة الاطهار .. ثم هو يمتاز على زملائه بصفة اخرى وهي دقة البحث واتساع نطاقها وقوة ابتكاره وترفعه عن البحث في المواضيع المطروقة المبذلة . فهو لم يترك موضوعاً له علاقة بالآداب العربية ولو بعيدة الا وطرقه ونظره فيه نظرة جديدة او التي عليه نوراً جديداً او توسع فيه . وكل ذلك في عبارات طليقة واضحة واسلوب علمي جدير بان يكون مثلاً اعلى لكل من يكتب في الآداب العربية أو في علم آخر . وأهم من ذلك في نظري أن الاستاذ العزيز لا يفرق في حبه بين الآداب العربية والامة التي انتجت هذه الآداب . فهو يحب امتنا حباً جماً لا يقل عن حبه لآداب لغتنا وثقافتنا ثم هو يحبها حباً فعالاً عملياً لا نظرياً فقط . فكم له من اياد يفيض على بعض افراد هذه الامة وكم له من دفاع مجيد عن مصالحها الحيوية وحسن سمعتها جزاء الله خير الجزاء ومدته في عمره وعزاه بحب اصدقائه والمعجبين بذكائه عما أصابه من محن الدهر الحائن بلا أم ولا ذنب

ولو اردت ان اذكر جميع ما كتبه الاستاذ الفاضل من مقالات واسفار وأصفا وصفاء بين ما جاء فيها من افكار مبتكرة ومعان رقيقة وعلم واسع ونقد جيد لما وسعني صفحات عدد كامل من اعداد المقتطف ولهذا اراني مضطراً ان اقصر كلامي على بعض مؤلفاته وأمر بأكثرها من السحاب

١ — شاعرية ابي الغتاهية

هو اول بحث علمي وضعه صاحب اليوبيل سنة ١٩٠٦ وهو لا يزال طالباً في الفرع الشرقي من جامعة بطرسبرج وهذا البحث منبثق من بحث آخر أكبر منه وهو « خلافة المهدي » كان الاستاذ قدمه الى ادارة الفرع الشرقي في السنة المذكورة ليحصل به على اول درجة علمية درجة ال Candidat فحصل عليها ونال فوق ذلك مدالية ذهبية . وقد كان في نية الاستاذ ان ينشر البحث كله الا أنه عدل عن ذلك الى نشر جانب منه بعد ان نظر فيه ثانية وزاد عليه فجاء بحثاً مستقلاً في شاعرية ابي الغتاهية وأدوارها

استهل الاستاذ بحثه هذا بمقدمة بين فيها وجوب درس الشعر العربي درساً قائماً بذاته ولذاته لا كمادة للتاريخ او اللغة بل كأحد مظاهر الحياة العربية العقلية والنفسية والاجتماعية وبرهن على ان هذه الغاية لا تدرك الا بالبحث عن زمن ظهور انواع الشعر ونموها وشاعرية كل شاعر مبرز وصفاتها المميزة والا صعب التفريق بين شاعر وشاعر كما ترى

ذلك في طبقات الشعراء التي تركها لنا السلف كطبقات أبي عبيدة وابن سلام الجمحي والمفضل بن سلمة وغيرهم ممن بنوا طبقاتهم ليس على تحليل نفسية الشاعر وبيان قوة شاعريته الخلقة بل على ظواهر خارجية يدخل أغلبها في علم المعاني والبيان فكان من ذلك أنهم جمعوا وقرّبوا بين شعراء لا تجمعهم قرابة معنوية وفرّقوا بين آخرين تربطهم أواصر لطيفة داخلية لا تخفى إلا على الناقد السطحي

أحب الاستاذ ان يؤيد هذه النظرية فاخذ مثلاً لذلك شاعرية أبي العتاهية وبعد أن ذكر لمحة قليلة من حياته المضطربة ومصادر شعره وأقوال بعض مستشركي أوربا وشعرائنا الاقدمين كابن نواس وبشار بن بُرد وأبي تمام فيه ، انتقل الى شعر أبي العتاهية وبيان ما امتاز به عن غيره من شعراء عصره أو من سبقه ثم ذكر المراحل الشعرية، التي قطعها متأثرة بجذبات الشخصية وبين أسباب انتقاله الفجائي من الدنيويات الى الزهديات وكل ذلك بأسلوب طبيعي مقبول لا تعقّد فيه ولا عوج. وهذا البحث جدير بان ينقل الى العربية ليقف منه القارئ العربي ليس فقط على آراء الاستاذ الناضجة بل على أسلوب بحثه وهو الاهم، لانا لا نزال في حاجة ماسة الى معرفة أساليب الغرب العلمية اذ لا علم بدون أساليب علمية بل العلم نفسه هو الاسلوب

٢ — المتنبي وابو العلاء المعري

وهو بحث تمتع دقيق (ظهر في سنة ١٩٠٩ في ٢٥ صفحة) في ما كان لابن الطيب من التأثير في فلسفة أبي العلاء وشعره وبالاخص في فلسفة التشاؤم الغالبة في شعر فيلسوف معرة النعمان وفي آرائه الدينية . وهذا البحث جديد لم يسبق اليه أحد قبل الاستاذ كراتشكوفسكي

ابتدأ الاستاذ بحثه بذكر شيء قليل من سيرة المتنبي معتمداً في ذلك على ما كتبه عنه الثعالبي والواحدي والعقري وغيرهم ثم استشهد ببعض أشعاره وأقوال معاصريه ومن أخذ عنهم في مذهبه وعقائده فلما ثبت عنده ان أبا الطيب كان يميل الى التشاؤم وبشك في بعض العقائد والشعائر الدينية أخذ يقابل بين آرائه وأقواله وبين آراء أبي العلاء المعري مستنداً في ذلك الى ما وصل الينا من كتب فيلسوف المعرة وبالاخص الى شرحه لديوان المتنبي المعروف «بمعجز احمد». على انه يظهر من مطالعة هذا الشرح ان أبا العلاء وضعه في صباه قبل أن يظهر كفره او تردده في بعض العقائد الدينية كالبعث والدينونة وخلود النفس وغيرها، ولهذا تراه في شرحه هذا يكفر أحياناً أبا الطيب لبعض أشعار وردت في

ديوانه أوعر بهامر الكرام أو يتمحل لها معاذير باطلة وغير طبيعية كما ترى في الامثلة الآتية:
قال المتنبي

أنا مبصر وأظن أنني نائم من كان يحلم بالاله فاحلما
« يقول أنا مبصر بعيني وأظنني نائماً من استعظام ما رأيت من هذا الرجل من العظام،
والامور العجائب . ثم قال من كان يحلم بالاله فاحلم أنا أيضاً أي أنه لا يمكن أن يرى في
النام لأنه لا يشبه شيئاً فشبهه هذا الممدوح بما لا يجوز التشبيه به وهذا افراط منكر قريب
من الكفر وقيل أن في الكلام حذفاً ... »

وقال: واهر آيات التهامي أنه أبوك وأجندى ما لكم من مناقب
« يقول عني بالتهامي النبي (صلعم) كونه أباك ولكم مناقب كثيرة وكون
النبي جدك وأناك أجندى تلك المناقب وهذا في الظاهر يوجب تفضيله على سيد الخلق ...
وذكر ابن جنس أن أبا الطيب كان يتعسف في الاحتجاج له والاعتذار بما لست أراه
مقنعاً فأعرضت عن ذكره ... »
وقال أيضاً :

يرشفن من في رشفات هن فيه أحلى من التوحيد
« يقول أن هذه النسوة يمحصن من في مصات بمثلن التي هن — يعني الرشفات —
في في أحلى من حلاوة التوحيد . . وهذا أحد ما ينسب المتنبي لأجله الى الكفر
حيث جعل الرشفت أحلى من التوحيد . . وقيل التوحيد نوع من أنواع البلع بيلاد الحجاز
وهذا قول ضعيف وقيل أنه المعشوق بماشقه »

.... وأهم من ذلك وأقوى في الدلالة على حرية أبي الطيب في أمور الدين وتشاؤمه
وتأثير كل ذلك في فلسفة أبي العلاء في دوره الثاني هي قصيدته المعروفة التي يجوز أن
تعد آية في التشاؤم ونموذجاً في الزهد عن الدنيا وأهلها ومنها :

اذم الى هذا الزمان أهيله فأعلمهم قدم واحزمهم وغد
واكرمهم كلب وابصرهم عم واسهدهم فهد واشجعهم فرد
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له مامن صدائقه بد
بقلي وان لم أرو منها ملالة وبني عن غوانها وان كثرت صد
خليلي دون الناس حزن وعبرة على فقد من أحببت ما لها فقد

وقد عزز الاستاذ رأيهُ في تأثر أبي العلاء بأفكار أبي الطيب وفي ما كان بينهما من
القراءة الروحية بقصيدتين للمتنبي من أشهر قصائده وهما :

قد علمَ البين منا البين أجفانا تدمى وألف في ذا القلب احزانا الخ
و نعد المشرقية والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال الخ

فقابل بين ما جاء في هاتين القصيدتين من التشاؤم والزهد في الدنيا وأهلها وبين فلسفة أبي العلاء المعروفة ثم استنتج من هذه المقابلة نتيجتين لاريب فيهما وهما أن أراء أبي العلاء المعري لم تهبط عليه من السماء دفعة واحدة ولا هي كلها من مبتكراته بل إنما نمت في نفسه وعقله نمواً تدريجياً بفعل عوامل ومؤثرات عديدة . وان شهرة أبي الطيب وشغف الناس بشعره الى هذا اليوم يرجعان ليس فقط الى مائة ألفاظه وفصاحة عبارته كما يعتقد البعض بل الى معاني أشعاره وما فيها من روح التشاؤم والتردد في بعض أمور الدين المسلم بها جهلاً

٣- « الرومان » التاريخي في الآداب العربية العصرية

افتتح الاستاذ هذا البحث الطريف (١٩١١ في ٣١ ص) بمقدمة تمهيدية عن الرومان (القصة) عند العرب في العصر السالفة السابقة للعصر التاسع عشر والعشرين ثم تكلم عن ظهور القصة الحديث في أمنا العربية مبتدئاً بذكر بعض الروايات والقصص التاريخية المنقولة عن اللغات الاجنبية الغربية أو التي وضعها كتّابنا تحت تأثير الروايات الغربية كالتي وضعها اديب اسحاق و خليل اليازجي وحبيب الحداد وشاكر شقير البتلوني وغيرهم . وكل ذلك في عبارات قليلة لكنها كافية لأن تكون في ذهن القارئ صورة واضحة لسير القصة عندنا حتى سنة ١٨٩١ . وهي السنة التي ظهر فيها اول قصة تاريخية بمعنى هذه الكلمة العصري للمرحوم جورجى زيدان الذي بعده الاستاذ ابا القصة التاريخية عند العرب

بعد أن ابان الاستاذ ما مؤسس القصة التاريخية عندنا من الفضل على الآداب العربية اخذ يحلل رواياته التاريخية تحليلاً دقيقاً يتناولها من جميع الجهات ويبين ما لهذه الروايات من حسنات وسيئات وما أحدثته من الاثر في الوسط العربي والقارئ الشرقي على الاطلاق . ثم بسط أثرها في سير هذا الفن الجديد في البلاد العربية . وهذه خلاصة ما قاله صاحب اليوبيل في بيان مقام مؤسس القصة التاريخية عندنا : لقد احسن المرحوم جورجى زيدان في اختيار مواضع رواياته من تاريخ امم العربية الحافل بالحوادث العظيمة

التي يستطيع الكاتب المقدر ان يبي عليها ما احب من انواع الروايات كالدراما والتراجديا والكوميديا الخ كما انه اجاد في تفضيل القصة على غيرها من انواع القصص او الروايات الغنيلية لان فيها مجالاً واسعاً لوصف الوسط وأثره في الحوادث التي يريد ان يمثليها . اما اساليبه التي يستعملها في رواياته وزعاته فهي من نوع تلك الاساليب والمدرسة الانكليزية . التي تعرف بها المدرسة الفرنسية الرومانية لامن نوع اساليب المدرسة الانكليزية . اي ان مؤسس القصة التاريخية عندنا اقرب الى « المدرسة » الواقعية *realiste* التي بنى رواياتها على الحقائق الواقعة المشاهدة منه الى المدرسة الانكليزية القديمة مدرسة دلتسبر سكت واتباعه التي تعتمد كثيراً في تفسير الحوادث الى الاستعانة بالقوى التي فوق الطبيعية . ولكل من هاتين المدرستين حسنات وسيئات ليس هنا محل بيانها . على انه لا بد من الاشارة الى ان في روايات اصحاب المدرسة الواقعية ضعفاً ظاهراً في وصف العواطف والعالم الداخلي على الاطلاق ووصف الطبيعة وجمالها . وهو ما زام ايضاً في روايات المرحوم جورجى زيدان . والاستاذ يعزو ذلك الى طبيعة الكاتب الذي يصح ان يقال فيه « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » فهو على ما نعلم لم يتعاط نظم الشعر ولا كان يميل اليه وذلك شأن اكثر العلماء الحقيقيين الوضعيين . ولهذا ايضاً يرى الاستاذ ان الروايات الاولى من روايات مؤسس « الهلال » اقرب الى التاريخ منها الى « القصة » التاريخية الا ان ما تفقده هذه الروايات من الجهة البسيكولوجية والفنية تكسبه من جهة اخرى اعني انها تصور الحوادث تصويراً حقيقياً طبقاً للواقع كما ارتسم في ذهن الكاتب لا طبقاً للخيال الشعري او القصصي الذي تليده مخيلة الكاتب . وفوق ذلك فان الطريقة التي اتبعها جورجى زيدان تدل على فهم صادق للغاзи التاريخية والادبية وتساعد على ادراك الروابط بين الاسباب والمسببات . ولا شك ايضاً في انه رفع برواياته التاريخية دع عنك سائر مؤلفاته مقام الآداب العربية في اعين المستشرقين واعين الطبقة الراقية من القراء

ويزيد في شأن الروايات المذكورة انها احدثت تأثيراً بيناً في البلاد العربية وحركة « روائية » طيبة كما يظهر من فحوى اسماء بعض روايات ظهرت بعد ذلك كرواية « اليهودية الحسنة » لعبد المسيح الانطاكي « وصهيون الجديدة » للمرحوم فرح انطون واخرى لغيرهما من اخذ يقلد روايات جورجى زيدان التاريخية وليس له مقدرة التصويرية ولا معارفه التاريخية والادبية . على ان تأثير روايات ابي القصة التاريخية ما زال ينمو ويرسخ واملنا ان ينتهي بتأسيس « مدرسة للقصة التاريخية » عندنا



اعظم الحوادث في التاريخ

للكاتب الاميركي ول دورانت

مؤلف « قصة الفلسفة » و « عصور الفلسفة »



طَلِبَ اليَّ ان اختار اعظم التواريخ في سيرة الانسان. وحصرها في اثني عشر تاريخاً. وهو عدد قليل لن أرضي لتلميذ من تلاميذي ان يقع به. أما عدد التواريخ التي يجب ان يعرفها كل انسان فمسألة تتوقف على عمله وأغراضه من الحياة. فقد يستطيع فلاح ان يقوم بكل ما يطلب منه على خير منوال، وان ينشئ أسرة أفضل تنشئة من غير ان يعرف تاريخاً واحداً، الا تاريخ السوق العامة المقبلة. ولكن رجالاً تهمة شؤون الحياة العقلية، يجب ان يعرف من تسلسل حوادث التاريخ، ما يمكنه من وضع الحوادث في مكانها الصحيح، وبذا يفوز بالنظر المشارف الى شؤون الحياة وال عمران، وهذا النظر هو السبيل الوحيد الى الحكمة والفهم

ان رجلاً كهذا يجب ان يكون قادراً ان يعين القرن — لا السنة بالضبط — الذي حدث فيه المحترعات والمكتشفات العظيمة مثل البارود والطباعة والآلة البخارية والمحرك الكهربائي واكتشاف امريكا. ويجب ان يعرف القرون التي عاش فيها كبار رجال السياسة امثال همورابي وموسى وصولون وبركليز والاسكندر وقيصر ولويس الرابع عشر وبطرس الكبير وفردريك الكبير والملكة اليصابات ودزرائيلي وغلادستون وبسمارك وكاثور ووشنطن ولنكن ومحمد علي — والقرون التي عاش فيها اعظم العلماء والفلاسفة امثال — كنفوشيوس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وكوبرنيكس وفرانسيس باكون واسحق نيوتن وسينوزا وفولتير وكانت وشوبنهاور وداروين — والقرون التي ظهر فيها اعظم القديسين — امثال اخناتون ولاؤتسه وأشعيا وبوذا والمسيح ومحمد ومرقس اوريلوس واغسطين والقديس فرنسيس الاسيزي ولوثيروس وغاندي

وعلى الرجل الذي تهمة الشؤون العقلية ان يعرف القرون التي عاش فيها اعظم الشعراء — هوميروس وصاحب الزامير وبوريديس وفرجيل وهوراس ولي تاي بو والمعري ودنتي وشكسبير وملتن وغوته وبوشكين وكتس ويرون وشلي وهوغو وبو وهو من وطاغور — والعصور التي عاش فيها اعظم الموسيقيين امثال باخ وهندل وموزار ويتوفن ولست وشوبان وتشايكوفسكي وفردى ووغر وبادرفسكي — وعصور الكرنك والاهرام وبراكستيلس وفيدياس و«توتسو» وسسسيهيو والتاج مهال وليوناردو ده فنشي ورفائيل وميخائيل

انجلو ورمبرانت وفاندنيك — وعظيمات النساء مثل الملكة هتشبسوت ومدام كوري وقد اُهملت أسماء كتاب النثر لثلاث أصبح المقال مثل دفتر التلفون ، وكل قارئ يستطيع أن يبني لنفسه باثنيونه الخاص وينقش على جدران أسماء العظام في نظره . ولكن اذا قضي على الانسان أن يعيش على جزيرة فكرية منقطعة ، وسمح له أن يحزم مع أمته اثني عشر تاريخاً ، فهذه التواريخ يجب أن تحوي فيما تتضمنه من المعاني اصول تاريخ البشر واعظم مراحلهم . فيكون كل تاريخ منها مركزاً تدور من حوله حوادث ومعاني وتواريخ هي في مجملها أهم خطوات الانسان من الظلام الى النور والتواريخ التالية ليست الا اثني عشر تاريخاً يرى الكاتب انها تصح أن تكون هذه المراكز



١ — (٤١ ٤٢ ق. م.) **التقويم المصري** يعتقد اسقف أسشمران العالم خلق سنة ٤٠٠٤ ق. م. فالتسليم

بما يقوله علماء الآثار من وجود تقويم في وادي النيل سابق لتاريخ خلق العالم بمائتين وسبع وثلاثين سنة كافٍ لان يصدد اتباع الاسقف ويقلق نفوسهم أما المعاني التي تدور حول تاريخ استنباط التقويم المصري فلا تحصى . تدبر ارتقاء علم الفلك والرياضيات الذي تقدم التقويم . وتصور المدى الطويل الذي يجب أن تستغرقه حضارة قديمة كالحضارة المصرية قبلما يتاح لرجال فيها ان ينفصلوا من العراك الاقتصادي لتخطيط السماوات وتعيين مواقع النجوم . والتقويم المصري اذا قوبل بتقويمنا لا ينقص كثيراً عنه ابداعاً وقرباً من الواقع العملي . فالسنة قسمت الى اثني عشر شهراً ، كل شهر منها ثلاثون يوماً ، ثم تضاف في نهاية الشهر الاخير خمسة أيام تكمل السنة . ثم هي تمثل لنا ثلاثة آلاف سنة من حضارة ذات تاريخ مدون وحكومة منتظمة وأمن عام شامل للحياة وللأملاك ، ورعاية للجسد وثقافة للعقل والروح . انها تمثل خوفو وهرم الأكبر ، ومخطس الثالث باني الكرنك ، واختاتون الذي باع مملكته بانشودة (اشارة الى الثورة التي نشبت على أثر ترتيبه توحيدية نظمها) وكليو باطرة التي قادت انطونيوس مرغماً الى حتفه



٢ — (٥٤٣ ق. م.) **وفاة بوذا** لا أعرف روحاً أخرى ابعد أثراً في الهند من روح بوذا . وليست العبرة

بأن بضعة من ملايين الخلق يؤمنون ببوذا اليوم اذ الواقع ان البوذية في حالتها الراهنة ليست إلا مجموعة من الخرافات والاساطير لاحقاً لها في الانتساب الى بوذا أكثر من حق بعض

العقائد المسيحية في الانساب الى المسيح. على ان بوذا يمثل الهند، وروح الهند تتجلى في الدين اكثر من تجليها في العلم، وفي التأمل بدلا من العمل، وفي اللطف الاخوي لا في تطبيق الرياضيات على المدافع، او الكيمياء على المتفجرات

قال بوذا ان الحياة حافلة بالالم ولا يستطيع احتمالها الا باجتنب الاذى لحي اينا كان وبالبعد عن النعمة والوقية في أي انسان او امرأة. فعسى ان تكون هذه الروح الحية الساذجة قائمة من وراء مجموعة الحرافات التي يعمر بها عقل الهندي في هذا العصر. فلنأخذ اسم بوذا رمزا لبعث حضارة، انجبت رغم كل ظلم وعبودية، نوابغ وقديسين من بوذا الى الى اسوكا الى غاندي الى طاغور



ولا بد لنا من رمز يمثل

الصين — الصين العظيمة التي

٣ — ﴿ ٣٧٨ ق.م ﴾ وفاة كنفوشيوس

يدعوها ابناءؤها « كل ما تحت الشمس » ، والصين القديمة التي ما زالت تدون تواريخ ملوكها واعمالهم منذ اربعة آلاف سنة الى الآن. واني لاغتنم هذه الفرصة لاعرض على نظر القارئ فقرة من كتابات كنفوشيوس، فانها تحتوي على حكمة خالصة من الشوائب وهي من كتاب « المعرفة العظيمة » قال :

ان الاقدمين الاجاد كانوا اذا ارادوا ان يوضحوا الفضائل السامية وينشروها بين الناس ينظمون احوال ممالكهم . وقبل ان ينظموا احوال ممالكهم كانوا ينظمون احوال اسرهم . وقبل ان ينظموا احوال اسرهم كانوا يهذبون اخلاقهم . وقبل ان يهذبوا اخلاقهم كانوا ينقون نفوسهم . وقبل ان ينقوا نفوسهم كانوا يحاولون ان يكونوا صادقين ومخلصين في تفكيرهم منزهيين في اغراضهم . وقبل ان يكونوا صادقين ومخلصين ومنزهين، كانوا يوسعون معارفهم . وتوسيع المعرفة كان يجيء عن طريق البحث والمشاهدة . شاهدوا الاشياء والافعال . فاكتملت معارفهم . ولما اكتملت معارفهم ، خلصت افكارهم وتزهت اغراضهم فهذبوا اخلاقهم فتنقت نفوسهم فانتظمت اسرهم . ولما انتظمت اسرهم انتظمت دولهم واصبحت الارض كلها ترح في السعادة والوثام

ولما كنا مرائين في الفكر ، ونرفض أن نرى الاشياء على حقيقتها (كالديمقراطية مثلا والزواج والاستعمار ونظام الطبقات في أوربا واميركا) فنحن لسنا مخلصين في تفكيرنا . ولما كنا غير مخلصين في تفكيرنا فيتعذر علينا أن نبلغ بنفوسنا مراتب الكمال وأن ننظم حياتنا .

ولما كنا لا نستطيع أن ننظم حياتنا الشخصية فلا نستطيع أن ننظم أسرنا . وإذا فذلنا
في حالة اضطراب وفوضى ! هذا هو الدرس البسيط الذي يلقيه علينا كنفوشيوس !
انني أحسد أولئك التلاميذ الصينيين الذين كان يفرض عليهم أن يحفظوا أقوال كنفوشيوس
عن ظهر قلب . فقد وجدت كل سطر من سطورهم يصل الى صميم الحقيقة وفي الوقت نفسه
يمكن تطبيقه . وإذا أدخلوا الى نفسي أقول لو أن بعض هذه الحكم طبع في نفسي من عشرين
سنة لكنت فزت باتساق النفس ، والكرامة الروحية ، والفهم المهادي ، والخلق المتين ،
والادب الخالص — وهي الصفات التي يتصف بها الصينيون المثقفون الذين عرفتهم . أنا
لا أعرف رجلاً طبع أمة بطابعه كما طبع كنفوشيوس أمة الصين . فلتتخذ تاريخ وفاته
رمزاً وحافزاً . ان هذا الرمز ينطوي على القصائد الغنائية البديعة التي نظمها شعراء دولة
« تانغ » الصينية ، وصور المشاهد الطبيعية المتسمة بسمه التصوف والشوق ، والآنية
الصينية الكاملة شكلاً وزخرفاً ، وحكمة حكماء الصين وفلاسفتها — ان حضارة من أعظم
الحضارات القديمة تلخص في اسم كنفوشيوس



لما قضى سُقراط بالسم الذي

تناوله أنقضى كذلك عصر من

٤ — ﴿ ٣٩٩ ق . م . ﴾ وفاة سُقراط

أخذ العصور في تاريخ الناس — عصر بركليس . ولكنني الآن لا أشير الى الفلسفة والحكمة
فقط ، بل أرى وراء سُقراط السيبايدزومأساة الحروب البلوبونيزية . وأرى اسبازيا ، الخلية
العالمية التي جلس بركليس عند قدميها . وأرى بركليس يجمع حوله الاغنياء ويقنعهم بأن
ينفقوا المال على تشجيع الدراماة الاثينية . وأرى يوريبديس يتبارى مع صوفكليس للفوز
بجائزة الادب الدرامي في مسرح ديونيسوس . وأرى اكتينوس يخلق في فكر البارثون ،
وفيدياس ينحت الآلهة والابطال في افريزم . وأرى افلاطون الشاب يفوز بالجائزة في
الالعب البارثينية — ذلك كان عصرًا فذاً في التاريخ ، اذ تحررت أمة بأسرها ، من قيود
الخرافات ، وابدعت في العلم والدرامة والديمقراطية والحرية ، ما نقل عنها الى روما واوروبا
فكان منه نصف تراثنا العقلي والفني



قيل وفاة برانديس ، الناقد

الدنماركي العظيم ، زاره كاتب اميري

٥ — ﴿ ٤٤ ب . م . ﴾ مصرع فينسر

فألفاهُ كسف الببال فقال له ما بك ، فقال ألا تعلم أنه في مثل هذا اليوم من سنة ٤٤٤ ب . م . ارتكبت أعظم هفوة في التاريخ ؟ !

كان في امكان هذا الناقد ان يجد هفوات اقرب اليها من مصرع قيصر كزيمة نبوليون في معركة واترلو . ولعلهُ بالغ بعض الشيء في وصف هفوة بروتس . فنحن لا نريد ان نذكر قيصر شخصياً هنا ، بل التحول الذي اى على الامبراطورية الرومانية بعد مصرعه — نريد أن نذكر إعادة تنظيم القوانين الرومانية في عهد اغسطس على الاساس الذي وضعه قيصر ، وازدهار الفنون والآداب في عصر السلام كما يبدو في شعر فرجيل وهوراس ونثر بلينيوس وطاشيتس وفلسفة ابكتيتوس واوريليوس ، وتجميل الفورم بمبانٍ وتماثيل كلها قوة وابداع ، وبناء الطرق الرومانية التي كانت مسالك الرومان الى تشييد الامبراطورية . وكما يلخص لنا موت سقراط عصر بركليس — وهو عصر اثنينا الذهبي — يلخص لنا مصرع قيصر حالة روما وقد وقفت على عتبة عصرها الذهبي



لا يعرف أحد هذا التاريخ معرفة مضبوطة . وهو في نظرنا
٦ — ولادة المسيح (الكاتب) أهم التواريخ على الإطلاق ، لأنه يشطر مجرى التاريخ في الغرب الى شطرين ، ويهينا أعظم ابطالنا ومثّلنا العليا ، ويعلن مقتتح العصر المسيحي



في هذه السنة — السنة الهجرية
٧ — ٦٣٢ ب . م . وفاة محمد العاشرة — غادر محمد هذه الارض بعد ما انشأ ديناً اكتسح افريقية من القاهرة الى مراکش ، وجنوب أوربا في تركيا وأسبانيا ، ونصف أسبانيا من القدس الشريف الى بغداد الى طهران الى دلهي — وسيطر عليها قروناً هذا عددها . واذا صرفنا النظر عن الحروب التي سارت في ركابه أو أثره ، وجدنا أنه دين شريف ، دين توحيدي صارم ، ينبذ الصور والكهنة وتعدد القديسين . دين يبني الخلق القوي بعقيدة القضاء والقدر ، ومراعاة الحروب . دين بني في قرطبة وغرناطة والقاهرة وبغداد ودلهي ، جامعات وثقافات . دين منح العالم حاكماً من اكبر حكامه — اكبر الهندي — وزين أسبانيا ومصر والقسطنطينية وفلسطين والهند بعمارته الرشيدة النبيلة من قصر الحمراء الى التاج مهال — كان المسلمون يبنون كنياسة ، ويتقنون عماراتهم كصوآغ . واليوم ، رغم تفرقهم السيامي ، زراهم يزدادون عدداً وقوة . ففي الهند والصين ، يجد معتقدين جدداً لديهم كل ساعة من كل يوم — ولا أستطيع أن أجزم بان المستقبل ليس لهم

٨ — (١٢٩٤ ب. م) وفاة روجر بايكون

يصحُّ اتخاذ هذا التاريخ

رمزاً لاستعمال البارود أولاً ،

لأنَّ المرجَّح أن هذا الراهب الانكليزي هو الذي اخترعه . فروجر هو أول من وصف البارود وصفاً مدقّقاً ، والبارود مهّد للطبقات المتوسطة في بلدان أوروبا سبيل التفوق على الأمير القديريّ بإطلاق القنابل من مسافةٍ على قلعتيه التي كانت — الى ذلك الحين — لا تُنال . والبارود جعل للمشاة مقاماً في الحرب كمكان الفرسان . فصار للرجل العاميّ هبة جديدة في الحرب ، وقوة جديدة في الثورات . وهو البارود الذي حوّل الحرب من معارك بين السراة — ممّية أحياناً — الى وسائل منظمة للتقيل العام . ولعلّ هذا التاريخ هو اهمّ حدث في تاريخ سقوط الانسان — الا اذا استثنينا تاريخ اختراع التفكير ، اذا انفصل العقل عن الفطرة — على ما يقول الساخرون



كان الالمان قد استعملوا الطباعة

بحروف نقالة قبل ذلك بأربع عشرة سنة .

٩ — (١٤٥٤) مطبعة غوتنبرج

وكان الصينيون قد استعملوا هذه الطريقة للطباعة سنة ١٠٤١ ق . م . وفي سنة ١٩٠٠ ب . م . اكتشف كتاب صيني مطبوع بها سنة ٨٦٨ ق . م . فلا جديد في الصين — حتى ولا الديمقراطية ! انهم استنبطوا البارود ولكنهم لم يستعملوه الا للالعاب النارية . واستنبطوا الطباعة ولكنهم لم يستعملوها لانشاء الصحف السخيفة وطبع روايات الجرائم اما في الحضارة الغربية فقد تعاونت الطباعة مع المال والبنادق على تحرير الطبقات الوسطى ، والاتيان على خاتمة حكم الفرسان والكهنة . ومكنت الناس من قراءة التوراة ، فكانت بذلك اصلاً من اصول الاصلاح الديني . ووسعت نطاق الدائرة التي يستطيع كاتب من الكتاب ان يبيث افكاره وآراءه فيها . انها حوّلت صناعة الكتب من الرهبان الى الطابعين والناشرين ، ومطالعة الكتب من انحصارها في النبلاء ورجال الكنيسة الى اطلاقها بين العامة ، فهتدت السبيل للبروبغنده وانما الديمقراطية والفكر الحر

قيل ان نبوليون صرّح ان ملوك البوربون كانوا يستطيعون المحافظة على ملكهم ، ومنع الثورة الفرنسية لو انشأوا احتكاراً حكومياً للحبر . ولكن يظهر ان المقدرة على المطالعة اصبحت طائفاً دون الحصول على الحقيقة في هذا العصر . ونحن لا ندرى الا ان هل الطباعة خيرٌ خالص او هي خيرٌ ممزوج بشيء كثير ، وهل اتساع المعرفة والعلم اضعف الخلق بقدر ما حشا العقل ! (وهذه سخرية من الكاتب يوجهها الى الكتب والصحف السخيفة التي لا تحصى والتي تخرجها المطابع كل يوم)

لما اكتشف

كولمبوس اميركا قضي

١٠ — (١٤٩٢ ب. م.) كولمبوس مكتشف اميركا

على عهد النهضة الايطالية (Renaissance) بتحويل طرق التجارة من البحر الابيض المتوسط الى المحيط الاثنتيني. فأنشأت اسبانيا اولاً فظهر فيها اعلام ادبها وفنها — فلاسكين وسرفانت وموريلو وكالديرون — ثم انكلترا فانجحت شكسبير وملتن وبايكون وهيز — وهولندا فاخرجت رمبراندت وسبينوزا وروبنز وفانديك — وفرنسا فهذا رابليه وموتين . واذ مات ميخائيل انجلوس سنة ١٥٦٣ وولد شكسبير سنة ١٥٦٤، كان ذلك انذاراً بانتهاء عصر النهضة في ايطاليا واستهلاله في انكلترا . فاكتشف اميركا اشترك مع الاصلاح الديني في وضع حد لمكانة ايطاليا في التاريخ الى مدى . ثم فتحت بلدان العالم الجديد فانفسحت فيها ميادين واسعة لهجرة الاوربيين ، وأسواق لبضائعهم . وهذا هو سر تقدم أوروبا سعة في ثروتها وبسطة في سلطانها ، فافتتحت أفريقيا وآسيا واستراليا واستعمرتها . ثم أن تاريخ اميركا بأسرها ، وتجاربها في الحكومة الشعبية ، والتعليم العام ، كان كامناً في رحلة كولمبوس سنة ١٤٩٢



نحسب هذا

الحادث مستهلاً

١١ — (١٧٦٩ ب. م.) جيمز واط والآلة البخارية

الثورة الصناعية. كان هيرو Hero الاسكندري قد صنع آلة بخارية سنة ١٣٠ ق. م. وتلاه دلاً بورتا وسافري ونيوكن ، فاضافوا اليها اضافات مفيدة سنة ١٦٠١ و١٦٩٨ و١٧٠٥ ولكن عمل واط كان حجر العقد الذي تمت به القنطرة

والواقع أن ثمة حادثان اساسيان في تاريخ الانسان هما — الثورة الزراعية التي انتقل فيها الناس من الصيد الى حرث الارض فاستقروا وبنوا بيوتاً وأنشأوا حضارة . — والثورة الصناعية التي قضت على ملايين من العمال في انكلترا اولاً ثم في اميركا والمانيا وفي ايطاليا وفرنسا واليابان والصين والهند ، أن يغادروا بيوتهم للازدحام في المدن الصناعية والمعامل . انها حوّلت المجتمع والحكومة بتقليد السلطة لاصحاب المعامل وملوك المال والتجارة بدلاً من اصحاب الاطيان واصحاب الالقب . وحوّلت العلم بيعث العلم ومعجزاته العملية . وحوّلت العقل باستحداث حوافز جديدة للتفكير . وحوّلت حال المرأة بنقل ميدان عملها من البيت الى المصنع ، وحوّلت الآداب بتعقيد الحياة الاقتصادية وتأخير سن الزواج وتحرير المرأة وتقليل عدد الأولاد وازعاف السلطين الوالدية والدينية كل هذه المعاني، يتضمنها ذلك الاختراع، اختراع جيمز واط — انه ينطوي على الرأسمالية

والاشتراكية. وكذلك على النزعة الاستعمارية التي لا بدَّ منها إذ تصبح الامم صناعية تتطلب أسواقاً لمصنوعاتها وطعاماً لا بناؤها، وعلى الحروب في سبيل هذه الاسواق والغذاء والثروات التي تتجم من هذه الحروب — ان الحرب الكبرى، بل تجربة روسيا الواسعة النطاق، معنيان مستمدان من الثورة الصناعية. فسنة ١٧٦٩ تمثل العصر الحديث



ونحن لا نذكر الثورة

الفرنسية لأننا نعتبرها حادثاً

١٢ — ٨٧٩ ب. م. ✱ الثورة الفرنسية ✱

فرداً في التاريخ له خطرُهُ الذي لا يقاس اليه خطر، بل نذكرها لأنها في نظرنا توقيع التاريخ على حقائق اقتصادية ونفسية ظلت تتجمع قروناً متوالية قبل ذلك. ولعلها بدأت سنة ١٥٤٣ لما نشر كوبرنيكس كتابه في « دوران الاجرام السماوية »، لأنَّه في تلك السنة خسف نور الآلهة وبدأ عهد تحرير الانسان. واذ رأى الانسان نفسه منبذاً على سطح الكرة، واذ تعلم ان الانسانية اما هي فترة من فترات البيولوجيا، والبيولوجيا خلجة من خلجات الحيولوجيا، والحيولوجيا لمحة من لمحات الفلك، علم ان لا بدَّ له من أن يشقَّ طريقه بنفسه فبدأ يفكر. وهكذا انطلق الفكر وحارب حروبه حتى أصبحنا وعصرُ كامل من العصور ينسب الى كاتب، وحتى صرَّح فولتير: « ليس لي صولجان ولكن لي قلماً » ولا يسعني الا ان اعجب « بعهد التنوير » في فرنسا. فاني احسبه اعلى قمة بلغها التاريخ الانساني، اعلى من اثينا في عهد بركليس ومن روما في عهد اغسطس ومن ايطاليا في عهد المديتشي. لم يسبق لنا عهد في التاريخ، اجتمعت فيه جرأة في التفكير، والمعية في الاعراب، وسمو في الثقافة والادب، كما اجتمعت لهذا العهد. قال لويس السادس عشر واقفاً في سجنه امام كتب فولتير وروسو — « هذان هما الرجلان اللذان دمَّرا فرنسا ». نعم انهما دمَّرا فرنسا القديمة ولكنهما حرَّرا فرنسا اخرى — دع عنك تحرير اميركا بواسطة تلاميذها وشطن وفرنكان وجفرسن

هذا جلُّ ما استطيعه في الاختيار، عالماً ان تلميذاً من تلاميذ كنفوشيوس او تابعا من اتباع براهما سوف يسخر من اختياري. فالاول يسأل واين تضع عهد « دولة تانغ » وهو من حيث حياة الادب والفنون جدير بان يقرن الى « عهد التنوير » في فرنسا. والاخر يقول وماذا فعلت « باكر واسوكا ». وكلُّ ما احبب به انني شملت الاول تحت اسم كنفوشيوس واسندت « اكبر » الى محمد و« اسوكا » الى بوذا. لا بدَّ من الاختلاف في هذه الشؤون ولذلك فدرس التاريخ — على قول نبوليون — اصدق الفلسفات واصحها



مجدو وآثارها

٨ - اسماء مجرو

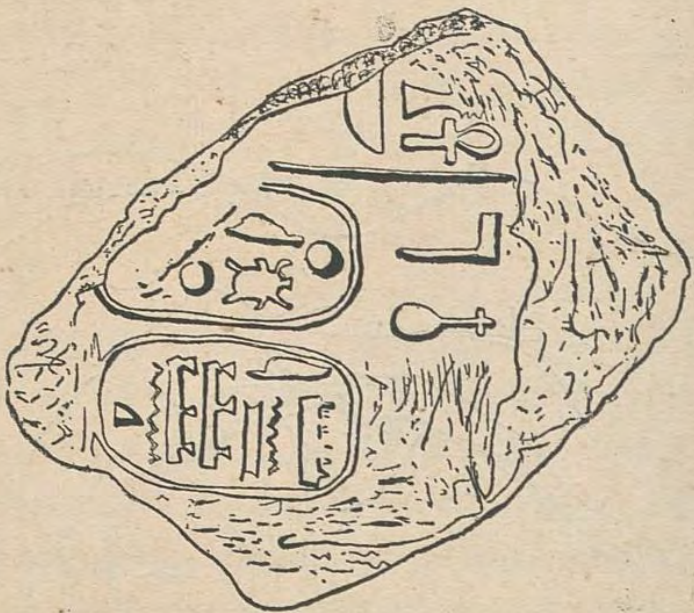
منذ القرن الرابع قبل الميلاد لم يسمع لمجدو ذكر ، واليونان والرومان لم يقيموا فيها قط ولم تظهر اعمال الحفر الا بعض قطع من الفخار عليها اثر النفوذ اليوناني . والظاهر ان مجدو ماتت بموت العبرانيين . ويعزو المسترغاي^(١) زوال مجدو الى انتشار مرض الملاريا المسبب عن كثرة المستنقعات التي كانت نتيجة لاهمال وسائل الري في تلك الجهة . فلما اصاب هذا المرض الناس هجروا المكان . ولكن لما كان لمضيق وادي عارة شأن تجاري وحربي كبير ، فان الرومان العسكريين لم يهملوا شأنه ، بل اقاموا على تلة تقابل مجدو فرقة عسكرية Legio «لحراسه» . وقد تركت هذه الكلمة اثرها في المكان فعرف منذ ذلك الحين باسم «ليجيو» عند مؤرخي الغرب وعُرب فصار «اللجون» ولا يزال يعرف بهذا الاسم الى يوم الناس هذا واتا نجد في الامر الذي اصدره البابا اسكندر الرابع في ٣٠ يناير ١٢٥٥ لائحة يحدد فيها وقفيات دير القديسة ماري في وادي يوشافاط (دير ستنا مريم في القدس اليوم) وبينها كنيسة اللجون واسقفيتها واعشارها و«اقطاعية تاينس» اي تعنك^(٢)

وفي السنة ١٧٩٩ كان نابليون يقود جيشه الى عكا فلما وصل صبارين اخترق طريق وادي عارة الى مجدو فمرج ابن عامر موازياً في سيره سفح الكرمل الجنوبي الشرقي الى عكا وكانت طريق مجدو الطريق التي سلكها اللورد التني في ١٩١٨ . وفي هذه الحوادث الثلاث الاخيرة نرى تتمة السلسلة التاريخية لمدينة مجدو التي تبدأ بامراء الكنعانيين لكن اجهل ما يدل على قيمة هذه البقعة العظيمة واثرها في تاريخ الشرق ان يوحنا اللاهوتي رأى ان اجتماع الملوك لقتال اليوم العظيم يتم في هذه البقعة المدعوة هرمجدون^(٣)

٩ - الحفر في مجرو

في السنة ١٩٠٤ بدأ المهندس الدكتور شوماخر الالماني الحفر في تل المتسلم (مجدو) باسم Deutchent Palasina Veriens و Orient Gesell schaft و تحت رعاية الامبراطور نفسه . وقد اختار مكانين (راجع الخريطة) واتبع في حفره طريقة الحفر

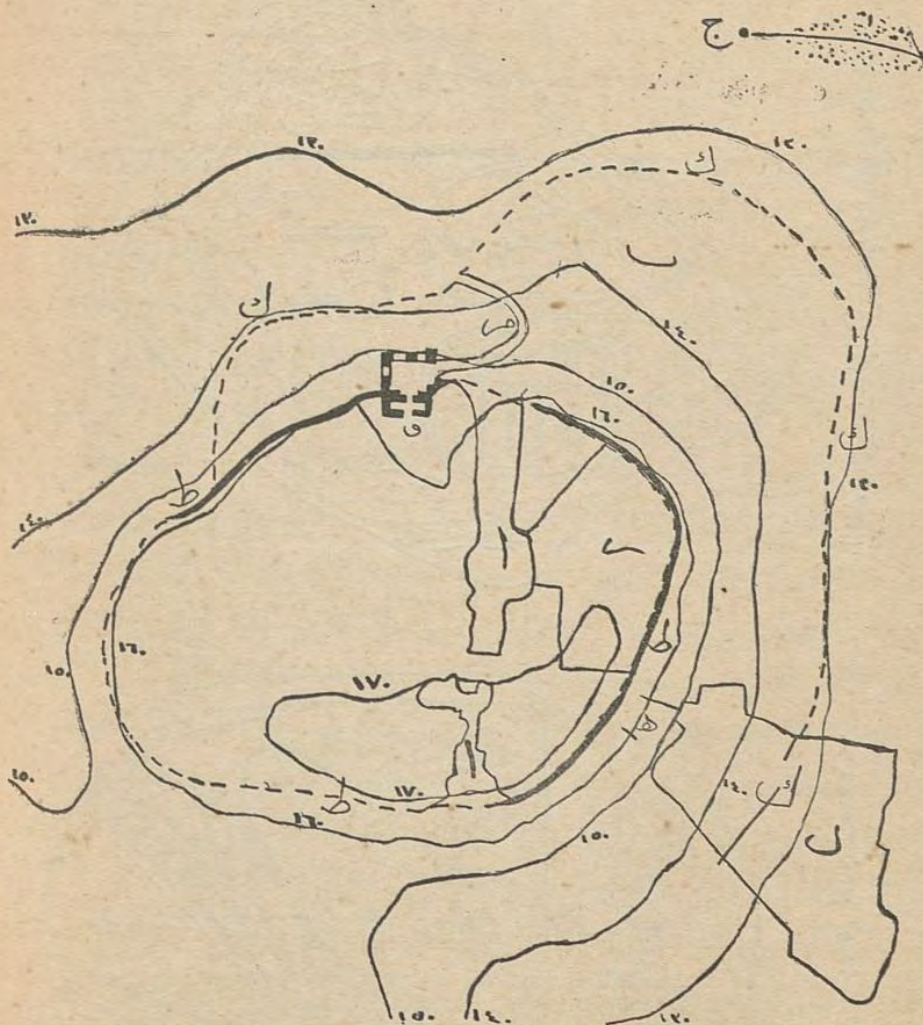
(١) رئيس بعثة مجدو الآن (٢) G.A. Smith, P. 387 (٣) رؤيا ١٦ : ١٦



القطعة التي عثر عليها من نصب شيشق في جبدو



صورة مكبرة للنص وجد في جبدو سنة ١٩٢٩



خريطة حفريات مجدو (تل المتسلم) في ١٩٣٠

(١) حفريات شوماخر (ب) منزل البعثة (ج) نبع القبة (د) المقبرة (هـ) اسطوانات
التفريغ (و) البوابة (ز) الهيكل والاسطبلات (ط) السور الداخلي (ك) السور الخارجي

العامودي . وقد وجد أن مجدو لم تكن ذات مدنية راقية ، حتى ليستغرب كيف استطاع طحتميس الثالث أن يحمل منها كل الأسلاب التي ذكرت في مدوناته . وأهم هذه الموجودات آثار ترجع الى العصر الحجري ، وصنان من « البازلت » . وأكبر الكتل قيمة خاتم من اليشب عليه صورة أسد فاغر فاه وفوقه باحرف عبرانية قديمة «ل شمعي» وتحتُه بالحروف نفسها « عبد يربعام » ويرجح أن يربعام هذا هو الثاني (٧٨٢ — ٧٤٣ ق . م) ^(١) وخاتم آخر من حجر لازوردي عليه كتابة بالهيروغليفية عديمة المعنى وأخرى بالعبرانية تقرأ « لاصاف »

ثم ترك شوماخر الحفر هناك

وفي السنة ١٩٢٥ بدأ المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو بالولايات المتحدة التنقيب هناك بإدارة الدكتور كلارنس فشر الذي عمل نحو سنة ونصف ثم خلفه المستر غاي في اول ايار (مايو) ١٩٢٧ . ولا يزال الدكتور فيشر يعمل كمستشار في البعثة ^(٢) والباحثون يتبعون الآن الطريقة الافقية في الحفر ، أي يتناولون طبقة بالتنقيب والدرس والتصوير والتخطيط حتى اذا انتهوا منها أزالوا التربة والحجارة ونفذوا الى التي تليها . وقد اتسعت مساحة العمل حتى شملت كل القمة اي نحو ٥٣٠٠٠ متر مربع . ويبلغ عدد الطبقات التي اخترقوها أو ينتظرون اختراقها سبعة ، وقد زيد في المستقبل . على أنهم فرغوا الآن من درس الثلاث الاولى وهم يعملون في الرابعة . والطبقات يتداخل بعضها في بعض كثيراً فيحيط العمل فيها مصاعب شتى . وسنتناول فيما يلي وصف الآثار التي عثر عليها التنقيبون ، بادئين بالقبور ودلالاتها والفخار وما يرشدنا اليه ، وأما كن التقدمة ، ثم نصف الطبقة الرابعة لأنها القسم الاساسي ومن ثم نتخلص الى علاقتها بالطبقتين الثالثة والخامسة

(١) نقل هذا الخاتم الى بيروت قاعدة الولاية اذ ذاك وارسل منها الى القسطنطينية طامسة الملك العماني وكان يظن انه اضيف الى الآثار القديمة المحفوظة في المتحف . الا انه بعد اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ وخلع المغفور له السلطان عبد الحميد ، ومحاولة الاتحاديين الاستيلاء على تقوده المودعة في المصارف الألمانية وحصولهم على سك برد الوديعية بتوقيعه المعروف ظهر ان هذه المصارف لاتسلم بها الا بعد ختم الصك بذلك الخاتم التاريخي كما كان قد اتفق عليه بين المودع والمستودعين . فعمل الاتحاديون السلطان على ختم الصك وتسليم الخاتم لهم لأنه من الآثار النادرة التي لاتقدر بثمن ووضعوا ايديهم على الوديعية التي قيل انها كانت نحو مليونين ليرة ذهبية . ولا يعلم غير الله ما اصاب هذا الخاتم الذي لو كان نقل الى متحف اجنبي لم ينته امره الى ما انتهى اليه ولظل هذا الأثر التاريخي الوحيد محفوظاً في احدى زواياه . براه العلماء ويستفيدون منه . (عبد الله مخلص ، عن « الآثار » السنة الخامسة ، ص ٣٦٥ — ٣٦٦ ، الحاشية) (٢) يعمل الدكتور فشر اليوم في الموصل

١٠ - القبور - اماكن النقرمة - الفخار

كان على فشر أن يبدأ الحفر في السفح الجنوبي الشرقي للتل ويدرسه ليبيء مكاناً للترتبة التي يتحتم ازالها عن القمة . وفي هذا المكان ، عثر على ما يزيد على مائة من القبور الصخرية التي كانت مدافن سكان مجدو من بدء عهد أهلها بها الى زمن هجرها وهذه القبور في كهوف صخرية ومغاور اتخذت من قبل مساكن للاحياء قبل بناء البيوت ، بدليل آثار الازميل الذي استعمل في توسيع هذه المغاور . ثم اتخذت مخابىء للموتى ، بعد السنة ١٣٠٠ ق . م . ، ونقرت في جنباتها نقر لكل ميت على حدة . وأعدت لبعضها فتحات عامودية منقورة في الصخر للولوج اليها . وفي الاخير منها عثر على تمثال حثي لشخص يحمل ترساً في احدي يديه وفأساً في الأخرى . ويعتقد فشر أنه تمثال محارب مع ان برستد يرى أنه تمثال « اله الحرب » . وفي هذه القبور الثلاثة ادوات صوانية من المناشير الى المكاشط

وهناك قبر وحيد يعود تاريخه الى القرن الرابع بعد الميلاد اي الى العصر البيزنطي الروماني ، وهو كل ما وجد في مجدو مما يعود الى عهد أحدث من عهد هجرها . وقد استعمل هذا القبر مرتين للدفن . فدفن فيه في أولها ثلاث جثث متلاصقة ، ومعها جرن مطحنة من البازلت ، وأوعية زجاجية كان أحدها للكحل ، وله مكحلة عاجية . وفي ثانيتهما اضيفت جثة واحدة فوق الجثث الثلاث الأولى ^(١)

وقد عثر غاي على قبرين في جانب السفح المرتفع . أولهما فيه جرة فيها عظام طفل . وهذه الجرار استعملت للدفن في جازر ، فقد وجد منها طائفة كبيرة هناك ^(٢) مدفونة في البيوت كما في مجدو . وقد اتخذ العلماء كثرة وجودها دليلاً على أنها كانت فخايا قربت للإلهة . لكن المستر غاي يرى أن المحبة الابوية هي التي أبقت هؤلاء في البيت بعد موتهم . ^(٣) وعلى ذكرها نقول أن سكان بين النهرين الأولين كانوا يدفنون موتاهم في البيوت

وثانيهما قبر امرأة وطفلين ، والمرأة منقبضة مضطجعة على جنبها الايسر . وفي القبر فرط ذهبي ودبوس برونزي (?) وشظية صوانية وآنية قدمها مدعو الراحلين ، وخارج القبر ابريق فخاري . ويعود هذان القبران في تاريخهما الى فترة الانتقال من العصر البرونزي الى

(١) يمكن العثور على تفاصيل عن هذه القبور في — Oriental Institution

Communications No. 4, PP. 42-57

(٢) Macalister : Century of Excavation in Palestine P. 293.

(٣) OIC, 7, P.11

الحديدي .^(١) وهما اثنان من عدد كبير يدل على أن البلدة أُصِيبَتْ في تلك الفترة بوباء قضى على الكثير من سكانها . وقد وجدت أماكن التقدمة وهي حفر مغطاة بصفايح حجرية وبقرها أوعية من البازلت يضع فيها المقدمون هداياهم للالهة . وفي كل القبور قطع ومجموعات من الفخار كبيرة القيمة ، تظهر تطور كثير من الاشكال والزخارف ، وتبين التأثير الاجنبي فيها . ففي أحدها فخار يعود الى ٢٥٠٠ ق . م . ويتكوّن من دنان كبيرة للماء . وفي قبر آخر مجموعة يرجع تاريخها الى ١٧٠٠ — ١٦٠٠ ق . م . وهي أباريق خمر سوداء الطلاء ، بيضاء الخطوط المحفورة فيه . ومعها صندوق عاجي بشكل بطة ودبابيس شعر برونزية ومجموعة نقوش من الجعران هكسوسية ، مما يؤيد عهد الفخار . وكما ان القبور الثالث والرابع والخامس تقدم لنا مجموعة من الفخار المتأثر بالصنعة القبرصية (١٥٠٠ ق . م) ، فان القبر التاسع والثلاثين ، الذي يعود تاريخه الى ١٠٠٠ ق . م ، يعطينا قدراً ذات ثماني قبضات مزخرفة بالاحمر ، ومجموعة من أقراط ذهبية^(٢) وهكذا نجد هنا تأثير الحضارات التي توالى على فلسطين ممثلة في الفخار ، كما وجدناه في جهات أخرى ، من العصور البرونزية الى العصر اليوناني . ويمكن القول بأنه جيد الصنعة^(٣)

١١ — التخصيمات الحربية

كما تظهر في الطبقة الرابعة

﴿ الاسوار ﴾ لمجدو سوران ظاهران الى الآن . الواحد الخارجي ويمكن تسميته بالسفلي أيضاً لأنه يحيط بالنلة على ارتفاع يقرب من ١٣٠ متراً ، الآخر في الجنوب فإنه يرتفع قليلاً فيتصل بالسور الداخلي . ويمتد الى الشمال والشرق امتداداً كبيراً . ولعل الغاية من هذا التوسيع هي تمكين أهل مجدو من الحصول على الماء اللازم من نبع القبة وهو أقرب ماء الى المدينة (راجع الخريطة) . ومما يؤيد ذلك ان المنقيين عثروا على مكان منخفض ، لم يصلوا الى قراره بعد ، يرجحون انه النفق الذي كان يصل أهل المدينة بالنبع . وقد وجد أن هذا السور يعود في تاريخ بنائه الى القرن العاشر ق . م . مع أنه ظهر انه يقوم في بعض أجزائه على الاقل ، على أسس أقدم من ذلك عهداً^(٤)

(١) OIC, 7, P. 11

(٢) في تقرير فيشر عن اعماله في مجدو يوجد وصف لهذه الجاميع باعتبار القبور التي وجدت فيها ، مع رسوم لهذه القبور والقطع الفخارية والزجاجية مع مقابلة هذه بأمثلة ثابت تاريخها راجع Oriental Institution Communications, No 4, PP. 42-57

راجع (٣) Oriental Institution Communications No. 7, P. 12.

(٤) OIC, 7, ١٥ ص

أما السور الثاني فيحيط بالقمة على ارتفاع يتراوح بين ١٥٠ و ١٦٠ متراً . ويتصل بالسور الاول في الجهة الجنوبية والغربية ، ويبلغ ثخنه أربعة أمتار ويحيط بالقمة ويبلغ طوله ٦٠٠ متر تقريباً . ويعاصر الاول في تاريخ بنائه ^(١) ومن المهم أن نلاحظ هنا ان السور كان مبنيًا بالحجر الابيض المنحوت الى ارتفاع ثلاثة مداميك أي الى ما يقرب من متر ونصف المتر ، أما الباقي فكان من اللبن ، ولذلك لا نرى اليوم من آثار السور الا هذه المداميك الثلاثة . ويدل السور على ان بنائه كانوا على درجة كبيرة من المهارة في فن البناء

﴿البوابة﴾ تقع هذه في الجهة الشمالية . ويدل بناؤها على قيمتها الحربية . فهي مزدوجة وبين البابين باحة صغيرة كانت للحرس . وأسسها من الحجر الابيض المنحوت وباقيها كبناء السور . ولا زال قطع الاحجار البازلتية المستديرة المنقورة ليدور فيها عامود الباب ثابتة في أماكنها . ويبلغ اتساعها أربعة أمتار ويمتد خلفها شارع بالاتساع نفسه من الشمال الى الجنوب الشرقي مبلط ، كما تمتد أمامها الطريق التي تتحدر الى بوابة في السور الخارجي لم يكشف عنها تماماً بعد . وتشبه هذه البوابة بوابة كركميش الحثية في شمال سوريا التي بنيت بين القرن الثاني عشر والقرن التاسع عشر ق . م . انما هذه الاخيرة لها ثلاثة أبواب بدل البابين ، أما في بقية الامور فانها تتشابهان الى حد بعيد

﴿الابراج﴾ يلي البوابة حصون وأبراج ضخمة على الجانبين ولا شك في أن هذه كانت تحرس مدخل المدينة من العدو المهاجم . كما أن الشارع الذي يبدأ بالبوابة ينتهي في جنوب شرق المدينة فالمرجح انها كانت مركز القيادة والجند من جهة وانها كانت أبراج الاستطلاع من جهة أخرى . وهذه الابراج كانت تشرف من موقعها على كل السهل وخصوصاً منفذ وادي عاره الذي يؤدي الى شارون فصر

ونلاحظ في هذا البناء ثلاثة أمور : الاول انه لم يبن كله في وقت واحد ، ولكن في زمنين متقاربين . والثاني انه يظهر لنا « صفة المداميك الثلاثة » من جهة ، وبين لنا « خط البنائين » (Datum Line of Master Masons) باللون الاحمر محيطاً بالبناء كله ، من جهة أخرى . والثالث أن بقايا الخشب المحروق التي عثر عليها هناك ، والتي أثبت التحليل الكيماوي انها بقايا خشب الارز ، تدل على أن الجانب الاعلى من البناء كان خشباً ^(٢) وهذا النوع من البناء وجد في كركميش أيضاً ^(٣)

(١) الكتاب المذكور ص ٢٤ (٢) OIC, 7, PP. 34-5 (٣) OIC, 7, P. 35

١٢ — الابنية الاخرى

بيوت للسكن في شمال المدينة وساحة متسعة قليلاً مع بيوت اخرى صغيرة الغرف ،
منتشرة في انحاء المدينة الضيقة . ويجدر بنا أن نلاحظ أن أقية الماء ومصارفها كانت منتظمة
كما ظهر مما بقي منها

وأهم الابنية هناك الاسطبلات الواقعة في جنوب المدينة . فهي تشغل مساحة تساوي
٥٥ متراً طولاً في نحو ٢٣ متراً عرضاً ، وتمتد من الشرق الى الغرب . وعددها خمسة
متساوية في المساحة . يدخلها الزائر من ابوابها المتجهة شمالاً فيرى أمامه الاسطبل مقسوماً
أقساماً ثلاثة : فالقسمان الجانبيان مبلمان بحجارة خشنة وعليها كانت تقف الخيول ، أما
القسم المتوسط فارضه ناعمة حسنة كان يقيم فيها السائس . ويفصل القسم المتوسط عن
الجانبين صفان من الاعمدة الحجرية المربعة يتراوح عددها بين ١٢ و ١٥ في كل صف ،
ويبلغ ارتفاعها نحو المتر ونصف المتر ، وضلع قاعدتها نحو اربعين سنتماً ، وفي هذه الحجارة
ثقب كانت تربط فيها الخيول . وبين هذه الاحجار أجران مستطيلة من الحجر كانت
معالف . وقد وجد الشعر والذرة البيضاء هناك . وكان كل اسطبل يتسع لنحو ثلاثين
رأساً ^(١) وقد عثر النقبون على أمثالها في أمكنة أخرى في فلسطين . فقد اكتشف
الدكتور بلس (فردريك) اسطبلات في تل الحسي ، كما وجد مكسرات مثلها في جازر ، وكذلك عثر
الدكتور سلين على ما يشابهها في تغك . وقد وجد الكل أن هذه الاسطبلات بنيت حول
١٠٠٠ ق . م . إلا أن الدكتور سلين جعل تاريخ بناء اسطبلات تغك بين ١٠٠٠
و ٨٠٠ ق . م . ^(٢)

١٣ — دلالة هذه الابنية

وتاريخ البناء

من دراسة هذه الآثار البنائية التي وجدت يمكن ملاحظة الامور الآتية .
الاول — ان هذه الطبقة تمثل خطة تامة محكمة موضوعة لبناء مدينة . اذ يظهر أن
كل جزء من ابنتها قد اخط ليناسب الآخر
الثاني — ان هذه الابنية تظهر لنا مهارة المشتغلين في القيام بانشاء هذه المدينة ، أو
على حد تعبير المستر غاي نفسه « مدينة بناها مهرة فنون ، لا فلاحون »

(١) وضع المستر وولان منالا للاسطبلات ، وقد صنع المستر لند ، ومصور البنية في مجدو ، منالا
لهذه الاسطبلات من الجص الأبيض بمقياس ١ : ٥٠ (٢) ٤ — 42 PP. 7, 10, 10

الثالث — ان هذه المدينة مستقلة عن الطبقة التي تحتها (الخامسة .) وقد اظهرت الاماكن التي وُصِلَ إليها من هذه الطبقة أن الابنية هناك تسودها الصبغة الفلسطينية الرابع — أن الطبقة الثالثة (التي هي فوق طبقتنا) لم تكن إلا إعادة لبناء الرابعة بعد أن أصاب هذه الابنية حريق على الأرجح والآن نقف متسائلين من بنى هذه المدينة الرابعة ؟ اتنا نضع الحقائق الآتية على سبيل التمهيد للتأنيح التي نصل إليها ^(١)

١ — ان استخدام ثلاثة مداميك من الحجر في البناء الذي في مجدو هو نفس الطريقة التي اتبعت في بناء هيكل سليمان وقصوره في اورشليم ^(٢)
٢ — ان خاتم سليمان أو «درع داود» وهو النجمة ذات الاطراف الستة ، منقوش على حجر كبير في الزاوية الجنوبية الشرقية من البناء الكبير المبني في الطرف الجنوبي الشرقي من مجدو

٣ — ان سليمان اعتنى بتحصين مجدو وما إليها مع مدن أخرى ^(٣)
٤ — ان سليمان كان صاحب تجارة كبيرة في الحيل والمركبات الحربية التي كان ينقلها من مصر الى ملوك الحثيين والاراميين ^(٤)
٥ — العثور على آثار اسطبلات في الخيش (تل الحسي) وجازر وتعنك ومجدو معاً
٦ — ان خشب الارز الذي وجدت آثاره محروقة في مجدو يتفق مع استعمال الارز للهيكل في اورشليم

٧ — ان الابنية التي اقامها عمري (٨٨٩—٨٧٧ ق.م.) واخاب (٨٧٧—٨٥٤ ق.م.) في السامرة تشبه نماذج مجدو شهاً كبيراً من حيث المبادئ الاساسية
٨ — ان بوابة مجدو شديدة الشبه ببوابة كركميش التي يعود تاريخ بنائها الى ما بين ١٢٠٠ و ٩٠٠ ق.م.

واذن فقد اصبح من السهل علينا عند مقابلة هذه الحقائق وربطها ان تؤكد ان الطبقة الرابعة هذه هي مدينة سليمان بن داود بناها وحصنها مع المدن الاخرى. واذا لاحظنا ان الخيش ^(٥)

(١) الجانب الاكبر من هذه الاستنتاجات هو للمستتر ضاى ، ويمكن الرجوع اليه في OIC, 7, 48 — PP. 63 (٢) الملوك الاول ١٢:٧ (٣) الملوك الاول ٩: ١٥ — ٢٩

(٤) الملوك الاول ٢٦:١٠ — ٢٩ والاخبار الثاني ١٤:١ — ١٧

(٥) الخيش من مدن جنوب فلسطين الساحلية المشهورة قديماً . وهي الآن تل الحسي على ما أثبتته الاستاذ بترى والدكتور بلس أثناء قيامهما بأعمال الحفر هناك متعاقبين بين ١٨٩٠ و ١٨٩٥ باسم

وجازر ومجدو وتعنك وحاصور ^(١) كانت على الطريق التجاري بين مصر وسوريا، وأن سليمان كان يحب تأمين طرقه التجارية تأميناً حريصاً، لا نستبعد أن يكون قد اختص مجدو بعنايته. أما البناؤون فهم الفنيقيون الذين استدعاهم سليمان من فينيقيا والذين ساعدته صداقته لحيرام الصوري على الحصول عليهم مع ما لزمه من خشب الارز الخ...

١٤ — نصب شيشق

مرّ بنا ذكر احتلال شيشق ملك مصر لمجدو، الأمر الذي لم يرد ذكره في أسفار العهد القديم. لكن نصب شيشق الذي عثر عليه المنقبون هناك لم يبق مجالاً لمرناب. وما وجد منه جانب من الاصل الكبير كسر واستعمل في بناء أقيم بعد حملة شيشق. وهو من الحجر البازلتي عليه كتابة هيروغليفية ونقوش مصرية أخرى فيها نبأ هذه الحملة المصرية المتأخرة. وقد وجدت البعثة هذا الحجر في حفر الدكتور شوماخر الذي لم ينتبه له حتى وجده فشرى وبقي الى أن درسه الأستاذ الكبير رستد في زيارته لمجدو. وهذا الأثر من أهم ما وجد في فلسطين. والظاهر أن شيشق هو الذي حرق المدينة السلمانية وهدمها، وقد جددت المدينة ثانية على ما عثر عليه المنقبون في الطبقة الثالثة

١٥ — تحرير المبريتة

وهنا نتساءل من جدد هذه المدينة؟ يبعد أن يقوم شيشق بالأمر لأن ذلك لم يرد له ذكر، ولأن شيشق لم يكن يطمع بامتلاك فلسطين، ولأننا رأينا ان نصبه قد كسر واستعمل في البناء، وما كان هو أو بعض أتباعه ليفعل ذلك قط. والذي نراه أن هذا البناء انما جددته عمري وأخاب ملكا السامرة اللذان بنيا قصورها في السامرة، ولم يكن من الصعب عليهما الحصول على بنائين فينيين لأن زوج اخاب ايزابل كانت فينيقية ابنة أئبعل ملك صيدا. هذا رأي تقدم به للجواب عن هذا السؤال وترك أمر تحقيقه لما قد تظهر أعمال الحفر ومباحث التاريخ في المستقبل

والظاهر أن هذا التجديد نفسه لم ينفرد به شخص واحد ولا تم في زمن واحد. ففي بعض أجزاء الطبقة الثالثة نفسها، وهي التي رأينا ان اخاب هو مجددها، عثر فشر على هيكل لعشاروت الفينيقية، وقد وضع تاريخه بين ٨٠٠ و ٦٠٠ ق. م ^(٢)، ويرى أن هذه

(١) في التوراة أماكن كثيرة باسم حاصور ولكن هذه التي حصنها سليمان مع مجدو كما ورد في الملوك الاول ٩ : ١٥ تقع في شمال فلسطين قرب بحيرة الحولة. وبذلك تكون على الطريق الى دمشق

(٢) وصف هذا الهيكل في OIC, 4, PP.68-71

الاجزاء من الطبقة «تمثل وقتاً ترك فيه العبرانيون عبادة يهوه وعكفوا على ارضاء
عشتاروت»^(١). هذا الهيكل اتخذ حصناً في الازمنة الواقعة بين ٨٠٠ و ٤٠٠ ق. م.^(٢)

١٦ - خاتم مجرير

في صيف ١٩٢٩ عثر المنقبون في مجدو على قطعة صغيرة بيضوية الشكل من حجر الحية
تبلغ أقطارها $\frac{3}{4} \times 11 \times 15$ من الممترات. ولما لم تكن مثقوبة قط فقد ترجح أنها
فص خاتم. وسطحها مقسوم الى قسمين، العلوي ويشغل ثلثي السطح فيه رسم «اسد مجنح»^(٣)
على رأسه تاجا مصر العليا والسفلى وبين قائمته الاماميتين توب^(٤) وهو واقف أمام
رمز «غنخ». وبين قوائمه نجد ثلاثة حروف سامية هي «ح م ن» مكتوبة بخط يشبه
نقش «سلوان»^(٥). او نقش «ميشع المؤابي»^(٦) وهذه الحروف تقرأ «حمن
او حمن او حمان». اما القسم السفلي الذي يشغل الثلث الباقي من السطح فيه رسم
جرادة متجهة في نفس اتجاه الاسد المجنح، مخلوعة الرجل

ان الدكتور ستايلز، وهو من رجال بعثة مجدو، استقصى البحث عن الاساد المجنحة
التي وجدت في فلسطين منقوشة على أحتام او فصوص، والتي وجدت في مصر وبين الهرين
وآسيا الصغرى وسوريا، ودلائها عند مختلف الامم والافراد، وتبع معنى وضع الجرادة
في آداب الامم الشرقية القديمة ونقشها، فوصل الى ما يأتي^(٧) : —

١ — حمن هو اسم الاله الفينيقي بعل حمن نفسه^(٨)

٢ — أن الاسد المجنح بجناحي نمر والذي له رأس نمر ايضاً، كالموجود في مجدو
رمز للقوة، وتاجا مصر دليل التأثير المصري في هذه الجهات

٣ — ان الجرادة رمز الضعف والاستخذاء وكثرة العدد في كثير من الاحايين

(١) OIC, 4, PP. 71 (٢) OIC, 4, P. 66 (٣) Griffin (٤) Kilt

(٥) هذا رأي الدكتور ستايلز وعين سلوان تقع الى الجنوب من القدس، وقد عثر على هذا النقش
في العين سنة ١٨٨٠. وهو يصف عملية النحت في الجبل لجلب مياه النبع الى بركة وجدت داخل سور
المدينة. والنقش يرجع الى عهد الملك حزقيال اي حوالي ٧٠٠ ق. م.

(٦) هذا رأيي. وقد اتضح لي من مقابلة حروف النقش بحروف نصب ميشع ملك مؤاب الذي
اقامه حول ٨٥٠ قدم. وقد اكتشف في ديبان (شرق الاردن) ١٨٦٨ (راجع تاريخ اللغات السامية
لوفنسون ص ٨٢ و ١٠١ و ٦٢ و ١٠٦)

(٧) يمكن الرجوع الى هذه التفاصيل في OIC, 7, pp. 48—68

(٨) وقد ورد اسمه في آثار قرطاجية تعود الى القرنين الرابع والثاني ق. م. «عن» ولله
«عمون مصر» وعلى كل فهو اله الشمس عند الفينيقيين

٤ — ان استعمال التعاويذ والرقى شائع في هذه البلاد وعلى هذا الاساس فهو يعتبر هذا الفصل طلباً مقدماً للاله « بعل حمن » ليحفظ الملك وينصره على اعدائه الذين يمثلهم بالجراد . ولم يبين الدكتور ستايلز تاريخاً له ، لكن قوله يشبه نقش سلوان ، دليل واضح على أنه يريد ارجاعه الى حوالي ٧٠٠ ق . م ونحن نستبعد هذا لسببين

أولهما : أن الخط أقرب الى كتابة ميشع المؤابي وثانيهما : أنه حوالي السنة ٧٠٠ ق . م كانت شمال فلسطين والسامرة قد سقطت في ايدي الاشوريين ولا يحتمل أن يطلب سكان مجدو النصر للاشوري مثلاً . كما أنه لا يمكن أن يطلب هؤلاء النصر لحزقيال ملك القدس

والذي زاء هو أن هذا النقش يعود الى أواسط القرن التاسع ق . م . أيام كان أخاب ملكاً على السامرة ، وان هذا الداء موجه اليه : وهنا يمكننا ان نقول أن وجود « بعل حمن » يفسره النفوذ الفينيقي القوي الذي جاءت به ايزابل الصيدونية . ويكون معنى هذا الداء « يا بعل حمن احفظ الملك (اجعله قوياً كالاسد أو كملك مصر صاحب التاج المزدوج) وانصره على اعدائه » . أو لعل النقش يكون لذكرى انتصار أخاب على الاراميين فيمكن قراءته عندئذ « أن الملك القوي [كالاسد المجنح أو كملك مصر صاحب التاج المزدوج] قد انتصر على اعدائه وسحقهم كالجراد بقوة بعل حمن » [

هذه حكاية مجدو التي وقفت امام الملوك ، والتي حفظت جوارها مدة طويلة ، عفا عليها الدهر وتركها طلالاً بالياً حتى أتى « رجال من الدنيا الجديدة » فكشفوا لنا النقاب عن معالم هذا الجزء من « الدنيا القديمة » ، وأرونا بعض ما كنا نحجل ولعل مجدو باقية في مكانها الى يوم الاجتماع العظيم — اجتماع الامم في هرمجدون — في تل المعارك — لقتال اليوم العظيم ^(١)

نقولاً زياده

عكا (فلسطين)

(١) رؤيا ١٦ : ١٦

مكانة سوريا في التاريخ العالمي

٣ — أمل سوريا في الغرب ٤ — دين سوريا



٣ — أمل سوريا في الغرب

شاهدنا سوريا في الفصلين السابقين^(١) في حالة الاستسلام وقابليتها للتأثر فقط ، تحتاجها القبائل العربية التي كوّنت ارومة سكانها ، وتكتسحها الاجناس العظيمة من آسيا وافريقية واوروبا فترغمها على الاعتراف بسلطانها والخضوع لنيروها ثم تصبغها بحضارتها وثقافتها . أما في الفصلين التاليين فسنرى سوريا في حالة التحفز والاستعداد ونرى هذه القبائل العربية التي اتخذتها مقراً وموطناً لها تنتهز تلك الفرصة الوحيدة السانحة لها فتحدث ذلك التأثير الذي رفعها الى اوج المجد والعظمة ويحسن بنا أن نصف أولاً هذه الفرصة الوحيدة ثم نبحت في ذلك التأثير نفسه — أي التأثير الديني

لم يكن لسوريا في العصور الاولى سوى منفذ واحد تبعث منه رسالتها الى بقية العالم . وقد رأينا أنها لم يكن لديها شيء تقدمه الى الامبراطوريات العظيمة التي قامت على جانبيها — النيل والفرات — فما كان في وسعها الا أن تكون أمة مقتبسة أو ناقلة تستمد ما كانت تحتاج اليه من الامم الاخرى . ولما كانت جبال طوروس حاجزاً منيعاً يحول دون تقدم سوريا الى آسيا الصغرى ، اذ أن الجنس السامي لم يجتزها مطلقاً ، مع أنها لم تقف في سبيل زوح بعض الشعوب الاخرى الى الجنوب ، لم تجد سوريا أمامها سوى البحر ، ولذلك فقد تحققت أنه الوسيلة الوحيدة التي تمكنها من نشر ثقافتها الجديدة . وهكذا نجد أن بعض قبائلها التي لم تألف البحر من قبل ولم تعرف سوى رمال البادية تندفع غير هيابة الى الامام وتطرح بنفسها فيه وما كادت تخوض في لججه حتى الفتة مطرراً بجزائر كما تطرز الصحراء الواحات ، فاستطاعوا تدريجياً عن طريقها أن يدركوا اقصى سواحل اوربا الغربية وأول ما يقع نظر الانسان عليه جزيرة قبرص اذ أنها قريبة جداً من الساحل ويمكن رؤيتها بالعين المجردة من أعالي تلال شمال سوريا . وفي بعض فصول السنة تشاهد من لبنان ثم أن ساحل برّ الاناضول قريب المزال من هذه الجزيرة وكذلك جزيرة رودس تقع في

مقدمة الارخبيل اليوناني ، مما جعل التنقل في البحر الابيض المتوسط ، حتى في أول عهد الملاحة ، بين بلاد اليونان ، وصقلية ، ومالطة والساحل الافريقي واسبانيا والمحيط الاطلسي أو شمالاً من ايطاليا الى سردينيا فكورسيكا ، فساحل غاليا (فرنسا الحديثة) في غاية السهولة . وفي مكننتنا أن تتبع سير الفينيقيين في هذه الجزائر والسواحل من الآثار التي خلفوها كالاسماء السامية والسجلات والمحاضر والنقوش والخرافات

فلا غرابة اذن ، ان اكتسب الفينيقيون شهرة المخترعين بما بذلوه من الجهود الكبيرة في تأسيس الحضارة الاغريقية القديمة . على أنهم ، في الحقيقة ، لم يكونوا اكثر من وسطاء أو نقله ، اذ أن سوريا ، في بدء تاريخها ، لم يكن بوسعها أن تقدم الى الغرب سوى أشياء قليلة ، اللهم الا ما اقتبسته كلياً او جزئياً ، من الأمم الاخرى ، فكان فيها مصرياً وكذلك فان حروفها الابجدية التي نشرتها في اوربا من مصادر مصرية أيضاً ، ولا يبعد أن تكون أوضاعها ومصطلحاتها التجارية التي ادخلتها الى اللغة اليونانية من آسيا منقولة عن غيرها . على أن اليونان مدينون الى الفينيقيين بامور أخرى لا ريب أنها من بنات أفكارهم وتعلق باسما الحروف والحضارات والمعادن وبعض البضائع والسلع ، ولا سيما المعتقدات الدينية التي تنجلي أهميتها وعظمتها كلما تعمقنا في دراسة العلاقات الاجتماعية والتجارية ما بين الجنسين . فانتشرت الخرافات والطقوس الدينية والمبادئ الاخلاقية في العالم الغربي وكونت أقدم عناصر الحضارة الاغريقية . وربما كان ذلك قبل بزوغ فجر التاريخ لان مدينة ترشيش كانت في عالم الوجود حوالي عام ١١٠٠ ق.م . كما أنه لا يبعد أن تكون هجرة الفينيقيين وانشاؤهم المستعمرات في الغرب مرتبطين بالاضطرابات والقلقل التي سادت سوريا في القرن الرابع عشر وقد وقعت هجرة مهمة أخرى بعد مضي خمسة قرون ، اذ حوالي سنة ٨٠٠ ق.م أنشأ بعض الذين هاجروا من صور بالقرب من مستعمرة فينيقية قديمة على ساحل افريقيا المقابل لجزيرة صقلية مستعمرة أخرى دعت قرطاً هداشا "Corta Hadasha" وهي تكاد أن تقابل باللغة العبرانية «المدينة الجديدة» ثم حرفها الاغريق الى «كرشيدون» "Carchedon" والرومان الى «قرطاجو» "Carthago" . وقد بسطت قرطجة في القرن السادس سيادتها على المستعمرات الفينيقية الاخرى في الغرب ^(٦) . وفي القرن الخامس بينما كان القسم الشمالي من الشرق يكتسح بلاد اليونان تحت قيادة الفرس حمل ساميئو الشرق مرتين على اليونان من صقلية تحت زعامة قرطجة ^(٧) . وكان قائد الحملة الثانية رجلاً يدعى

(٦) Freeman— Sicily (Story of the Nations Series), P. 56

(٧) ٨٠٤ — ٧٣ ق.م ٤١٣ — ٤٠٤

«هنيبال» ويحمل لقب «شوفت» «Shophet» كما كان يسمى زعماء الفينيقيين وحكامهم، وهي كلمة عبرانية الاصل كانت تطلق على حكام بني اسرائيل من يشوع الى صموئيل. وما معنى «هنيبال» الا «نعمة بعل». أما المستعمرات اليونانية في صقلية فقد حافظت على كيانها معنى ولكنها لم تتمكن من درء خطر الغزاة عن اوربا بل تركت هذه المهمة حتى قامت بها أمة أخرى ان الحرب البونية الاولى «Punic» التي خاضت غمارها رومية لاسترجاع صقلية انتهت بانتصارها المين على قرطجنة وطردها المستعمرين السوريين من الجزيرة. فقطع هملكار مضيق جبل طارق سنة ٢٣٧ ق. م. ليمحو عن قرطجنة وصمة هذا العار الشائن واستولى ابنه هنيبال من بعده عام ٢١٨ على اسبانيا واجتاز جبال الالب الى ايطاليا. ولكن ثبت نهائياً ان اوربا لن تخضع لنير الساميين ونكص هنيبال على عقبيه خائباً. وما أن ازفت سنة ٢٠٥ حتى أخضع الرومان شبه جزيرة ايبيريا وضموها الى امبراطوريتهم ثم تقدموا الى افريقيا وجعلوها ولاية رومانية (٨)

عندما كانت قرطجنة في اوج مجدها وعظمتها كانت الاساطيل الفينيقية تخرج زرافاتٍ ووحداناً من شرق البحر الابيض المتوسط مارة ببلاد اليونان وابطالبا سائرة سيراً حينئذ نحو الغرب فتقطع مضيق جبل طارق الى جزائر الكناري (٩) الى بحر غريب من الاعشاب والاشواك لعلسه كان البحر الذي صادفه كولبوس في اتجاهه نحو اميركا، فغري غاليا، فجزائر سيلبي [جزائر التنك] فبريطانيا محققاً، وطاف أحد امراء البحر من صور، بايعاز من الفرعون نحو حول افريقيا عام ٦٠٠ ق. م. (١٠) أو قبل قاسكودي غاما بالفي سنة

وبعد سقوط قرطجنة — وقد تداعت صروح صور قبلها بمائة سنة — اقتصرت البقرية الفينيقية على التجارة والاشتراك بين آونة وأخرى في حروب كان فيها بعض الفينيقيين جنوداً مرتزقة. وكان الفينيقيون في مهد الامبراطورية الرومانية منتشرين في جميع انحاء البحر الابيض المتوسط لهم مساكنهم الخاصة وهياكلهم الدينية في المدن الكبيرة. ولما رسخت قدم رومية في الشرق وقوي نفوذها وازدادت شوكتها في فاتحة عصر الميلاد اندفع السوربون (١١) كاتيار الجارف الى ايطاليا أو كما يقول جوفنال، انصب نهر العاصي بنهر النير وكان بينهم عدد قليل من أساطين وفطاحل الخطابة والبلاغة والنحو والشعر والمجون، ولكن السواد الاعظم منهم كانوا من النحاسين والسوقة والرعاع والباعة الذين

(٨) وبعد مضي خمسين سنة كانوا يتدخلون في شؤون فينيقية، وما مضى ١٥٠ سنة على ذلك حتى جعلوا سوريا ولاية رومانية ايضاً (٩) Didooroas Siculus 19-20 (١٠) Heroodtus, iv. 42 (١١) والانباط ايضاً

كانت تتسلط على نفوسهم الاوهام والخزعبلات الدينية السافلة

وفي غضون ذلك — من القرن الثالث عشر ق. م. الى القرن الاول للميلاد — نشأت أمة جديدة في المرتفعات الواقعة خلف فينيقيا رأساً، تتكلم بنفس لهجتها تقريباً. وقد سمعت ما كان يقصه الفينيقيون عن تلك الجزائر والسواحل الغربية: عن شطيم Chittim أي قبرص وعن رودس والجزر الايونية واليسا وبعض سواحل صقلية وإيطاليا، وترشيش وهي أقصى مدينة بلغوها في أسبانيا. ومع أن هذه الامة لم يكن لديها مرفأ يصالحها بالبحر فقد أطلقت خيالاتها العنان في تتبع أسفار الفينيقيين وانما لغاية أسمى كثيراً من جبر المنافع والمكاسب المادية، وادعت لنفسها حق نشر بزور المثل العليا في العدالة والرحمة ومعرفة الآلهة الحقيقي في تلك الاراضي الساحلية واستئصال شافة الخرافات السامية التي لصقت بها (١٢)

ان من يعلم ما أحدثه ذلك الدين الذي أرسلته سوريا بواسطة الفينيقيين الى بلاد اليونان من التأثير الكبير في نفسية اليوناني القديم ويذكر كيف ان اسرائيل كانت قريبة جداً من جارتها فينيقية في المواطن واللغة والاتحاد السياسي يخطر في نفسه هذا السؤال: أما كان بوسع فينيقية أن تحمل هذا الدين الاسرائيلي أيضاً كما حملت من قبله حروف مصر وبضائع بابل والخرافات السامية المستهجنة وعملت على نشرها؟ أن ذلك لمن رابع المستحيلات! فإما أن بني اسرائيل، عند ما كان نفوذ فينيقية الديني في الغرب لا يزال قوياً لم يصلوا بعد الى فلسطين أو أنهم لم يتوصلوا الى فهم جوهر دينهم فهماً يحولهم فرضه على الشعوب الاخرى — ولو كانت هذه الشعوب تعيش بجوارها وتمت اليها بصلة القرى — ولكن حينما تحققت اسرائيل من رسالتها وتيقنت بانها رسالة الله الى العالم أجمع ورأت في أسفار الفينيقيين وسيلة لنشر الحقيقة غرباً، لم يعد الفينيقيون حملة أو رسلاً بل صاروا أعداء الداء لكل جنس آخر على السواحل الشمالية والغربية من البحر الابيض المتوسط واليك مثلاً، على ما نقول، عصر ايليا «Elijah» لما كانت العلاقات بين اسرائيل وفينيقية أقرب منها في أي عصر آخر، فان التأثير الديني لم ينحدر عندئذ من اسرائيل الى فينيقية بل من فينيقية الى اسرائيل، قوامه محاولة نشر عبادة بعل في البلاد النائية لا عبادة يهوه، اذ أن الدين كان، في الغالب، أمراً سياسياً، ولما كانت فينيقية صاحبة السيادة والسلطان في اسرائيل وكان بعل الهها أصبح من الضروري أيضاً أن يكون بعل نفسه أحد آلهة بني اسرائيل، ولذلك فانتا نجد أن اسرائيل كانت تبذل كل ما في وسعها من سعي حتى تثبت أن يهوه هو الآلهة والآلهة الواحد القهار المهيمن على حياتها الخاصة، اذ أنها متى

أثبتت أولاً أنه إله العدل والطهارة والعفاف ، فلا ريب أنه سوف يأتي يوم يظهر فيه أنه إله العالم قاطبة وعندئذ لا يسع فينيقية والغرب إلا الانضمام الى حظيرة الايمان . ولذلك فإن مهمة ايليا كانت مقتصرة على بني اسرائيل مبنياً لهم الفرق الجسم بين يهود وغيره من الآلهة الاخرى ، فهو مثال للاستقامة والصلاح ، وهو الإله العالمي الذي لا يقصر اهتمامه على أمة من الامم أو شعب من الشعوب وانما يشمل الجميع برحمته ومحبه .

ولكن ذلك يحملنا الى صميم موضوعنا التالي ، دين سوريا ، وكيف توصلت اسرائيل دون غيرها من القبائل السورية الى مثل هذا المعتقد الطاهر وهكذا الى احراز نصر مبین وفوز تام على العالم طرّاً . ولنختم هذا الفصل بقولنا أن أنبياء اسرائيل حين أدركوا وتحققوا ما لديهم العظم من السيادة العالمية ، رأوا في الفينيقيين واسطة لتحقيق هذه الفكرة . ولذلك فان توسع فينيقية وانتشار سلطتها كان في نظرهم أمراً مقدساً ، فتراهم يتהלلون ويتعجبون بآمالها الكبيرة وأعمالها العظيمة ، ويندب أشعيا وحزقيال تدمير صور واغراق اسطولها ويعمدان ذلك تدنيساً لقداسها ، ولا يستطيع أشعيا أن يعتقد هذا التدمير أمراً حاسماً بل يرى أن فينيقية ستنهض نقية طاهرة وتحرر من أسرها لتكون حاملة لواء الدين الحقيقي الى أطراف المعمورة (١٣)

٤ — دين سوريا

رأينا أن سوريا ، الشام ، هي الطرف الشمالي من العالم السامي وان سكانها ، من أعرق العصور في القدم ، كانوا ساميين أصلاً . ولذلك فقد قدر أن يكون الدور الذي مثلته على مسرح التاريخ دوراً دينياً ، على الاغلب . فالساميون هم قادة الانسانية في الدين ، وقد نشأت من بين ظهرانيهم ديانات التوحيد العظيمة ، وكان منهم اكبر الانبياء وأجسام شأناً وقدرًا ، وذلك نتيجة لازمة لعزلتهم الطويلة في بلاد العرب ، اذ ان الحياة في تلك الصحراوات القاحلة تتلأم كثيراً وتتفق اتفاقاً مدهشاً مع هذه المهمة السامية . فالطبيعة فيها على وتيرة واحدة وعوامل اللهو قليلة جداً ، هذا وان الصيام الذي لا بد منه في كل عام ، ينقي الجسم من عناصره الدنيئة فتسمو النفس وتنزه عن الارجاس والدنايا . وينجم عن الجوع عاطفة غريبة في الذهن مزوجة بالاستسلام وثورة الغضب . أما جل ما لديهم من مواهب فينحصر في القتال والخطابة وقد صُقلت الخطابة وهذبت حتى بلغت أسلوباً رائعاً يستهوي النفس برونقه وجماله ، وذلك لتناسق الطبيعة وهذوتها والفراغ الطويل الناتج عن قلة العمل في

مضمار الحياة. فهو الجو الذي يترعرع فيه الراؤون والشهداء والمتعصبون، فما بالك بجنس يخضع لمؤثراته آلاف من السنين. قدم لمثل هذا الجنس عقيدة أودعوه دينية فيكون رسولاً ومبشراً خلاصاً لقد قيل بأن البادية أمدت العربي بعقيدة وزودته بطبيعة دينية، وصرح رينان Renan ان تناسق طبيعة البلاد التي يعيش فيها السامي من شأنه أن يحمله على الإيمان بالتوحيد^(١٤). والواقع أن البادية وما امتازت به طبيعة البادية من التناسق لا تؤول الى الشرك، وان جميع الاديان السامية امتازت بميل قوي الى الوحدة. اذ كان لكل قبيلة إله واحد فحسب بحكم الارتباط والاتصال بأهلها لا يعترفون بسيد أو بزعم سواه. وهذا الاعتقاد كان يدعوهم الى التوحيد إذ أنه علم الساميين أن يحولوا كل شيء الى علة واحدة هي علة العلل، وأن يحدوا اهتمامهم بإله واحد فهار تخضع لسلطانه جميع الآلهة. ونستطيع، إذن، أن نستبدل نظرية رينان وهي ان السامي مطبوع على التوحيد بقولنا كان للتوحيد في الدين السامي والعالم السامي أمل كبير ولم تقتنم هذه الفرصة الا قبيلة سامية واحدة. ولم يكن ذلك في بلاد العرب وانما في سوريا نفسها، أي في التربة التي كانت بطبيعتها تحمل القبائل السامية الاخرى على نبذ معتقداتها الدينية البسيطة الساذجة التي أوحى اليها البادية والميل الى الإيمان بالشرك الى أقصى حدوده. ولا غرو، فقد جعلت سوريا الساميين ثملين بخمرة ما ألفوا فيها من أسباب الراحة والرفاهية فدفعوا بأنفسهم الى الاستمتاع بها وهكذا لم يسمعهم، الا اعتناق عبادة الطبيعة، إذ أنه لم يظعن الى سوريا أمة واحدة واله واحد بل كثير من القبائل الصغيرة لكل منها سيدها وحامي ذمارها. هذا وان وثنية مصر والعراق أيضاً تسربت اليها وتآزرت على مناوأتها، ومع ذلك فقد كانت سوريا لاشبه جزيرة العرب مهداً للتوحيد. وقد بلغ توحيد بني اسرائيل أشده لا ينازعه منازع من القرن الثامن الى السادس قبل الميلاد أي في زمن فتوحات اشور الكبرى. وازاء تيار تقدم اشور الجارف أخذت آلهة سوريا القبائلية تنقرض تباعاً وتحول بحرى التاريخ الى تناسق مماثل تناسق الطبيعة في البادية السامية. وأمام هذه المشاكل التي جابهت بني اسرائيل أشرقت أنوار عبقيتها وعم تألقها العالم أجمع ونشطت الى الإيمان بإله واحد فهار. ولم يكن هذا الا لهمة الالامبال الامبراطورية الحربية التي دكت العالم دكاً وأرغمته قسراً على الرضوخ لنير الاستعباد والمسكنة، إذ أنه لم يكن أحد آلهة اشور، وانما كان إله قبيلة بني اسرائيل الضعيفة^(١٥)

(١٤) Histoire des langues sémitiques, ed 3, 1863; De la part des peuples Sémitiques, Asiatic Review, Feb & May 1859; and, in a modified form in his Histoire d'Israel vol. I.

(١٥) هنا ينتهي ما عرناه بتصرف قليل من الفصل الاول من كتاب سمث اما ما يأتي فهو من مصادر اخرى، لا يناقض ما جاء في كتابه وانما يمتاز عنه في الايضاح [العرب]

كان لتطور الاحوال السياسية في الشرق القديم تأثير كبير في الآلهة إذ انها كانت عرضة للتبديل والتغيير فوجد مثلاً ان الاسرة المالكة البابلية الاولى فرضت سيادة مردوخ إله بابل ، على المدن التي خضعت لسلطانها بدلاً من انليل ، إله نيبور القديم ، ولما أصبحت مدينة بارسا تابعة للمملكة البابلية خضع إلهها نابو الى مردوخ وكان نابو إله الحكمة والمستقبل ويده الألواح التي يقرر فيها مصير كل انسان . كذلك حمورابي العظيم ، مؤسس المملكة البابلية (٢١٢٣-٢٠٨١ ق.م) جعل لمردوخ إله بابل المقام الاول بين الآلهة الاخرى . فقد كان الاعتقاد الشائع عندئذ ان مردوخ، نظراً لأنه أشد بأساً من بقية الآلهة، قد ساعد حمورابي على التفوق على اعدائه اذ عمل على رفع اسمه ونشره بين الامم التي كانت تبذل بسواه . فاذن ، ان انتصار أمة على أمة أخرى في ميدان القتال كان يعني أيضاً تفوق إلهها (١٦) ولما داهمت السامرة ، عاصمة مملكة بني اسرائيل في الشمال ، جيوش سنجاريب الجرارة بعد أن عنت لسلطانها دمشق ، واحتلتها (السامرة) عنوة سنة ٧٢٢ ق . م . طارت قلوب العبرانيين خوفاً وهلعاً وأخذت الشكوك تتسرب الى أفتدثهم بتعاليمهم الدينية ولا سيما عند ما شاهدوا جيوش سنجاريب على أسوار اورشليم وسمعوا هزيم أدوات الحصار الاشورية تلك أسوارها كما دكت من قبل أسوار دمشق والسامرة (١٧) ، عندئذ ذابت قلوبهم فرقاً وقالوا في أنفسهم ان إله الاشوريين أوسع سلطة وأعز جانباً من يهوه ، إلههم ، إذ أنه لو كان حقاً ، إلهاً قوياً لما وقف ساكناً أمام عدوه الألد اشور لا يدي حراكاً

هنا نهض أشعيا وألقى عليهم خطبة بليغة زحزحت عن قلوبهم ما استحوذ عليها من اليأس والقنوط قائلاً : ان يهوه هو الذي يدير ساحات الحرب وميادين القتال وهو المتصرف الظاهر فيها لا اشور واذا كان الاشوريون قد دوخوا فلسطين وخرّبوها فذلك لأنه هو استخدمهم للتشكيل بالعبرانيين في الشمال لانغماسهم بالشهوات واسترسالهم الى الملذات . اشعيا ص ١٠ : ٥-١٥ : — (١٨) فكانت كلماته بأسماً لجراح العبرانيين الدامية فاستبدلوا باليأس رجاءً وبالقنوط سروراً ولا سيما عند ما داهم البواب جيش سنجاريب وأهلك منه خلقاً كثيراً واضطره الى النكوص على عقبيه

(١٦) Grant, Elihu-The Orient in Bible Times, Philadelphia & London
J.B. Lippincott Co. 1920-١١٥-١١٤-١٠٢

(١٧) ملخصة عن كتاب العصور القديمة لبرستد تريب داود قربان

(١٨) الكتاب المقدس — طبع جمعية التوراة الامريكانية . بيروت ١٩٢٦ ص ٤٨ — ٤٩

(١٩) Nelson, Harold—Ancient History of the Near East

وهو كتاب صغير وضعه الدكتور نلسن احد اساتذة التاريخ في جامعة بيروت الامريكية سابقاً لمساعدة الطلبة في الشرق على تفهم الدور الذي مثلته بلادهم على مسرح التاريخ ، لان الكتب الغربية ، في نظره ، اهما وضعت من الوجهة الغربية ولذلك فهي لا تهتم كثيراً بتاريخ الشرق

وما ان مضى قرن على تقهر سنحاريب الى نينوى حتى جمع العبرانيون بسقوط نينوى ٦٠٦ ق. م. بيد الماديين والكلدانيين . فهللوا وابتهجوا كثيراً لتخلصهم من ذلك الكابوس الذي كان يحرمهم لذة الرقاد واستنشاق نسيم الحرية العليل . على ان تسمم الكلدانيين عرش بابل بعد ان هدموا صروح الامبراطورية الاشورية لم يدع لهم فرصة طويلة للاستمتاع بجمرة الفوز والاتصار اذ ما عثم الكلدانيون ان دهموا اورشليم تحت قيادة نبوخذ نصر سنة ٥٨٦ ق. م. واعملوا فيها ايدي الخراب والتدمير حتى غادروها قاعاً صفصفاً وأجلوا اهلها الى بابل^(١٩) . وهنا تلمس في نفسية العبرانيين الشكوك في صحة التعاليم التي اخذوها عن انبيائهم وتسرب اليأس والكآبة الى افئدتهم — مز امير ١٣٧ : ٤ —

« على انهار بابل جلسنا . بكينا ايضاً عند ما تذكرنا صهيون (٢) على الصفصاف في وسطها علقنا اعداؤنا (٣) لانه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ومعذبونا سألونا فرحاً رنموا لنا من ترنيمات صهيون (٤) كيف نرنم ترنيمة الرب في ارض غريبة »

ان هذه الكلمات تبين لنا تماماً درجة الحزن الذي فطر قلوب العبرانيين في المنفى ، اما بقية هذا المزمور فترسم لنا صورة حنينهم واشتياقهم الى اورشليم ومبلغ حقدهم على الكلدانيين الذين اذاقوهم مرارة الاغتراب والنأي عن الاوطان « (٥) ان نسيك يا اورشليم انفس بميني » وبينما كان هذا اليأس مستحوذاً على نفوسهم ارتفع من بينهم صوت مجهول بعث فيهم ميت الآمال قائلاً : كفاكم كآبة واستسلاماً الى الحزن والقنوط فما هذه المصائب التي دهمتمكم الا تجربة اراد بها الله ان يختبر قوة ايمانكم ، فان اصابكم مصيبة تنسونه ان ذلك لكفر ميين . ولكن ثقوا برحمة الله فلسوف يسلط على الكلدانيين امة قوية تمزقهم شراً ممزق وتعيدكم الى بلادكم آمنين — تلك هي امة الفرس — اذ ان جميع الملوك ليسوا الا آلات في يده يستخدمها كيف شاء ، فقد استخدم ، من قبل ، كما علمتم ، سنحاريب لانزال العقاب الصارم باولئك العبرانيين الذين نبذوا تعاليم القويمة واسترسلوا في ملذاتهم وشهواتهم ، كما انه سلب عليكم نبوخذ نصر لامتحانكم فقط . فلم يسمع العبرانيين بعد ان سمعوا هذا الصوت الرباني الا ان يطأطئوا الرأس خاشعين . وهكذا ادركت الامة العبرانية اخيراً بعد ما قاست من صنوف العذاب والآلام الوأماً واشكالا عظيمة يهوه وسعة نفوذه ، فبعد ان كانت تعتقد انه آله حرب جبار يختص بها وحدها ولا تتجاوز سلطته حدود البادية ، موطنها الاول ، اصبحت ترى فيه الآن الاب المحب الذي لا تقتصر محبته على امة من الامم او شعب من الشعوب وانما تشملها جميعاً وذلك هو التوحيد بعينه احمد بديع المغربي

الصلت ، شرق الاردن مدرس التاريخ والجغرافيا في الصلت

مكتبة المقتطف

جلالة الملك بين مصر وأوروبا

ان كتاباً تدور صفحاته على حياة حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الخاصة والعامة ، وعلى حياة سمو ولي العهد وصاحبات السمو شقيقاته ، وتريتهم ، ويجمع له المؤلف الاستاذ كريم ثابت ، الحقائق من أكبر رجال القصر مقاماً وأكثرهم اتصالاً بجلالته ، ومن سفره في معية جلالته في رحلته الاوربية الثانية لتمثيل المقيم وموفاته بأخبارها ، ثم طبعة دار الهلال طبعاً متقناً على ورق من أجود أنواع الورق ، ومجمل كل صورته بالروتوغرافور فتراها ناطقة ساحرة ، لجدير بأن يقتنيه كل مصري ، بل كل شرقي

لأن في هذا الكتاب قصة ملك شرقي عظيم أجاد الاستاذ كريم في وصفه حيث قال صفحة ٤٧ — «وزادت دهشة الغربيين المقربين الى جلالته اذ تبين لهم أنه عالم راسخ العلم ، تمتد اليه الاعناق اذ يتحدث الى اساطين العلم والصناعة والمال في موضوعات من صميم اختصاصهم ، فيبدو فيما يقول عالماً واسع الاطلاع ، صائب الرأي ، فتسابقت الجامعات والجمعيات والاكاديميات الى اكرامه ومنحه اعلى رتبها واوسمتها تقديرأ لعلمه الغزير واحتفاء بفضلِهِ على تشجيع العلم ورجال العلم في بلاده . وزاد ا كبارهم له اذ رافقوه الى زيارة المعامل الصناعية والجامعات ودور البحث والمتاحف الاثرية والفنية ، فعرفوا فيه طالباً للعلم دؤوباً على التحصيل متواضعاً في الاستزادة . فهو يزور المنشآت للتعليم لا للفرجة ولا لقضاء واجب رسمي . انه يقف عند كل جديد يستفهم استفهام ذكاء وادراك حتى دهش ارباب الصناعات ومديرو المتاحف من سعة اطلاعه ودقة الاسئلة التي يوجهها وحسن فهمه لامور لا يدركها ولا يتبحر فيها الا المنقطعون لها»

ونحن كمجلة علمية يهنأو يسرنا أن ننوه بشدة اغتباطنا بما رأيناه في هذا الكتاب من عناية جلالته بالعلم وتشجيعه لرجالهِ وتببع مكتشفاته ومخترعانه ، وافضال جلالته على هذه المجلة سابقة سابقة ، فانا لن ننسى كيف غمرها جلالته بمطفيه اذ تنازل فقبل ان يكون يويلها الذهبي تحت رمايته سنة ١٩٢٦

وقد تشرف المؤلف برفع الكتاب الى المقام العالي فنال «حسن القبول» السامي . وتوالت عليه من رئيس الوزراء والوزراء رسائل التهئة وكلها تنطوي على شدة إعجابهم بما اشتمل عليه الكتاب من آثار جلالة الملك في عمران بلاده ، وجعلها على حد قول والده العظيم « قطعة من أوروبا »

ابن الرومي

بقلم عباس محمود العقاد

صفحاته ٣٩٢ قطع وسط كبير — طبع بمطبعة مصر — منه ٢٠ قرشاً

ليس أبهج للنفس وأدعى الى غبطتها من تلك الجهود المثمرة المحمودة التي يبذلها أدباؤنا في هذه الايام لازاحة الستور الكثيفة التي تحجب عن جمهرة المتأدين أعلامنا الممتازين وقادة الفكر العربي وأساطين الادب المبرزين ، فان كل فضل يذيعه هؤلاء الادباء ويسجلونه هؤلاء الاعلام انما هو حجة ناهضة يقيمونها مشكورين على فضل الادب العربي الزاخر بأسمى احساسات الحياة ومثلها الرائعة ، وفيه أبلغ رد على دعاوى المفتونين بالادب الغربي — والادب الغربي وحده — الساخطين على الادب العربي — بغير حق — لأنهم لم يفهموه أو على الاصح لم يعنوا بقراءته ودرسه ، والانسان دائماً عدو ما يجهل لهذا امتلات نفوسنا غبطة وانشراحاً حين قرأنا هذا الكتاب النفيس ورأينا ما بذله حضرة مؤلفه المفضل الاديب عباس افندي محمود العقاد من جهود مشكورة في اذاعة فضل ابن الرومي والتنويه بشاعريته الخصبه وبأسلوبه الرشيق ، الذي يجمع الى اللباقة والحدق ، جدة البحث وطرافة الموضوع

وقد تكاثفت فئة من أدبائنا المعاصرين على اذاعة فضل ابن الرومي نذكر منهم ابراهيم عبد القادر المازني وحسن السندوبي وكامل كيلاني والمرحوم الشيخ شريف وغيرهم . ثم جاء حضرة الاديب الفاضل عباس افندي محمود العقاد فأضاف في كتابه النفيس الى تلك الجهود المثمرة جهداً عظيماً جديراً بالاشادة والتنويه

وقد قسم كتابه الى أقسام ستة ثم أتبعها بطائفة مختارة من شعر ابن الرومي الرائع تقع في ستين صفحة

وتناول في الفصل الاول عصر ابن الرومي وحالة الحكومة ونظام الاقطاع والحالة الاجتماعية والحالة الفكرية والشعر والدين والاخلاق ، وأتم في الفصل الثاني بأخباره وعصره

وتكلم في الفصل الثالث عن حياته ونشأته وعن أمه وأخيه وزوجيه وأولاده ، وعن مزاجه وسبب فشله ، وعن طيرته وعقيدته وهجائه ومدوحيه ووفاته ، وتصدى في الفصل الرابع للكلام عن عبقريته وعبادة الحياة وحب الطبيعة والتصوير ، وذكر في الفصل الخامس فلسفته وفي السادس صناعته والقارئ المنصف جدير أن يعجب بهذا الجهد الكبير الذي بذله وأن يشيد به ويسجل بالفخر والثناء ما وفق إليه في كتابه النفيس من طرافة المواضيع التي تناولها بلباقته وبراعته المعروفتين . وقد افتتح الكتاب بتمهيد قال في أوله :

« هذه ترجمة وليست بترجمة لأن الترجمة يغلب أن تكون قصة حياة وأما هذه فأحر بها أن تسمى صورة حياة ، ولأن تكون ترجمة ابن الرومي صورة خير من أن تكون قصة ، لأن ترجمته لا تخرج لنا قصة نادرة بين قصص الواقع أو الخيال ، ولكننا اذا نظرنا في ديوانه وجدناه مرآة صادقة ، ووجدنا في المرأة صورة ناطقة لا نظير لها فيما نعلم من دواوين الشعراء . وتلك مزية تستحق من أجلها أن يكتب فيها كتاب »
ولحاضرة الكاتب الاديب رأيه في أن صورة الحياة خير من قصة الحياة ، وفي هذا شيء من التساهل في التعبير لان الواحدة مكلمة للآخرى ولا بد من الاثنين لفهم الشاعر فهما تاما . ولما نرضى له أن يقول : إن الصورة التي يجدها في ديوان الرومي لا نظير لها فيما يعلم من دواوين الشعراء ، فإن في لزوميات المعري — وهي فيما يعلمه من دواوين الشعراء — صورة ناطقة ومرآة صادقة ، هي على الأقل أدق وأصدق من تلك الصورة التي تراها في ديوان ابن الرومي ، وانما نجتزئ بالتمثيل بالمعري — وكل له من نظراء — لأنه ممن يقرنا عليه حضرة المؤلف الفاضل

ويقول في مكان آخر من الكتاب إن في ابن الرومي خاصة فريدة ليست في غيره من الشعراء وهي مراقبته الشديدة لنفسه وتسجيله وقائع حياته في شعره . على ان المعري لا يزال ماثلا أمامنا وهو أبلغ رد عليه . ولو أنه قال : « وهذه مزية قلما يشرك فيها أحد من الشعراء » لوقاه الحذر العلمي من عثرات التعميم والاجمال . وقال : « والغريب مع هذا أن ابن الرومي الشاعر هو ابن الرومي الذي لم يعرف بعد » والحقيقة هي أن ابن الرومي الشاعر معروف لأن ديوانه وما كتب عنه من دراسات قيمة ماثلان بين أيدينا ، أما ابن الرومي الرجل فهو الذي لم يعرف بعد ، وقد اعترف بأن كل ما عثر عليه لا يجتزئ في ترجمة وافية أو ما يقرب من ترجمة وافية ^(١) على أنه حين تصدئ لتعريفنا بابن الرومي

(١) وقد يئس الاستاذ المازني قبله من ذلك فقال : « وما نطمح أن نؤدي للقارئ ترجمة لهذا الشاعر محكمة الحدود ، فإني من ذلك لئلي بأس كبير » ص ٣٢ من حصاد المهشم

الشاعر لجأ إلى ضرب من المغالاة والاغراق لا يصح أن يتصف به ناقد حديث . فإذا جاز لبعض القدماء أن يقولوا هذا أمدح بيت وهذا أغزل بيت وهذا أشعر شاعر — وقد انتقد عليهم ذلك الشطط الاديب الجرجاني صاحب الوساطة — لم يجز للناقد الحديث أن يقول : « فهو الشاعر من فرعه إلى قدمه والشاعر في جيده ورديته والشاعر فيما يحتفل به وما يليقه على عواهنه » . أو يقول : « فأتحرك في حياته حركة الأكان لعبقريته منها أوفى نصيب » . وما هذا كلام ناقد ، ولكنه قول شاعر تسبح به عاطفته وأعجابه في عالم الخيال . وإذا كان لابد من الدفاع عن رديء ابن الرومي وسخفه فليسلك طريق الجرجاني ، في وساطته ، حين قال : « ولو تأملت شعر أبي نواس حق التأمل ، ثم وازنت بين انحطاطه وارتفاعه ، وعددت منفيته ومختاره ، لعظمت من قدر صاحبه (المتني) ما صغرت ولا كبرت من شأنه ما استحققت » الى ان يقول : « فهل طمست معانيه محاسنه ؟ وهل نقص رديه من قدر جيده ؟ » (الوساطة ص ٥١) . ومن أحكامه : « ان عبقرية ابن الرومي عبقرية يونانية لولا الافراط والانهماك ، أو أنها عبقرية يونانية مكبرة الجوانب بعض التكبير » فإذا بحثت عن أدلته لم تجد إلا فروضاً لا سبيل الى تحقيقها . ونحب ان نقول أن أمثال هذه التزات لا بد لها من التمهيص الكثير قبل الاخذ بها . وقد طالما شكونا من الجامدين اللب بالالفاظ ، فالآن نخشى ان يشكو الناس من المجددين الاسراف في الفروض

وقد ذكر ان أبا الفرج أهمل ابن الرومي حقاً عليه ولم يبين لنا أسباب هذا الخلق (١) ثم أنه سلك في مناقشة ابن خلكان مسلكاً لا نرضاه له ، وتأول في كلامه حتى أخرجه عن الجادة وحمل الفاظه ما لا قبل لها باحتماله . فقد شاء أن يرى في تعريف ابن خلكان الدقيق نقصاً كبيراً « هو المهم وهو الاجدر بالتنويه ، وهو المزية الكبرى في الشاعر » فان شئت ان تتعرف ما هي تلك المزية الكبرى التي أغفلها ابن خلكان قال لك « هي الطبيعة الفنية التي تجعل الفن جزءاً من الحياة » . ومتى أغفل ابن خلكان ذكر هذا التعبير الجديد — الطبيعة الفنية — « Artistic Nature » فقد ترك أهم مميزات ابن الرومي . ولسنا ندري كيف يمكن ان يكون الفوص على المعاني النادرة وابرازها في احسن صورها غير مصحوب « بطبيعة فنية واحساس بالغ وذخيرة نفسية » وكيف تكون المعاني النادرة « اصداًفاً كأصداًف ابن نباتة وصفي الدين الحلي واضراهما ؟ » وكيف يكون ذلك « لعباً فارغاً ك لعب الحواة والمشعوذين » وكيف تكون المعاني نادرة وهي حقيرة تافهة ؟ هل يجدر بنا ان نفهم ان هذا التعبير الواضح يمكن ان يحتمل مثل هذا التأويل ؟ وهل نفهم ان المعاني النادرة يمكن

(١) ارجع الى مقال « ابن الرومي » كيف اغفله صاحب الافاني المنشور في مقتطف مايو ١٩٢٩ ص ٥٣٩

ان يكون معناها النادرة في السخف ؟ وهل نفهم من قولهم « رجل نادر » انه رجل نادر في الغباء مثلاً . ان للألفاظ مدلولات ومعاني لاسبيل الى تجاوزها مهما بذلنا من جهود وتأويلات . ويجب ان نفهم بالبداية مبلغ الفرق بين الغوص على المعاني النادرة والغوص على المناسبات الفارغة والولوع بالقشور الحقيمة . وكيف يبرز الشاعر تلك المعاني النادرة في احسن صورها من غير ان يسعده طبعه ، او « طبيعته الفنية » ان كان لابداً من هذا التعبير الفرنسي . وكيف يتسنى للشاعر ان يؤدي تلك المعاني الرائعة « من غير ان يكون عنده ما يعبر عنه » كما يحاول ان يقتنعا حضرة الاديب المفضل ؟ ان الطبيعة الفنية هي ما ألفنا التعبير عنه بكلمة « الشعرية » في الشاعر ، وقد كان نقاد العرب يوجزون مع الاحاطة الشاملة فيقولون الشاعر ويجتزئون بهذا اللفظ عن كل ما يستلزمه من طبيعة فنية وما إلى هذه التعابير ، فاذا قصر في شيء قالوا انه ناظم او متكلف ووصفوه بما قصر فيه . فأنت ترى ان ابن خلكان لم يترك شيئاً جديراً بالتنويه ، فهو يرى ان الشعرية أو « الطبيعة الفنية » صفة لازمة للشعراء وليس يميز ابن الرومي عن اضرابه غير تلك المزاي التي ذكرها ، فهي وحدها التي تميزه عن البحري وأبي نواس ودعبل ومهيار وغيرهم ، أما الطبيعة الفنية فهي تراث شائع بين هؤلاء جميعاً

وقد ذكر ابن سعيد المغربي ، الذي استشهد بقوله المؤلف ، قولهم إن ابن الرومي كان أحق الناس باسم شاعر ، أي انه أقواهم « طبيعة فنية » على حد تعبيرنا الحديث ، وعلل ابن سعيد جدارته بهذه التسمية بكثرة اختراعه وحسن توليده وهو بهذا يذهب مذهب ابن خلكان

(وبعد) فهذه نظرة تقدير لهذا الكتاب النفيس وفيه عدا ما ذكرنا مواضع كثيرة للاصابة واجادة التحليل جديرة بالتنويه بها ، ومواطن أخرى جديرة باعادة النظر والتمحيص ، وليس يتسع المقام للتفصيل فلنجتزئ بهذه اللوحات ولنسجل شكرنا لحضرة مؤلفه الفاضل على ما بذل من جهود محمودة في إذاعة فضل هذا العبقري العظيم ولنا كبير الامل في أن يكون هذا المؤلف النفيس حافزاً لدراسات أخرى لهذا الشاعر العظيم وغيره من شعراء العربية وأساطين الفكر فيها ، فان كتابة سير الفحول ورسم صورهم — على مثال ما قام به اندره مورو في الفرنسي في درس شلي ويرون ، واميل لدوغ الألماني في درس غوته ، واضرابهما — نزعة بعيدة الاثر في اقبال الجمهور على درس المجيدين من الاعلام بلهفة ولذة نادرتين

الشاعر القروي

على ذكر حفلة تكريمه في البرازيل
بقلم الشاعر المصري الشيخ محمود أبو الوفا

ادب على الخلق المتين اساسه لا خير في ادب بغير اساس « القروي »
اذا صح ان لكل نفسية مفتاحاً تفتح به مغالقتها وتظهر بواسطته رقائقها ودقائقها
فإني اعتقد ان مفتاح نفسية الشاعر القروي انما هو هذا البيت الذي اصدر به في رأس
هذا المقال — وحينئذٍ فلاجل ان نعرف هذه النفسية من اي نوع في النفسيات المختلفة
النواحي المتباينة المرامي يجب ان نعرف ما هو الخلق المتين الذي يصير الشاعر ان يجعله
اساس أدبه بل يصير انه لا خير في هذا الادب ان لم يكن له هذا الاساس — واذن فيجب
ان نعرف لون هذا الخلق من الشاعر نفسه لا نه ليس هناك احد اصدق منه ولا ادرى
في تعريفنا عن الحدود او الالوان التي يلون او يحدد بها قواعد هذا الخلق المتين .
لنسمع الى الشاعر كيف يرسم قواعد الخلق في المثل الانساني العالي الذي ينشده وكيف
يفصل تلك القواعد قاعدة قاعدة وكيف يجعل القاعدة الخلقية الواحدة في انشودة شعرية
واحدة رفقاً بالناس ان تنقل عليهم الامثلة او يملوا من سماع ما يريد من الاناشيد فيقول
في حديثه مع طائر خاف شر العاصفة فلجأ اليه فرق له وأجاره : —

تأثماً في المساء يطلب ملجأ والغيوم السوداء تهطل ثلجا حجر الحقل وأرنب والمرجا
انما المرء في الشدائد رجي حين يمسي روض الطبيعة فقرا
بلبلُ الروض والجنح مُبَلَّل خافت الصوت ساكت فتأمل نبذته رياضُهُ فتعلَّل
بجمانا عن الرياض وأمل ان يكون الانسان اهون شراً
ولج البيت خائفاً متردد ينشد القوت بعد ان كان ينشد جاء مستنجداً فكنت المنجد
ومسكت العصفور لا لا قيد بل حناناً عليه والله ادرى
بلبلُ الروض هاك دفناً وقوتا بلبلُ الروض ما خلقت صموتا
بلبلُ الروض قد اطلت السكوتا عد فردد لا تخشى يا طيرضراً
أمن البلبلُ الفصيحُ فغنى بعد ان كان ساكناً واطماناً واسم ساكت فصيح تمنى
لو يتيح الزمان ان يتغنى ويناعي الاطيارا نثراً وشعرا

الى ان قال

يا كريماً حاملته بالكرامه صن عهود الرشيد وارع ذمامه هداً الطبع رافقتك السلامه
حبذا لو رغبت معنا الاقامه انما الحر لا يقيد حرّاً

أفلا ترى أيها القارئ في هذه القصة مثلاً من أعلى الامثلة في حفظ الجوار وحماية الضمءاء. ثم ألا تجد في آخر هذه الأ نشودة بل تحس كأن شيئاً يلفتك كأنه يستوقفك لتصغى اصغاء خاصة الى قوله «انما الحرُّ لا يقيد حرّاً» فإذا وقفت متنبهاً لتعرف مدى هذه الحرية التي يريدها الشاعر لك أو يريدك لها وجدت أنه لا يريد منك أن تحبس الحرية عن أي مخلوق في الماء وفي الهواء على حد سواء. هو لا يريد أن يقف عند اطلاق الحرية للطائر الذي مثله لنا في اغنيته وحسب، ولكن هذا الشاعر ياجأ الى قوته او الى نفوذه او حيلته او الى اي شيء لا ادري لكي يطلق حرية السمك ايضاً من شصوص الصيادين ثم هو حين يردّها الى مسرح حريتها في البحر يقف يتغنى بما هو حري أن يمنع هؤلاء الصيادين هم واحفادهم واحفاد احفادهم الى يوم القيامة .. من صيد اسماك البحار وتعذيبها بالشصوص فيقول في هذه الاسماك

علقت بشص فاعتلت وترجحت	كترجح المستشهد المتعلق
فتراحوا وسط السفينة حولها	يتضحكون لدمعها المترقرق
جحظت وقد شدّ الاسار خناقها	تبدي محاولة الاسير الموثق
وكان عينها لسان ناطق	الشعر يفهمه وان لم ينطق
عيناها هاتفتان بي دون الوري	اني أعوذ بقلبك المترفق
عابتها فشعرت اني ماثت	شققاً فصحت بلهفة وتحرّقت
ردوا الحياة الى البريئة واحبسوا	انفاسكم عن صدرها المتمزق
وطرحتها في البحر فانسرحت كما	اطلقت طيراً في الهواء المطلق

يمثل هذا النفس العالي ويمثل هذا النعم المكهرب كما يقول الاستاذ كفوري أحد الخطباء في حفلة تكريم الشاعر، يخاطب هذا الشاعر القروي النفس البشرية ويفذيها ويحجها على العطف والشفقة والرفق والرحمة بأخيها الضعيف. فيلقي درساً نقيساً في الشعور والاحساس وبعبارة أخرى شبيهة بعبارة الاستاذ كفوري نقول انه بهذا النفس الشعري العالي وبهذا النعم المكهرب يلقي الشاعر القروي دروسه في الاخلاق المتينة التي يجب أن يبني عليها الانسان الذي بتصوره لاثقاً بالحياة أو لاثقة به هذه الحياة

ألا يثبت لك أيها القارئ من هذه الامثلة كلها أن الشاعر لا يريد من الخلق المتين الذي ينشده ويدعو اليه بل ييشر به سوى الخلق العربي الصميم الذي اشتهر من قديم الازمنة بحب الحرية وبحفظ الجوار والانتصار لمن يلوذ بك مهما كلفك هذا الانتصار. وبعبارة أقصر ألا يثبت للقارئ مما أسلفناه أن الشاعر لا ينشد إلا أخلاق القرية اللبنانية التي شغفت

حباً بها واعزازاً لها حتى أنه لم يستطع إلا أن يخلطها باسمه كما خلط حبها دمه فلقب نفسه
بالشاعر القروي وظل يشتهر ويشتهر بهذا اللقب حتى صار كثير من الناس لا يعرف اسم
الشاعر الحقيقي وإن كان لا يوجد أحدياً أظن يجهل أن هذا اللقب إنما هو لشاعر عربي مشهور
أن هذا اللقب الذي ارتضاه لنفسه الأستاذ رشيد سليم الخوري الشاعر المقيم بالبرازيل
ليوحي الى الانفس أكثر مما يوحيه أي لقب آخر لأي شاعر آخر. فلشعراء من عهد امرئ
القيس والحطيئة والاختل والفردق من الشعراء الاولين الى عهد أمير الشعراء شوقي
وشاعر القطرين مطران في الشعراء الآخرين، القاب ذاعت لهم في الدنيا وليكنها لا توحى
للافس ما يوحيه لقب الشاعر القروي. فهذه الالقاب جميعاً لا تعطي عن أحبابها إلا فكرة
محدودة في ميزة خاصة. أما لقب القروي فإنه يترجم لك صاحبه أدق ترجمة ويصور لك
نفسه وفلسفته أيضاً أتم تصوير

أذكر أن أول قصيدة قرأتها للشاعر القروي كانت قصيدته «قطعة الخشب» التي نشرها
المقتطف من عام تقريباً وأذكر أن هذه القصيدة أخبرني بعنوانها أحد رفاقي الادباء قبل
أن يصل المقتطف الى يدي فقلت لصاحبي يومئذ ويل للشعراء وماذا عسى أن يقولوا في
قطعة الخشب اللهم إلا أن يكون هذا الشاعر كباوياً أو ساحراً أو شيئاً آخر استبعده كل
البعد. فقال صاحبي وما هو هذا المستبعد قلت أن يكون الشاعر قروياً. قال هو ما قلت
ياسبحان الله. ثم قلت لصاحبي يومئذ لا بد أن يكون هذا الشاعر صادقاً جداً ما دام وهو
قروي يتخير مثل هذه المواضع. فقال صاحبي أنه مقيم بالبرازيل منذ عشرين عاماً على أقل
تقدير. ولكي حرصت الحرص كله على قراءة قصيدة قطعة الخشب في المقتطف فلم أزد
إلا اقتناعاً بأن الشاعر على الرغم من برازيليته الأخيرة قروي الطبع والفلسفة والمأطفة.
أنه قروي لحماً ودماً وعظماً كما يقولون هو قروي أيضاً في إيمانه الذي يشير إليه في هذه
القصيدة فيقول إشارة لقطعة الخشب

أنها جبة لاشهى احاديث الهوى عن مجامع الاطيار
أن فيها همساً لطيفاً عن الحب ونجوى الارواح والافكار
أن فيها أمرار شعر وموسيقى وفيها شرار نور ونار

وهكذا عدت أسأل عن شعر القروي الصادق فوقفت في المقتطف على قصيدته :

«أختي المريضة في العيد»

وقبل أن أذكر أي شيء في هذه القصيدة ألا ترى أيها القارئ ان سذاجة هذا العنوان

وخذها كافية للبرهنة على سذاجة عاطفة هذا الشاعر — هذه السذاجة التي لا توجد إلا في القرويين ثم وماذا عساك ايها القارىء ان ترى في هذه القصيدة الا سذاجة عاطفة ليس وراءها غاية وبراءة طبيعة ليس بعدها نهاية. فالشاعر لا يزال الى سنة ١٩٣٠ يرى ان العيد يجب ان يكون عيداً بكل معنى هذه الكلمة عند الاطفال او عند القرويين ولكنه ينظر فيجده غير ذلك. لماذا لان اخته مريضة اخته لا تطفر مع الصبايا لداتها فهو من هذا الالم يقول

رأيت الصبايا صفوفاً تفني وتطفر في العيد مثل الظبا
الى كل روض على كل غصن اهاب الربيع فلبسى الصبا
قصائد من كل وزن ولحن يرتلها الله فوق الربى

واختي البريئة رهن الالم كما حبس الطفل عن ملعبه
الهي ضيقت أعلى نفم وعطلت شعرك من اعذبه
ثم وبماذا نحكم على الشاعر الذي يقول لاخته المريضة في العيد
اخية يا ليت هذا العذاب على مهجتي كان لا مهجتيك
وليت الكرى في دموعي ذاب لاسكين على مقتلتك

لا أظن اتنا عدنا في حاجة الى اثبات قروية هذا الشاعر بعد ما أثبتنا هو لنفسه اثباتاً لا ينفك عنه الا اذا استطاع أن ينفك من اسمه ولقبه وعاطفته وشاعريته، ولا أحسب هذا القروي يرضى أن يتنازل عن شيء من هذا بملء الارض ذهباً !

ابراهيم الكاتب

قصة مصرية — بقلم ابراهيم عبد القادر المازني — ٣٨٢ صفحة قطع وسط
لا مندوحة لنا عن العناية بأدب القصة اذا شئنا للادب العربي الحياة والارتقاء. فالاديب القصصي يجب ان يكون قد وعى الحياة تجريباً وملاحظة — او على الأقل يجب ان يكون قد وعى صور الحياة التي يحاول ان يجعلها مدار قصته — ويجب ان يكون كذلك ذا بصر نافذ يرى ما تحفيه المشاهد من الحقائق، وخيال — كحجر الفلاسفة — يحول الصور النافهة الى صور تأسر اللب وتقسر العقل على التفكير. ولكنه يجب أن يفعل ذلك من دون أن يتعب القارىء. لذلك يجب ان يكون مستتباً للحوادث بارعاً في سوقها. ثم ان القصة صورة لناحية من حياة الامة التي تكتب عنها، وصورة لحياة الكاتب، فهي اذاً ميدان تلتقي فيه كل هذه العناصر — عناصر الفكر والخيال والشعور والاسلوب — ولكنه التقاء وحدة واندماج لا التقاء رصف واجتماع. لذلك تبعد من القصة الخطب والخطات ويجعل المؤلف سبيله الى الكشف عن نظريته وعقيدته أشخاص القصة وحوادثها

والقصة التي نحن بصدد ها قصة نفس ابراهيم الكاتب. أي انها قصة تحليل بعهد فيها المؤلف الى نفس ابراهيم الكاتب، وما يدور حوله من اشخاص الرواية الاخرى فيشرّحها ويكشف عن عواملها وخوالجها في حالاتها المختلفة. فيفوز بنصيب كبير من النجاح في ذلك. وهذا النوع من القصة ذائع كل الذبوع في اوربا وخصوصاً في فرنسا. وهي الى ذلك قصة وصف حلوم ورسم دقيق. فانت تقرأ أوصاف الطبيعة فيها، فتشعر أن هذه العبارات العربية المختارة صادرة عن واصف شاهد ما يصف، واحسن ما يحسن شخصية في الرواية. وهو يرسم لك بعض الاشخاص في سطور قلائل وحوادث صغيرة لا يؤبه لها عادة ولكنها فعالة في توضيح الاثر الذي يتوخاه فرسمه للشيخ علي على قلة ما ورد عنه في الرواية يجعلك تصوره كأنه أمامك لحماً ودماً ومما يتصف به المؤلف شدة الملاحظة للشؤون الصغيرة فتشكل الصورة العامة التي يحاول رسمها وتجلوها. فهو يقول في وصف حالة بين حالات نحية ص ٣٣ «وتضرب كف بسراها على ظهر ينها» ص ٥٠ «كان كل منهم يدفع الباب برجله ...» ص ٥٢ «وامتدت يده الى جيبه ... وأخرجت الساعة ولكنه لم يقرأ فيها شيئاً بل ابتسم اذ تذكر أنه لم ينظر الى الساعة حينما غادر شوشو فلا يستطيع ان يعرف كم لبث في هذه الغرفة» ص ٧٢ «ان القطة التي لبثت هنية في حجر شوشو انتقلت الى حجره والمستقر شعرها الذي لمس كف شوشو من قبل ...». ثم وصفه البديع للرجال الذي كانوا يحاولون اعتراض سبيل «ليلي» على شرفة فندق الاقصر، بحيلهم المختلفة ص ٢٥٦ و ٢٥٧

كل هذه الملاحظات التي يسوقها اليك في صلب القصة تقنعك بأنك تقرأ لقصص عريف الحياة ثم انك تستطيع أن تختار من القصة عبارات عديدة تشتمل العبارة منها على وصف بايغ أو صورة بديعة أو حكمة غالية. فنجية التي تستنكر كل جديد لا ترضى أن تضاء غرقها بالكهرباء في قصر مضاء بها بقيت غرقها «كأنها قطعة متلكئة من الزمان العابر». واذ صاح ابراهيم بشوشو يابلها لتليح بدر منها ففر منه وخرج «خلفها واقفة مبهوتة واجهة تحماق في أثره وفيها مفتوح من الدهشة حتى كأنما أحالها بصيخته هذه تمناً للبلابة» على ان من العبارات ما يشعرك أنه مترجم كقول ليلى ص ٣٥٨ «هذا ما تاملته في السيارات وانا عائدة الى بيتي بعد السهرات» اشارة الى تقييلها الشبان قبيلات باردة. وهذه عادة مألوفة في اوربا ولكننا لا نعلم انها مألوفة في الاوساط المصرية! الا اذا كان المؤلف يريد الاشارة الى حياة ليلى في باريس

فالقصة من حيث هي قصة تحليل قصة حسنة. ولكن الحركة تنقصها. فليس فيها من تعاقب الحوادث والمواقف الجديدة ما يبعث في النفس الرغبة في الاستزادة. ونحن لا نريد

أن نقول بان كل قصة يجب أن تكون كذلك . ولكن الحركة الى حد ما هي حيلة المؤلف وغرضها استدراج القارئ للسير معه . ونحن نخشى اننا اذا انصرفنا في بدء عهدنا بالقصة العربية الى قصة التحليل أن نفوت علينا الغاية من هذه العناية . اذ يغلب أن يكون هذا النوع من القصة صعباً على القارئ المتوسط . ونحن نريد أن نغري القارئ بمطالعة القصص حتى يتسرع انتشارها ، فيكون هذا الاتساع مغرياً للادباء بالاقبال على القصة والالتفات اليها والسير بها في معارج الارتقاء

المشريات

وهي ديوان المحامي الاستاذ نجيب مشرق . لنظمه رونق ولا لفاظيه سراوة واشراق فهو من دواوين شعراء الديباجة المعاصرين في الطليعة بل هو مثل من خير أمثلة الفصاحة اللفظية الموسيقية التي تغري الاسماع وان لم تأت بمجديد فمن هذه الفصاحة الساحرة قوله في وصف لبنان

جبل اذا حدثت عن أرباضه حدثت عن الف الجمال وياثيه
خطبت مودته الملوك وأفصح التاريخ عن عمرانه وروائه
ومشت الاجيال في اظلاله ومشى الجلال الفخم فوق قبائه

والديوان كله من ماء واحد متدفق من هذه الفصاحة التي يستطيع صاحبها أن يكون من شعراء الارتجال . وبعد فهذا الديوان يريك صورة واضحة عن مكانة ناظمه في قوميه ومنزلة شعره من نفوس اخوانه فانك قلما تجد قصيدة من قصائده قيلت في غير مناسبة أخوية أو شبيهة بالأخوية كالحفلات المدرسية وما الى ذلك فأنت من هذا الشاعر مستمع دائماً أما الى تهنئة أو الى تمزية في حفل أخوي خاص أو في حفل عام شبيه بالخاص

ولعل هذه الملاحظة هي التي جعلت الشاعر يقول في مقدمة ديوانه « وعاهدت النفس أن لا أطبع الا بقدر النسخ المشترك فيها بحيث لا يعرض الديوان للبيع ولا يرسل الى غير من يشتركون فيه » فكان الشاعر يقول ان لديوانه حرمة الاندية أو الصالونات الخاصة وحينئذ فليس لأحد أن يعترضه في كثرة تهانيه أو تعازيه . ولكن لاشك ان رغبة الشاعر في حفظ كرامته أدبه نزعة تدل على احساس الشاعر فهي جديرة بالتنويه جديرة بالشكران كما أن الشعر الذي يخلد الوفاء في الاخوان خليق بالحفظ خليق بالصيان

وفوق ذلك فالديوان محلى بصور لطيفة من فضلاء لبنان وعظمائه تدلنا حفاوة الشاعر بحرفاءهم به أن لبنان لا يزال عريباً كما كان فهو لا يزال يتذوق الشعر ويمجد الشعراء فان لم يكن المشريات الا هذه الدلالة لكفى

قصص جديدة للأطفال

بقلم كامل كيلاني

(١) بابا عبد الله والدرويش (٣) علي بابا

(٢) أبو صير وأبو قير (٤) عبد الله البري وعبد الله البحري

طالعنا قصص جديدة للأطفال تأليف الاستاذ كامل كيلاني فألفيناها كما رسمها مؤلفها الفاضل جديدة بكل معنى هذه الكلمة فهي جديدة في أسلوبها باللغة حد الإعجاز في الإيجاز فكأنها تحرير للأسلوب العربي ولا سيما القصص من الأسهاب الذي يجري عليه أكثر الكتاب . كذلك جديدة هي في طبعها فهي أول قصص طبعها مطبعة المعارف بهذه العناية التي لم تقتصر على جلب الحروف المطبعية خصيصاً لها من أوروبا بل تجاوزت ذلك إلى حد أن مطبعة المعارف أرسلت صور هذه القصص إلى ألمانيا لتحفر هناك ثم طبعها بالألوان الفاتنة . فانت إذا قبض لك أن تنظر في هذه القصص رأيها فاتحة عصر جديد في صناعة الطباعة العصرية كما أنها كذلك في صناعة البيان . ثم وراء هذا التجديد كله ترى هذه القصص جديدة كل الجدة في الغاية التي وضعت من أجلها

فإن المؤلف لا يقصد من تأليف هذه القصص وغيرها من نوعها إلا إنشاء مكتبة للطفل لتؤدي لهذه البلاد الشرقية ما تؤديه مكتبة الطفل للبلاد الغربية . ولا شك أن حضارة البلاد الغربية مدينة لمكتبة الطفل بأكثر مما هي مدينة به لمكتبات كبرى الجامعات . هذا إلى أن الاستاذ كامل كيلاني بانصرافه إلى تحقيق هذا الغرض النبيل قد أدى لهذه البلاد العربية الشرقية أعظم خدمة يؤديها لأمتيه الكاتب الموهوب . فإن إنشاء مكتبة أطفال عربية معناها في الحقيقة إنشاء جيل جديد موحد في ثقافته متجانس في أهوائه وميوله وذوقه فهي في الجملة إنشاء قومية متفاهمة ليست مختلفة أو متوتبة للاختلاف في كل شيء كما هي حال اليبثات العربية الآن

فنحن إذا اطربنا جهود الاستاذ كيلاني أو نوهنا بمؤلفاته إنما نقصد غرضاً أبعد من إنشاء الشخصي ، نقصد توجيه الانظار للارتفاع بهذه المؤلفات واستغلالها استغلالاً يتفق وما بطمح إليه الشرق من النهوض والارتقاء . ومن الواجب أن نعلم أن الحضارة الغربية لم ترق في أقوى دعامها إلا على أساس متين من العناية بالأطفال وتربيتهم تربية صحيحة وطبع طفولتهم على أحسن ما رآه القوم هناك من المثل الصالحة للحياة

وما أجدرنا أن نعتي بتنقية غذاء عقول أبنائنا كما نعتي بتنقية غذاء اجسامهم سواء بسواء

سيد ابراهيم

ذكریات باریس

بقلم الدكتور زكي مبارك — صفحاته ٣١٩ قطع المقتطف بنط ٢٤ — طبع بالمطبعة الرحمانية بمصر

فما رأيت من الاخطار عادية إلا بنيتُ على اجوازها سكتي

ولا لمحت من الآمال بارقة إلا تقحمت ما تجتاز من قُثن

احلتُ دنياي معنى لا قرار له في ذمة المجد ما شردت من وسن

يمثل هذه المهمة العالية ، والارادة القوية ، والطموح النبيل ، اقدم الشيخ . . زكي مبارك على اقتحام الاسوار المنيعه التي تحيط بمعقل الحياه الفكرية ، فطلب العلم في الجامعة المصرية القديمة وفاز بشهادة الدكتوراه برسالة جريئة في « الاخلاق عند الغزالي » وواصل درس اللغة الفرنسية لكي يتمكن من طلب العلم في جامعة باريس واجتاز البحر مراراً الى عاصمة النور لتكملة الدرس وتادية الامتحانات فحاز دبلوم الدراسات العليا في الآداب من مدرسة اللغات الشرقية بباريس برسالة موضوعها « النثر العربي في القرن الرابع الهجري » خالف فيها اساتذته المصريين والمستشرقين مثل الدكتور طه حسين والاساذ مارسيه . وقد اصبح البحث في هذا الموضوع من امتع ما تملأ به صفحات البلاغ الادبية بعد عودة الدكتور مبارك وتوليهِ الكتابة فيها

وكان لا بداً لهذه النفس الشرقية الحساسة ، ان تتأثر ، وهي في باريس ، بصور الحضارة الغربية المتعاقبة عليها ، فوصف ذلك في رسائل نشرتها جريدة « اساء » في عهد الاساذ عبد القادر حمزه ، كلها طلاوة ورواء ونقد ورعبرة وحسن دعاية

على اننا لا نرضى للاستاذ ان يقول في تمهيد انه لما دخل باريس « كنت اعرف من دقائق اللغة الفرنسية ما لا يعرفه الا الاقلون » وهي دعوى طويلة عريضة ، لا يمنع اهمالها من مقدمة الكتاب انه كان يجيد الفرنسية . فقد عرفنا بالاختبار ان النفوذ الى اسرار اية لغة وامتلاك ناصيتها ، قلما يتم لغريب عنها الا اذا تعلمها من صغره وتلقى فيها علومه وعاش مدة طويلة في بلادها وعالج اساليبها نقداً وتالياً . وهذا لا يحط من قيمة معرفة الدكتور مبارك لها ولا لدقائقها معرفة مكنته من تلقى العلم ووضع رسائلها . ثم اننا لا نوافق على ان تأنيث « باريس » يعود الى اتنا (الشرقيين) بحسبها مدينة الخلاء والفسق . اذن لماذا تؤنث نيويورك وشيكاغو ووشنطن ولندن وبرلين . فبعضها لم يشتهر الا بالجرائم وتهريب المسكرات كشيكاغو ونيويورك والثلاث الاخرى عواصم عظيمة تضم كل بين برديها السياسة والمال والعلم والهوى — والمرجح عندنا ان تأنيث باريس او لندن انما هو ناشئ من انصراف الذهن الى ان هذا الاسم انما اسم مدينة او عاصمة

بسائط علم النفس

وضعه احمد عطية الله — مدرس علم النفس والتربية — بمدرسة المعلمات الراقية
طبع بالمطبعة الرحمانية بمصر وتمه ١٠ غروش

حبذا لو عيّنت طائفة من شبابنا المتعلمين بالاشتراك في اخراج سلسلة من «البسائط». فالقارئ العربي في اشد الحاجة اليها . والمجلات لا تستطيع أن تسد حاجة . لأن الاساس في المجلات تنوع الموضوعات . والاساس في التعليم انتظامها في وحدة متسكة الاجزاء . ولا تنافر بين اثر السلسلة واثر المجلات في الثقافة العامة بل أن الثانية تكمل عمل الاولى وبهما معاً تتم الفائدة المنشودة . وقد فطنت الى ذلك بعض شركات النشر الاوربية والاميركية فاخرجت سلاسل من «البسائط» ، فاحر بنا أن نحاول مجاراتها ، فنضع سلسلة على نمط سلسلة «النقش في الحجر» التي كان الدكتور وليم فاندريك قد وضعها في الطبيعة والكيمياء والفلك والنبات والحيوان والجيولوجيا . وهذا عمل جليل ، واذا احسن الاضطلاع به تأليفاً ونشراً ، وجب أن يكون عملاً راجحاً

نسوق ما تقدم على ذكر بسائط علم النفس التي اتفقنا بها الدكتور عطية الله . وهو مثال محسن للسلسلة التي نقصد اليها ، اذا زالت منه بعض الهفوات المطبعية واللغوية ، التي لا يكاد يخلو منها كتاب عربي . أما بسطه لعناصر الموضوع وضربه للامثال التي توضح القواعد التي يقررها ، فيقر بان اصول موضوع عويص للقارئ المبتدى . ولا يخفى أن علم النفس الفلسفي قديم جداً ، أما علم النفس التجريبي فحديث جداً . ومحرر هذه المجلة يذكر أنه لما حضر مجمع تقدم العلوم البريطاني المنعقد في تورنتو سنة ١٩٢٤ سمع الاستاذ مك دوغل يلقى خطبة الرأسة في قسم علم النفس فيه فكان مطلع خطبته اعلاناً لاستقلال علم النفس عن غيره من العلوم . وهو على حدائنه شديد الاتصال بالتربية والتعليم والصناعة والتجارة والصحافة وغيرها من شؤون الحياة اليومية . ولا بد من فهم أصوله لكل من يرغب في تثقيف عقله تثقيفاً متزناً . فتحن نحث عشاق المطالعة على قراءة هذا الكتاب كمدخل لعلم النفس الحديث

الدليل العام للقطر المصري والخارج

أصبح هذا الدليل من المراجع التي لا غنى عنها للتجار والاطباء والصحافيين . فهو يصدر كل سنة في اوائل نوفمبر حاوياً لكل ما تلزم معرفته من حقائق وعنوانات وارقام تلفون لاصحاب المهن الحرة والموظفين والاعيان ومحلات التجارة والصناعة المختلفة . وقد صدر دليل هذا العام حافلاً بكل ما تقدم من المعلومات مبوثة احسن تبويب حتى يسهل تناولها والبحث عنها

بَابُ الْإِخْبَارِ الْعِلْمِيَّةِ

مجمع تقدم العلوم البريطاني
واحتفاله المثوي

نشأة المجمع

يظهر أن السعي لاذاعة العلم وحمل الجمهور على العناية بشؤونه بدأ في ألمانيا في مطلع القرن الماضي، وكانت انكلترا حينئذ متأخرة عنها من حيث اعتراف حكومتها بالجمعية العلمية. فآخذ السر دافيد بروستر يندد بالجمعية الملكية في لندن لتقصيرها في الإحلاح على الحكومة بالاعتراف بمقام العلم. وأخذ يقابل بين مقام رجال العلم في انكلترا ومقامهم في بلدان أوروبا. واتجه هو ومن نحا نحوه إلى ألمانيا وفرنسا لاستلزام القواعد التي يجرون عليها في تنظيم جمعية علمية يكون غرضها خلق حافز للبحث العلمي وتوجيه توجيهاً متظماً ونشر مبادئه في جمهور الناس. وكان في ألمانيا جمعية تأسست في لينز سنة ١٨٢٢ فحضر اجتماعها الأول ثلاثون فقط. ولم تلبث حتى نمت واتسع نطاقها فقسمت إلى أقسام مختلفة كل قسم منها يتناول البحث في فرع واحد من فروع العلم. ولما اجتمعت هذه الجمعية في هيدلبرج سنة ١٨٢٩ أشار

رئيسها إلى ارتفاع مقام العلم في انحاء العالم المتمدن فقال « ومع أن استطلاع طلع الطبيعة كان فيما مضى تسلياً للعقول التي لا عمل لها، أصبح الناس في العهد الأخير مقتنعين بماله من الأثر في الحضارة ورفاهة الأمم، واخذ زعماء الأمم يعنون بإنشاء المعاهد لترقيته وتوسيع نطاقه »

ومن ثم أخذت مدن ألمانيا تتسابق إلى خفر دعوة هذه الجمعية لعقد اجتماعها السنوي فيها وبعد اجتماعها في همبرغ سنة ١٨٣٠ بدأ السر دافيد بروستر يهتم بإنشاء جمعية بريطانية على نمطها واقترح مدينة يورك لعقد الاجتماع الأول فعقد فيها سنة ١٨٣١ وتلاه اجتماع في أكسفورد فثالث في كمبردج فرباع في أدنبره فخامس في دبلن

ولقي المجمع في عهده الأول مقاومة شديدة فكانت الصحف ترفض أن تنشر خطب الفلاسفة والعلماء التي تلي فيه إلا إذا نشرت كأنها إعلانات ودفعت أجرها أسوة بالاعلانات. ولم يتورع بعض الصحف في الهجوم على المجمع وكيل النقد اللاذع لرجال

وكان أبوه محامياً يتسلى بالتجارب العلمية في أوقات فراغه . وكان الابن في حداته شديد الحياء يتعلم إذا وجه إليه العلم سؤالاً ، فظن خطأ ، أنه بليد العقل ضعيف الفهم ، ولكنه لم يلبث أن تغلب على شدة حيائه فتفوق على جميع أقرانه وفاز بجائزة الرياضيات . فطرب أبوه وصار يصحبه معه إلى الاجتماعات التي تعقدتها جمعية أدنبره الملكية . وبدأ مباحثه العلمية لما كان في الخامسة عشرة من عمره ، اذ قرأ الأستاذ فوربز في الجمعية المذكورة رسالة لمكسول موضوعها « طريقة ميكانيكية لرسم الاشكال الدكارتية البيضوية » . ثم عني بدرس استقطاب الضوء . ولكن هذا الجهد العقلي الكبير ، مضافاً إليه جهد القيام بما يطلب منه كتمليذ حتملاً جسمه ما لا يستطيعه فاعتلت صحته . ولما كان في السادسة عشرة من عمره ، بدأ الخلاف بينه وبين والده ، فقد كان يرغب أن ينقطع للعلم وكان والده يريد أن يحمله على تعلم المحاماة . ففاز الابن وأرسل سنة ١٨٥٠ الى جامعة كمبردج . وفيها وقف معظم وقته في مساعدة رفيق له كانت تجاربه في الضوء قد كفت بصره ، ففاز الطالب في امتحانه ولكن الجهد أضعف مكسول فأصيب بحمى دماغية دامت شهراً كاملاً ودخل بعد ذلك كلية ترنر وخاض الميدان الذي اكتشف فيه أعظم مكتشفاته - نعي الامواج الكهربائية المغنطيسية - وكان قد أحرر درسه للكهربائية حتى ترسخ قدمه

جزافاً : ولولا ايمان هؤلاء المؤسسين برسالة العلم في المجتمع لما تمكن البريطانيون في الصيف الماضي من الاحتفال بعيد المجمع المثوي احتفالاً فخماً حضرته طائفة من أكبر علماء الارض قاطبة واتسعت صدور الصحف لنشر انبائه ومحاضراته العلمية

عيد فراداي

ووافق ميعاد الاحتفال بانقضاء مائة سنة على انشاء مجمع تقدم العلوم البريطاني ، انقضاء مائة سنة على اكتشاف فراداي للتيارات الكهربائية المؤثرة . ولا يخفى ان هذا الاكتشاف كان القاعدة التي بنيت عليها كل الصناعات الكهربائية . وفراداي كما قال فيه ادبسن « أعظم العلماء المحررين » . وقال فيه آخر انه كان « بشم الحقيقة شماً » . لذلك أفردنا له فصلاً خاصاً في مقتطف اكتوبر الماضي أوجزنا فيه سيرته وأعظم آثاره العلمية

عيد مكسول

وفي نهاية احتفال المجمع احتفلت جامعة كمبردج بمرور مائة سنة على ولادة العالم والفيلسوف الطبيعي جيمز كلارك مكسول احتفالاً دام ثلاثة أيام خطب فيها اينشتين وبلانك وادفغتن وجينز وغيرهم من كبار العلماء المحدثين . وكلارك مكسول من أعظم العلماء الذين انجبتهم انكلترا - بل العالم - وُلِدَ في أدنبره في ١٣ نوفمبر سنة ١٨٣١

وخصوصاً من ناحية لورد كلثن ، ولكن المعارضة زالت لما تأيدت مباحثه النظرية بتجارب هرتز العملية . وكانت وفاته في ٥ نوفمبر سنة ١٨٧٨ اي انه عمّر سبعاً وأربعين سنة فقط

خطبة الرأسة

وألقى خطبة الرأسة الجنرال سمطس القائد البوري ورئيس وزارة جنوب افريقيا سابقاً وصاحب المذهب الفلسفي المعروف «بالهولزم» Holism . وكان موضوع خطبته «العلم — صورة عالمية للعصر» اثبت فيها ان للمادية — وهي الزهرة الفلسفية التي تفتحت في القرن التاسع عشر — التي تصور الكون عالماً تسيطر عليه قوى محدودة يمكن تقديرها والتنبؤ بنتائجها ، أصبحت ملكاً هاوياً عن عرشه . وان نسيية القرن العشرين قد خسفت الارض التي بنى عليها فلاسفة المذهب المادي — فاصبح الكون بحسب هذه النسبية عالماً مؤلفاً من «حوادث» تشغل حيزاً معيناً من الفراغ ومن الزمن ، (راجع مقال الحادثة في الوجود مقتطف مايو ١٩٣٠ ص ٥٤٣) ومن ثم اخذ في عرض التقدم الذي تم في العلوم الطبيعية وعلوم الاحياء متجهاً في الغالب الى تناول مغازيها الفلسفية . والخطبة طويلة تقع في ما لا يقل عن عشرين صفحة من المقتطف ، ومعظمها عويصّ وسوف نغني بتلخيصها في عددٍ تالٍ

في الرياضيات فبدأ بعد دخوله كلية ترنقي يدرسن مباحث فراداي ، واخذ يرأسه ليحصل منه على كل ما يعرف عن الموضوع . وكان فراداي قد ابان ان التفاعل الكهربائي بين جسمين لم يكن مجرد تفاعل او تجاذب بين جسمين بعيد احدهما عن الآخر وانما يوجد بين الجسمين خطوط قوة تمر في الوسط المعروف بالاثير وتنقل التأثير الكهربائي من الجسم الواحد الى الجسم الآخر . وموضع الاشكال في هذا الرأي ان الاثير الذي تقضيه خطوط فراداي كان يختلف عن الاثير المسلّم به عند العلماء لا تنقل الضوء وهكذا وقع على كاهل مكسول ان يثبت ان هناك وسطاً واحداً تخترقه خطوط القوة الكهربائية وامواج الضوء على السواء ، وان امواج الضوء والامواج الكهربائية ، من اصل واحد ، وانهما شكلان من اشكال الامواج الكهربائية المغناطيسية . واكتشف ان هذا الوسط ينقل الامواج الكهربائية بسرعة امواج الضوء نفسها . وقد ثبتت لنا صحة هذا القول بعد تحقيق الخطابات اللاسلكية ولمكسول مباحث اخرى في حلقات زحل وفي الامواج اللاسلكية . فانه حسب صفات هذه الامواج وطولها ، فلما صنع هرتز الالمانى آلة تتأثر بها اثبت ما كان مكسول قد انبأ به . وقد لقيت آراء مكسول في الكهربائية المغناطيسية معارضة قوية في اول عهدها ،

الدعاء للعلم في المعابد

وفي العشرين من سبتمبر الماضي (وكان يوم احد) اقيمت حفلة دينية في كاتدرائية لفربول احتفاءً بانقضاء مائة سنة على مجمع تقدم العلوم البريطاني حضرها رئيس المجمع وطائفة كبيرة من اعضائه ومن اعيان مدينة لفربول نفسها فخطب الجنرال سمطس خطبة موجزة مبيّناً فيها ان العلم ورجال العلم من وسائل الله لتحقيق اغراضه العليا وأشار الى اثر العلم الانساني في تموير العقول وتهذيب النفوس وتقريب الامم بعضها من بعض . فردّ عليه الاسقف قائلاً « ليلما الرب ، منبع كل معرفة ، المجتمعين هنا ، فهماً وسروراً . وليحفظهم راسخين في بحرهم عن الحق . وليباركهم بركة واسعة . يا من بعثت في كل جيل من ابنائك رغبة البحث عن الحق ، اكمل نعمتك علينا في هذا العصر ، لكي نراك ، ونحن نفقش عن الحق ، في كل اعمال يديك . . . »

صلاة للعلماء والفلاسفة

وتلا ذلك خطبة للاستاذ ميرز هي اشبه شيء بصلاة للعلم ورجاله قال فيها :
أذكر كل الذين وقفوا مواهب عقولهم ومخيلاتهم في كل الازمان والاماكن ، على تفسير نواميس الفكر ، ومقام الانسان في الكون ، وطبيعة الحقيقة — امثال ارسطو وده فثشي ، وبايكون ، وديكارت ، وكانط

اذكر كل الذين اكتشفوا خواص الاعداد ، واسرار الزمان والمكان — امثال فيثاغوراس ، وارخيدس ، ونيون ، ولينتز وغوس ، وبوانكاره

اذكر كل الذين عيّنوا افلاك النجوم ، ومكان الشمس والقمر والارض بينها — امثال بطليموس وكوبرنيكس وكبلر وتيخوبراهي وهالي وهرشل وهجنز

اذكر كل الذين ، تمكنوا بصبرهم النافذ وصبرهم الذي لا ينفد ، من الكشف عن اتساق وجوب التغير الدائمة في قوى الطبيعة ، وجعلوا الضوء والصوت والحرارة والبرد والبرق والريح والسيل طوعاً للانسان في قضاء اغراضه — امثال غليليو وغلبرت ووط وفراداي وجول ومكسول وراليه وهرتز وبارسنز

اذكر الذين ميزوا العناصر الطبيعية ، وحققوا صفاتها وعلاقاتها بعضها ببعض ، وبذلك استحدثوا مركبات جديدة ، تستخدم في شؤون الصحة والفن —

امثال براسلسنس وبويل ودلتن وبريستلي ولا فوازيه ودابني وبرزيليوس ومنديليف اذكر اصحاب الخيال الوثاب الذي تخطوا بخيالهم العصور فرأوا الحيال والبحار كأنها بنات امس ، اولئك الذين كشفوا عن اساس العالم واطهروا الكنوز الخبوءة فيه ، امثال هتسن ، ونقولا ستينو ، ووليم سمث ، وويل وبوشيه دهرت (وكلمهم من علماء الجيولوجيا)

واذكر اولئك الذين تأملوا سلاسل الناس
المتباينة ، وطبائع عمرانها واجتماعها وعاداتها
ومعتقداتها ، وطرائق معاملتها مع جيرانها
للتمتع بهيات الطبيعة والتربة ، وعمار العقل
والعمل ، وجمع الثروة ، فكانت نتيجة مباحثهم
عاملا في نشر الوية الفهم والسلام بين
الامم - امثال لوك ، ومنتسكيو ، وآدم سميث ،
وغلتن ، وتيلنر

واذكر اولئك الذين على حكمتهم
وآرائهم ، قامت المدارس والكلليات والجمعيات ،
لكي يزدهر الدين الصحيح ويتسع نطاق
العلم . اذكر كل المعلمين الذين يعلموننا ، وكل
الذين يعلمون المعلمين وبقودهم في سبيل
الحق — امثال سقراط وافلاطون
وهربارت وغيرهم

أحاديث التلفون كلمات مرددة

أحصيت أحاديث ألف من الناس على
التلفون فاذا هي مؤلفة من ٨٠ ألف كلمة منها
٢٢٤٠ كلمة كلمات مختلفة . ومن هذه الكلمات
المختلفة ٨١٩ كلمة استعملت مرة واحدة فقط .
واذن فتسعة وتسعون في المائة من ٨٠ ألف
كلمة مؤلفة من ١٤٢١ كلمة مختلفة رددت مراراً .
فكلمتا « أنا » و « انت » رددتا ٧٥٠٠ مرة
أما الكلمات الصغيرة التي يتألف منها معظم
الكلام ، كحروف الجر والعطف ، فرددت
٤٥٠٠٠ مرة . ومعظم الكلمات المستعملة كانت
من مقطع واحد

اذكر اولئك الذين غامروا بحياتهم
واموالهم ، للكشف عن مواطن جديدة
للانسان ، وعمروا الاراضي البائرة وجعلوا
الصحارى تزهر وتبتسم . اذكر جميع الرواد
والرحالين ، وكل الذين مهدوا لهم سبل
السفر بافكارهم او معونتهم — امثال ماركو
بولو ، وكولمبوس ، وهمبولدت ، ولفنستون
وننسن ، وسكت

اذكر كل الذين رتبوا سلاسل الاحياء ،
من نبات وحيوان ، وراقبوا طبائعها ودرسوا
مواطنها ، وبجئوا في زراعها على مر الدهور ،
ودونوا وفرة تنوعها وروعة جمالها وحسن
ملاءمتها لمقتضيات بيئتها ، وفرقوا فيها بين
اعداء الانسان واصدقائه ، وحاولوا ان
ينوعوا بعضها ليصبح اكثر ملاءمة لحاجة
الانسان - امثال ابقراط وجالينوس ولينيوس
وكوفيه ولامرك ودارون وهكسلي ومندل
واذكر اولئك الذين طبقوا مبادئ
العلوم المختلفة على حرائة التربة ، ودفع
الآوبئة والمجاعات ، وتربية المواشي ، واخصاب
الحقول — امثال جترو تول ، ودويني ،
ولينغ ، ولوز ، وتيلر

واذكر الذين بدرسهم الدقيق لظواهرات
الحياة كشفوا عن اسرار الامراض واستنبطوا
وسائل لمنع فتكها او حصره ، ووسعوا نطاق
معرفتنا عن صحة الجسد والعقل — امثال
قساليوس ، وهارفي ، وهنتر ، وجنر ، وكلود
برنارد ، وباستور

الكهربائية من الشمس

جروندهل وبول جيچر من علماء الولايات المتحدة قد كشفوا القناع عن حقيقة خفية وهي : ان اوكسيد النحاس اذا وضع بين شطيرتين من النحاس الاحمر وعرض لضوء الشمس تولد فيه تيار كهربائي ضئيل. وقد ظهرت تلك التيارات الضعيفة عند التجربة في المختبر ولكنها لم تكن ذات نفع عملي كمصدر للقوة الكهربائية

الصفائح الجديدة

اما الآن فان العالم الالماني قد استنبط شطيرة معدنية جديدة ذات قوة كهربائية مذهلة بان استبدل باوكسيد النحاس سلتيد الفضة (وهو مادة مؤلفة من الفضة والسلينيوم والسلينيوم عنصر غير معدني شديد الاحساس بالضوء. وقد استعمله الباحثون الاولون في تجاربهم الخاصة بالاجهزة الكهربائية) بمثابة حسوة توضع بين الشطائر

ويضع الدكتور لنج فوق هذه الحسوة طبقة رقيقة من معدن آخر مجهول يبلغ تحتها بضع جزئيات فقط. فاذا ما تخلل النور ذلك الغشاء الشفاف ولد تياراً بين طبقتي المعدن اللتين تحته. وقد قيست قوة ذلك التيار فثبتت انها تزيد على قوة بطارية اوكسيد النحاس القديمة من ٥٠ مرة الى ١٥٠ مرة

قال محرر مجلة العلم العام : بينما نكتب هذا المقال يشاهد في مختبر علمي من مختبرات برلين عاصمة المانيا مصباح مدهش ما فتى موقداً من أشهر اناء الليل واطراف النهار ينبعث منه ضياء كهربائي يتولد تياره من ضياء الشمس. ان ذلك المصباح يبشرنا بالحصول ذات يوم على مصدر كبير ذي قوة لا تنفد ولم تصل اليها يد مخلوق بعد

المخترع الماني

ومخترع هذا المصباح العجيب هو الدكتور برونو لنج البحاث في معهد القيصر ولهم في برلين. وهو عالم في الثامنة والعشرين من عمره. وقوام المصباح المشار اليه صفائح معدنية شديدة الاحساس جداً بالضوء يذرع بها المخترع الى جعل ضياء الشمس تياراً كهربائياً. والمخترع شديد التفاؤل بمخترعه هذا اذ يقول .. سنرى في القريب العاجل مصانع ضخمة تتوسل بالآلاف من تلك الصفائح المعدنية الى جعل ضوء الشمس قوة كهربائية تبرز القوى التي تتولد من مساقط المياه والبخار لادارة المولدات الكهربائية التي تستخدم في المصانع وانارة البيوت

وكان الدكتور لنج منذ عدة سنين هو وغيره من العلماء ولاسيما الدكتورين

وقد عُرِضَتْ احدى تلك الشطائر المعدنية للضوء ، في يوم تلبدت سماءه بالغيوم ، فتولد فيها تيار يكفي لتدوير محرك صغير في المختبر وبناءً على ذلك يرى المخترع ان في وسعه انشاء مصنع كبير لتوليد الكهرباء من الشمس يستطيع توليد ٣٠٠٠٠٠ كيلو واط بنفقة لا تزيد عما يلزم لاقامة محطة لتوليد الكهرباء من مساقط المياه لا تاج القوة عنها

ويلزم لاقامة المحطة التي تحتوي على الصفايح المعدنية التي تولد القوة السابقة الذكر مساحة تبلغ ميلاً مربعاً واحداً تقريباً. وتبلغ نفقة الكيلو واط الواحد ما تنتجه ٢٥٠ ريالاً وربما اقل من ذلك بحسب تقدير المخترع. فيما تتراوح نفقة بناء المصنع العصري الذي يولد مثل تلك القوة الكهربائية بالمياه من ١٠٠ الى ٣٠٠ ريال لكل كيلو واط واحد

فاذا تحقق هذا المشروع الخاص بتوليد القوة من الشمس استطاعت المصانع الاستغناء عن الفحم الحجري الذي اخذت المقادير المدخرة منه في جوف الارض تنضال . ومتى تم بناء محطة كهربائية شمسية كانت نفقاتها لا تذكر بحسب تقدير المخترع لانه يتيسر توليد التيار منها بسعر منخفض وذلك في الجهات التي يكثر فيها ضياء الشمس

فوائد اخرى

وفضلاً عن توقع ادارة الدوايب الكبيرة بالقوة التي تتولد من ضوء الشمس

فان الصفايح المعدنية الحديثة التي اخترعها الدكتور لنج تقوم باعمال اخرى مختلفة. فمن فوائدها ادماجها في آلة تسجيل او توماتيكية ، تعمل بنفسها لتحديد اصلح وقت لظهار الصور الفوتوغرافية

ولما كانت هاتيك الصفايح المعدنية شديدة الاحساس بالاشعة الشمسية التي فوق الاحمر في الطيف الشمسي اي الاشعة التي تخترق الضباب دون ان تراها العيون البشرية فقد يتاح استخدامها في تلقي الاشارات على متون البواخر والطائرات وهي تميز الضباب او تخلق في الجو في الضباب الكثيف. ثم انها قد ترشد الطيار الذي يضل الطريق عند تلبد الغيوم الى اتجاه الشمس وما يجدر ذكره في هذا المقام ان

باخرة من اكبر البواخر الالمانية المعدة لنقل الركاب سيركب فيها جهاز اوتوماتيكي لمراقبة الحريق يحتوي على تلك الآلة الحساسة بالضوء . ومدار عمله ان الهواء الذي يتخلل اجزاء الباخرة كافة يسلط على أنابيب فيسري فيها متجهاً الى الجهاز الكهربائي فان كان ذلك الهواء مشبعاً بالدخان قسّم الضوء الساطع على الجهاز وخفض بقتة من قوة التيار الصادر من الجهاز فينجم عن هذا انذار بالخطر يُشعرُ ذوى الشأن بالامر ويدلهم على مكان الحريق بالضبط

وقد استخدمت البطاريات الكهربائية المختلفة الانواع من عدة سنين في اعمال كثيرة

هر نغتن فقد استنبط لها طريقة تمكنهما من تخفيف البكتيريا تخفيفاً سريعاً جداً. والتخفيف هنا نسبي أي انهما قللا مقدار الماء فيها الى ادنى حدٍ مستطاع . فوجدان ان ثلثي البكتيريا العنقودية تمت حلالاً لدى استنباطها بعد انقضاء ٩٧ يوماً على تخفيفها بالطريقة المتقدمة . اما بعض الاصناف الاخرى فلم يبق حياً منها الا ٢ في المائة او ٣ في المائة البلون الاميركي اكرون

لما كان البلون الاميركي الجديد « اكرون » يعتمد على غاز الهليوم الذي لا يلهب ، بدلاً من اعتماده على غاز الايدروجين الشديد الالتهاب ، فسوف يسمح للركاب ان يدخلوا على متنه في اثناء الطيران ، وان يشعروا لفائفهم من عيدان الثقاب اذ لا يخشى على شيء في البلون من الالتهاب وهذا ممنوع في البلونات الاوربية تصحيح خطأ

طبعت الملزمة الخامسة في هذا العدد في اثناء غياب المحرر عن الادارة فوقت فيها اخطاءاً صححناها فيما يلي لكي تستقيم المعاني في الجمل المختلفة

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٨٩	٧	بناءها	بقاؤها
٢٩٠	٣	اوسينسكي	اوسينسكي
٢٩٢	٢	الفم والاولدية	السفوح والاولدية
٢٩٣	٨	زهواً وموياً	زهراً وموراً
٢٩٦	٢٨	المبول المتعارفة	المبول المتعارضة

وتكتب كلنا « سويرمان » و « زراسترا »

في كل المقالة بالرسم المتقدم

فادت خدمات أشبه بما يروى عن عصا الساحر . وهي تكاد تشبه زجاجات المصابيح الكهربائية العادية بيد انها تبطن بمعدني البوتاسيوم والكايسيوم بمثابة غشاء داخلي فتطير من سطح هذا الغشاء كهارب الذرات وتنظم تياراً كهربائياً متى وقع عليها النور

وسيشرع الدكتور لنج عاجلاً في توصيل عدد كبير من صفائح المعدنية بعضها ببعض وجعلها وحدة قائمة بنفسها ثم يتدفع بها الى توسيع نطاق مشروعه الخاص باستمداد القوة الكهربائية من ضياء الشمس

الجفاف لا يميته كل البكتيريا

تدل مباحث الدكتور ان ستارك وهر نغتن من اساتذة جامعة كورنل التي اجريها لمعرفة هل الحياة من دون ماء ممكنة او لا ، ان بعض البكتيريا لا يميته الجفاف . والعلماء في ذلك فريقان ، فريق يقول بأن بعض البكتيريا لا يميته الجفاف ، والفريق الآخر يذهب الى ان الجفاف التام يميته . اما الدكتور ستارك وزميله فيقولان بتعذر معرفة الحقيقة . لأنه اذا جففت بعض البكتيريا وماتت في اثناء تخفيفها ، قيل ان طريقة التخفيف ، لا التخفيف نفسه ، اماتها . واذا لم تمت قبل انها لم تخفف تخفيفاً تاماً . ويزداد هذا الامر تعقيداً ، لعجزنا الآن عن التفريق بين الماء المطلق والماء كما يدخل في تركيب المادة الحية

اما تجارب الدكتور ستارك والدكتور

الجزء الثالث من المجلد التاسع والسبعين

صفحة	
٢٥٧	العلم والانسانية
٢٦٠	غرائب تعاون الحيوان (مصورة)
٢٦٥	من هو الرجل السعيد . للفيلسوف برتراند رسل
٢٧٣	توماس اديسن (مصورة) بروميتيوس العصر الحديث — سيرته ونوادره — من استنبط الفونوغراف — رأيه في الحياة والموت والخلود
٢٩٠	النمو الروحي المتسق . للفيلسوف اوسپنسكي
٢٩٧	الابداع في التفكير . لشارل مالك
٣٠٦	السحابة المغفرة (قصيدة) . لحسن كامل الصيرفي
٣٠٧	اصل النظام الشمسي ونشؤه . للسرجيمز جينز (مصورة)
٣١٢	المحرمات الجنسية . لاديب عباسي
٣١٧	الميكروبات الخفية تستحلى
٣٢٤	علاج داء ادمان المخدرات . للدكتور فرا (مصورة)
٣٣٠	المستشرق الروسي كراتشكوفسكي . للاستاذ بندلي جوزي (مصورة)
٣٣٦	اعظم الحوادث في التاريخ
٣٤٤	مجدو وآثارها . لنقولا زيادة (مصورة)
٣٥٤	مكانة سوريا في التاريخ العالمي . لاحمد بديع المغربي



٣٦٢	مكتبة المقتطف * جلالة الملك بين مصر واوروبا — ابن الرومي — الشاعر القروي — ابراهيم الكاتب — المرقيات — قصص جديدة الاطفال — ذكريات باريس — بسائط علم النفس — الدليل العام
٣٧٦	باب الاخبار العلمية * العيد المثوي لجمع تقدم العلوم البريطاني — احاديث التلفون — الكهرباء من الشمس — البكتيريا والجفاف — البلون « اكرون »